

چان بول سارتر الكلمات

ترجمة: محمد مندور
تقديم: خليل صابات



ميراث الترجمة

إن "كلمات" سارتر- المؤلف المسرحي والروائي والفيلسوف -
شأنها شأن اعترافات "روسو" و"أوغسطين" تتجاوز وجهتها
وموضوعاتها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان
الأبدية لظروف وجوده. إن "الكلمات" قصة تبحث عن أصل
"الأنا" وحلم الماضي ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب
الأخر للفلسفة الصورية.

الكلمات

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2443
- الكلمات
- جان بول سارتر
- خليل صابات
- محمد مندور
- 2015

هذه ترجمة كتاب:

Les Mots

Par: Jean-Paul Sartre

Copyright © Editions Gallimard, 1964

Arabic Translation © 2015, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الكلمات

تأليف : جان بول سارتر
تقديم : خليل صابات
ترجمة : محمد مندور



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سارتر ، جان بول ، ١٩٥٠
الكلمات / تأليف : جان بول سارتر؛ ترجمة: خليل صابات؛
مراجعة: محمد مندور - ٢٢٨ ص : ٢٠ سم
القاهرة - المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٥

١ - الرجوعية

(أ) صابات، خليل	(مترجم)
(ب) مندور، محمد	(مراجع)
(ج) العنوان	١٤٢،٧

رقم الإيداع ٢٥٥٩٧ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي 7-0021-92-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

مقدمة المترجم

لا يمكن أن نفهم الكلمات ، الفهم الصحيح لها دون أن نستعرض
شيء من التمثل حياة مؤلفها وأعماله . إن جان بول سارتر يعتبر رأس
الفلسفة الوجودية والداعى لها فى المجالس التى يعقدها فى المقاهى الأدبية
وأقية حى سان جرمان دى برية يباريس ؛ ويراها بعض الناس شخصية
سياسية تدعو إلى كتابة المنشورات وتحمر فى مجلة يسارية وتشترك فى
الاجتماعات السياسية ونحوها . ويحكم عليه آخرون بأنه فيلسوف يتأمل
فى سكون غرفة فندق . تلك هى الوجوه الثلاثة لجان بول سارتر الروائى
والمؤلف المسرحى وكاتب المقالات الأدبية الذى اعتذر عن قبول جائزة نوبل
فى الأدب وأثار اعتذاره مختلف التعليقات لا فى الأوساط الأدبية الفرنسية
فحسب ، بل فى العالم أجمع .

ولد سارتر فى باريس خلال شهر يونية من سنة ١٩٠٥ وكان أبوه
ضابطاً فى البحرية الفرنسية ، أما أمه آن ماري شوايتزر ، فقد كان عمها
الدكتور البير شوايتزر الطبيب الشهير الذى نال هو الآخر جائزة نوبل .
وقد كان بول أباه وهو فى الثانية من عمره فعاش مع أمه عند جده .

ويقول الحفيد عن هذا الجد فى الكتاب الذى تقدم له بأنه دفعه
إلى اعتبار الشيء المكتوب أكثر واقعية وأهم من الشيء الذى نعيشه
هونجيا . ومنذ السادسة من عمره كان جان بول سارتر يكتب الروايات .

« لحاجتي إلى أن أبرر وجودي جملة من الأدب مطلقا . وكانت لابد لي من ثلاثين سنة كي أتخلص من هذه الحالة الذهنية . »

وبعد أن درس سارتر في ليسيه لاروشيل ثم في ليسيه هنري الرابع التحق بمدرسة المعلمين العليا وهو في التاسعة عشرة من عمره . وبعد ثلاث سنوات من الدراسة نجح في « اجريجاسيون » الفلسفة ، وكان الأول على أقرانه . وفي هذه الأثناء بدأ يهتم مع مجموعة صغيرة من زملاء الدراسة بفلسفة الوجود التي كان يدعو إليها الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر خليفة الفيلسوف الدنمركي كيركجارد . وعين سارتر مدرسا في الهافر التي اتخذها أطارا لروايته « الغثيان » ، ثم انتقل إلى لاون . وقضى سنة في المعهد الفرنسي ببرلين حيث التقى بالفيلسوف ادموند هوسرل مؤسس فلسفة الظواهر . وقد تأثر سارتر بهذه الفلسفة في كتابه « الوجود والعدم » الذي ظهر في سنة ١٩٤٣ . غير أن الجمهور لم يكتشف الناحية المثيرة من مذهبه بعد الحرب ، أي « الوجودية » ، إلا في مؤلفاته الروائية .

فبعد « الغثيان » ، يقدم سارتر « الحائط » ، ثم ثلاثية « طرق الحرية » ، التي ظلت نافذة . لقد أعلن سارتر عن قرب ظهور الجزء الرابع من هذا الكتاب ولكنه لم يظهر أبداً ؛ والواقع أن كتابنا « الزم » ، أكثر فاكث العمل السياسي . فقد حاول أن يؤسس أثناء احتلال الألمان لفرنسا جماعة « الاشتراكية والحرية » ، ولكنه لما كان « ماركسيا إنسانيا » فصرغان ما وقف يعارض الحزب الشيوعي ويتهمة بأنه يعارض « ماركسية »

جامدة ، . وحى وطيس الجدال واحتل مكانا رجا من مجلة « الأزمّة الحديثة » التي أنشأها أدينا الفيلسوف في سنة ١٩٤٦ مع لقيف من أصدقائه نذكر منهم الفيلسوف موريس مرلو بونتي والبير كامو الذي لم يلبث أن اختلف معه وانفصل عنه .

ويعتبر سارتر ، المسرح منبرا دائما لعرض آرائه . فبعد « الذباب » و « الجلسة السرية » التي أخرجها للمسرح ألبير كامو ، قدم « المومس الفاضلة » و « الأيدي القذرة » وكانت التمثيلية الأخيرة تنديدا بالوسائل السالنية وقد أثارت بطبيعة الحال جدلا عنيفا . وألف بعد ذلك « الشيطان والله » و « كين » وقد اقتبس التمثيلية الأخيرة اقتباسا حرا عن اسكندر دوماس الأب وآخر مسرحياته « سجناء التونة » .

إن سارتر يخوض معركة رهية من أجل الوضوح والحرية وهما ، في نظامه ، الصفتان اللتان لا بد منهما لحياة الإنسان . وفي رأيه أن الإنسانية تكون من فئتين : « الصاحون » الذين اختاروا وهم يعلمون ماذا يفعلون و « القذرون » الذين لا يريدون أن يختاروا أو الذين يختارون وهم يكذبون على أنفسهم .

ولكن إذا أردنا أن نكون أحرارا فلا بد لنا أيضا من أن نريد أن يكون الآخرون أحرارا .

لقد أدى هذا الرأي الجديد إلى مجادلات لاحد لها . وقد حاول سارتر أن يؤسس حزبا سياسيا أطلق عليه « المنظمة الديمقراطية الثورية » كما حمل حملات شعواء على الاستثمار وأيد ثورة فيدل كاسترو واستقلال الجزائر

إن سارتر بصدد نشر مجموعة جديدة من «المواقف» ، وهي عبارة عن عدد من المقالات والموضوعات والمقدمات التي كتبها بين سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٣ وكلها تعالج الاستثمار والاستثمار الجديد وتبرهن على أن مؤلف «الكلمات» لم يعدل عن الكفاح السياسي .

إن «كلمات» سارتر شأنها في ذلك شأن «اعترافات» ، جان جاك روسو أو القديس أوغسطينوس تتجاوز وجهتها وموضوعها لتصبح مرآة تفكير عصر وسجل مواجهة الإنسان الأبدية لظروف وجوده . إن «الكلمات» قصة تبحث عن أصل «الأنا» وحلم الماضي ومذكرات شخصية قاسية تقف على القطب الآخر للفلسفة الصورية . إن الفلسفة والأدب كلاهما نوع من الكذب أو بالأحرى اقتراب من الواقع ، على حد تعبيره في «الكلمات» الذي كتبه في التاسعة والخمسين من عمره .

خليل صابات

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ
الْقِرَاءَةُ

في مقاطعة الأتراس ، حوالى سنة ١٨٥٠ ، قبل معلم مرهق بالأطفال
أن يعمل بدالا . وقد أراد هذا المرتد تعويضاً . فبما أنه تخلى عن تكوين
العقول ، فليتول أحد أبنائه تكوين النفوس ، لسوف يكون في الأسرة
راع^(١) ، هو شارل . ولكن شارل تهرب ، وفضل أن يقطع الطرقات
في إثر سائسة تعمل في سيرك . فأدبرت صورته إلى الحائط ومنع النطق
باسمه . على من الدور إذن ؟ لقد أسرع أوغست إلى تقليد تضحية أبيه .
فدخل التجارة وسكن إليها . لم يبق إلا لويس الذى لم يكن لديه أى
استعداد محدد : لقد استولى الأب على هذا الصبي الهادىء وجعله راعياً في
غمضة عين وبلغت الطاعة بلويس بعد ذلك جداً جملةً ينجب بدوره
راعياً ، هو البير شوايتزر الذى نعرف مهنته^(٢) . غير أن شارل لم يثر
على سائسته ، لقد أثر سلوك أبيه الجميل فيه : فاحتفظ طول حياته بطعم
الرفعة وبذل جهده في صنع ظروف عظيمة بأحداث صغيرة . ولم يكن
يفكر ، كما نرى في التلمص من الميل العائلي : فقد كان يتمنى أن يهب
نفسه لشكل مخفف من الروحانية ، لكهنوت يسمح له بالسائسات .
ووجد غايته في العمل كأستاذ . وفضل شارل أن يعلم الألمانية .

(١) قيسر بروستاتنى (المترجم) .

(٢) هو الطبيب الفرنسى الذى أسس في الجابون مستشفى لعلاج الجذام ونال

جائزة نوبل للسلام (المترجم) .

وناقش رسالة عن هانس ساكس^(١) واختار المنهج المباشر الذي ادعى بعد ذلك أنه مبتكره ، ونشر بالاشتراك مع م . سيمونو « المطالعة الألمانية » التي نالت تقديراً ، وتقدم بسرعة : وانتقل من ماكون إلى ليون فباريس ، وفي هذه المدينة الأخيرة ، ألقى في حفل توزيع الجوائز خطاباً استحق شرف طبعه في طبعة خاصة وفيه يقول : « سيدى الوزير ، سيداتى ، سادى ، أولادى الأعزاء ، لن تحزروا قط عما سأتحدث إليكم اليوم ! سأحدث عن الموسيقى ! ، وكان يدع في الأشعار التي تلقى في المناسبات . وتعود أن يقول في اجتماعات الأسرة : « أن لويس هو الأتقى وأوغست الأغنى وأنا الأذكى . ، وكان الاخوان يضحكان وكانت ازوجتان زمان شفتيهما . وفي ماكون كان شارل شوايتزر قد تزوج بلوبز جيان ابنة وكيل دعاوى كاثوليكي . وكرهت العروس شهر عسلها : فقد اختطفها قبل نهاية الطعام وألقى بها في قطار . وفي سن السبعين كانت لويز لا تزال تتحدث عن سلطة الكراث التي قدمت لها في مقصف إحدى المحطات قائلة : « كان يأخذ الأبيض كله ويترك لي الأخضر . »

لقد أمضيا خمسة عشر يوماً في الألزاس دون أن يتركا المائدة ؛ وكان الاخوان يتبادلان باللهجة الريفية قصصاً غير مهذبة ؟ وكان الراعى يلتفت إلى لويز بين آن وآخر ويترجمها لها على سبيل المحبة المسيحية . ولم تتوان في الحصول على شهادات مجاملة أعفتها من الاتصال بزوجها وأعطتها حق أن يكون لكل منهما غرفته الخاصة ؛ كانت تسكلم عن صداها ،

(١) شاعر ألماني ولد في نورمبرج سنة ١٤٩٤ وتوفي في سنة ١٥٧٦ ألف عدداً من التمثيليات ذات الموضوعات الدينية أو القديمة (المترجم) .

واعتادت ملازمة الفراش ، وبدأت تكره الضوضاء ، والهوى والحماس . وكل حياة أسرة شويتزر الغليظة المفتعلة . إن هذه المرأة الحية والحيثة بل الباردة كانت تفكر تفكيراً مستقيماً سيئاً ، لأن زوجها كان يفكر جيداً وبعمارة ؛ ولأنه كان كذاباً ومريع التصديق ، كانت تشك في كل شيء . وتقول : إنهم يدعون أن الأرض تدور ؛ ما الذى يديرهم بذلك ؟ ، ولما كانت محاطة بممثلين فضلاء ، فقد كرهت التمثيل والفضيلة . إن هذه الواقعية البالغة رقة ، التأهبة وسط أسرة من الروحانيين الغلاظ ، اعتنقت الفولتيرية تحدياً دون أن تقرأ فولتير . وكانت ظريفة وسمينة وسفهمية ومازحة فأصبحت السلية البحتة ؛ فبرقع للحاجين وبابتسامة غير محسوسة كانت تسحق كل المواقف الكبيرة ، بنفسها وبدون أن يلحظ أحد . أن كبرياءها السلية وأنانيتها إبائها أفيائها . ولم تكن ترى أحداً ، فقد كان تكبرها الزائد يمنعها من السعى للحصول على المكان الأول ، وكان زهوها لا يدعها ترضى بالمكان الثانى . وكانت تقول « تعلمى كيف تجعلهم يشتهونك . » لقد اشتهاها كثيراً ، ثم أخذ هذا الاشتها يقل شيئاً فشيئاً وانتهى الأمر بنسيانها لقلة ما رؤيت . ولم تعد تغادر كرسيها أو فراشها إلا قليلاً . ولما كانت أسرة الشوايتزر من أتباع المذهبين الطبيعى والبوريتانى (١) — وتآلف هذين المذهبين فى الفضائل أقل ندرة مما نعتقد — فقد كان أفراد هذه الأسرة يحبون الألفاظ الفجة التى مع تحقيرها الجسد من الوجهة المسيحية البحتة ، تعبر عن قبولها للوظائف.

(١) مذهب يتمسك أصحابه بمعرفة ما جاء فى الكتاب المقدس ويميزونه

بالصلابة . (المترجم)

الطبيعية ؛ وكانت لويز تحب الألفاظ المعطاة . وكانت تقرأ كثيراً من الروايات الخفيفة التي كانت تقدر فيها شفافيتها القنعة أكثر من تقديرها لحبكة أحداثها . وكانت تقول في لطف : « إنها جريئة ، ومكتوبة جيداً : مروا أيها الناس ولا تلعنوا ! » واعتقدت هذه المرأة الناصعة البياض أنها ستموت من الضحك وهي تقرأ « فتاة من نار » لأدولف ييلو : وكانت تحب أن تحكي قصص ليالى الأعراس التي تنتهى دائماً نهاية سيئة : فتارة ترى الزوج ، فى عجلته البهيمية ، يقصف رقبة زوجته على خشبة السرير ، وتارة يعثر على المروس الصغيرة فى الصباح وقد لجأت فوق خزانة الملابس ، عارية ، ومجنونة : وكانت لويز تعيش على ضوء خافت ؛ وكان شارل يدخل عندها ويدفع مصاريع التوافذ ويضئ كل المصاييح ، وكانت تزفر وهي تضع يديها على عينيها قائلة : « إنك تعيشين يا شارل ، ولكن مقاوماتها لم تكن تعد حدود المعارضة الدستورية : فقد كان شارل يوحى إليها بالخوف ، وبازعاج مدهش وأحياناً أيضاً بالصدافة ، بشرط ألا يلمسها : وكانت تسلم له بكل شيء منذ أن يأخذ فى الصباح : وأنجبت له أربعة أطفال دون توقع : بنت ماتت صغيرة وصبيان وبنت أخرى : وعن عدم مبالاة أو عن احترام سمح الزوج بأن يربى الأولاد وفق المذهب الكاثوليكي . ولما كانت لويز غير مؤمنة ، فقد جعلهم يؤمنون بالكاثوليكية عن تفرز من العقيدة البروتستانتية : وأخذ الصبيان جانب أمهما ؛ فأبديهما رويداً عن هذا الأب الضخم ؛ ولم يلحظ شارل ذلك ودخل جورج الابن البكر مدرسة الهندسة : وأصبح الابن الثانى مدرساً للغة الألمانية ، وكانت الأم تقول عنه إنه يخلق بالى فأنا أعرف أنه ظل عزياً ولكنه كان يقلد أباه فى كل شيء ، على الرغم من عدم حبه له ، وانتهى

الأمر باختلاف الأب مع الابن ، وحدثت مصالحت لا تنسى ، إن اميل كان يخفي حياته ، وكان يعبد أمه ، احتفظ حتى النهاية بمادة زيارتها زيارات سرية ، دون سابق اخطار ؟ وكان يعطرها بقبلاته وملاطقاته . ثم يأخذ في الكلام عن أبيه بسخرية في أول الأمر ثم بغضب شديد ويتركها وهو يصفق الباب من خلفه . اعتقد أنها كانت تحبه ولكنه كان يخيفها : إن هذين الرحلين الغليظين والصعبين كانا يتعبانها وكانت تفضل عليهما جورج الذي كان غائبا باستمرار ، ومات اميل في سنة ١٩٢٧ ، وقد جن من الوحدة : ووجد تحت وسادته مسدس : وفي حقائقه وجدت مائة زوج من الجوارب المثقوبة وعشرون زوجاً من الأحذية المكسوة .

وقضت آن ماري ، الابنة الصغرى ، طفولتها على كرسى . لقد علموها الضجر وأن تقف وتقعده معتدلة ، كما علموها الحياطة . وكانت لها مواهب واعتقدوا أنه من اللباقة تركها على سجيئها ؛ وكانت فيها نضارة : ولكنهم عملوا على اخفائها عنها . إن هؤلاء البورجوازيين البسطاء والتكبريين كانوا يجدون الجمال فوق إمكانياتهم أو دون وضعهم ؛ وكانوا يسمحون به للركيزات والمومسات . كانت كبرياء لوز عقيمة للغاية : خفوا من أن ترمى بالبلاهة ، فقد كانت تنكر في أولادها وفي زوجها وفيها نفسها الصفات الواضحة كل الوضوح ؛ ولم يكن شارل يعرف كيف يتعرف على الجمال عند الآخرين : فكان يخلطه بالصحة : ومنذ مرض زوجته كان يجد سلواه في صحبة السيدات المثاليات المتوردرات ذوات الشوارب الجيدات الصحة . وبعد مرور خمسين سنة ، لاحظت ماري ، وهي تتصفح سجل صور الأسرة ، أنها كانت جميلة .

وفي حوالى الوقت الذى التقي فيه شارل شوايتزر بلوز جيان ، تزوج أحد أطباء الريف ابنة أحد أصحاب الأملاك الأغنياء من مقاطعة البريجور وأقام معها فى شارع تيفيه الكبير والحزين ، أمام الصيدلى . وغداة الزفاف اكتشف أن والد العروس لا يملك شيئاً . ومن الغيظ ، ظل الدكتور سارتر أربعين سنة لا يوجه الكلام إلى زوجته ، فعلى المائدة كانا يتحدثان بالإشارات ، وانتهى الأمر بأن أسمته « نزيل » . وكان ، مع ذلك ، يشاركها فراشها ، وكان ينبج منها بين آن وآخر ، دون أن ينبس بكلمة : فقد أعطته ولدين وابنة ؛ وأطلق على أولاد الصمت هؤلاء جان باتيست وجوزيف وهلين . وتزوجت هلين متأخرة ، من أحد ضباط سلاح الفرسان الذى أصيب بعد ذلك بالجنون . وأدى جوزيف الخدمة للمسكرية فى فرقة المشاة الجزائرية وعاد فى سن مبكرة إلى والديه . ولم يكن صاحب مهنة . ولما كان واقفاً بين بكم أبيه وصياح أمه فقد أصبح لجلاجا وقضى حياته يكافح الكلمات . وأراد جان باتيست أن يعد نفسه للمدرسة البحرية ليرى البحر . وفى سنة ١٩٠٤ ، وهو ضابط فى البحرية وقد وقع فريسة لحيات كوشاشين^(١) ، تعرف فى شربورج على آن مارى شوايتزر واستحوز على هذه الفتاة الكبيرة المقطوعة وتزوجها وأنجب منها بسرعة ولداً هو انا وحاول أن يلجأ إلى الموت .

إن الموت ليس سهلاً : كانت الحمى المعوية ترتفع دون عجل بل وتراجع

أحيانا وكانت آن ماري تعنى به بتفان ، ولكن دون أن تصل بها الجراءة إلى حد الحب . لقد حذرته لويز من الحياة الزوجية : فبعد زفاف دام ، تابعت التضحيات إلى ما لا نهاية تقطعها ثقافات ليلية . واقتداء بأُمها فضلت أُمي الواجب على اللذة . ولم تكن تعرف أبي كثيراً ، لا قبل الزواج ولا بعده . ولا بد أنها تساءلت أحيانا لماذا اختار هذا الغريب أن يموت على ذراعيها . لقد نقلوه إلى مزرعة على بضعة فراسخ من تيفيه ؛ وكان أبوه يأتي لزيارته يوميا على عربة صغيرة . وأنهك السهر والهجوم آن ماري ، خفف لبنها ، وعهد بي إلى إحدى الممرضات غير البعيدة من هناك واجتهدت أنا أيضا في الموت : من إلهاب الامعاء وربما من القيظ . وفي العشرين من عمرها وبدون خبرة ولا نصائح ، كانت أُمي تمزق نفسها بين محضرين مجبولين ؛ إن زواج العقل الذي قبلته كان يجد حقيقته في المرض والحزن وقد استفدت أنا من الموقف : ففي ذلك الوقت كانت الامهات يرضعن أطفالهن بانفسهن ولمدة طويلة ؛ ولولا هذا الاحتضار المزدوج لتعرضت لصعوبات الطعام المتأخر . ولما كنت مريضا ومقطوما بالقوة في شهرى التاسع ، فإن الجنى والتهافت الجسمي منعاني من الشعور بآخز حز للمقص الذي يقطع الروابط بين الأم والولدا لقد انغمست في عالم مشوش ، تسكنه أوهام بسيطة وأصنام خشنة . وعند موت أبي استيقظت أنا وآن ماري من كابوس مشترك ؛ وشفيت . ولكننا وقعنا ضحية سوء تفاهم . لقد عادت من حب إلى ابن لم تكن قد تخلت عنه قط تخليا حقيقيا واستعدت أنا وعبي على ركبتي سيدة غريبة .

ولما كانت آن ماري بلا مال ولا صنعة ، فقد قررت العودة لتعيش

في بيت والديها . غير أن الموت الوقح الذي نزل بأبي أغم أسرة شوايتزر :
 إنه يشبه كثيراً التطليق : ولأن أمي لم تعرف كيف تتوقعه ولا كيف تمنحه
 فإنها اعتبرت مذنبه : وقد قبلت في طيش زوجها لم يدم طويلاً . وبالنسبة
 لأريان (١) الطويلة التي عادت إلى مودون مع طفل على ذراعيها كان
 الجميع ممتازين : فجدى الذي كان قد طلب إحالته إلى المعاش استأنف العمل
 دون كلمة عتاب ؛ وكان انتصار جدتي نفسها انتصاراً رزياً . ولكن آن
 ماري ، وقد جمدها عرفان الجليل ، كانت تبين العتاب من خلال العمالة
 الطيبة : إن الأسر تفضل بالتأكيـد الأرامـل على البنات اللواتي ينجبن
 سفاحاً ، ولكنه تفضيل قليل للغاية . ولكي تحصل على العفران ، بذلت
 نفسها دون حساب ، وأشرفت على منزل والديها ، في مودون ثم في باريس
 وعملت مربية وممرضة ورئيسة خدم ومصاحبة وخادمة دون أن تتمكن من
 تهدئة مضايقة أمها الصامتة . وكانت لويز ترى من الملل أن تعد قاعة
 الطعام كل صباح والحساب كل مساء ولكنها كانت لا تتحمل أن يقوم
 أحد غيرها بذلك ؛ وكانت لا تقبل أن تعفى من التزاماتها إلا في غضبه
 خوفاً من أن تحرم من امتيازاتها . إن هذه المرأة التي تتقدم في السن والتي
 لا تحترم آداب المجتمع لم يكن لديها إلا وهم واحد . فقد كانت تعتقد أنها
 ضرورية . ولكن الوهم تبدد : وأخذت لويز تغار من ابنتها . يا لآن
 ماري المسكينة : فهي إن اتخذت موقفاً سليماً ، اتهمت بأنها عبء ؛
 وإن اتخذت موقفاً إيجابياً ظن بها أنها تريد الهيمنة على المنزل . ولكي

(١) يشبه المؤلف أمه بأريان في أساطير الأغريق التي هجرها تيزيه

تجنب القبة الأولى احتاجت إلى كل شجاعتها وتستجب الثانية احتاجت إلى كل تواضعها . ولم تحتج الأرملة الشابة إلى وقت طويل لكي تعود قاصرة : عذراء دنسة . ولم يمنع عنها مصروفها الشخصى : ولكن كانوا ينسون أن يعطوها هذا المصروف ؛ لقد استعملت ملابسها كلها حتى بليت دون أن يفكر جدى في تجديدها ، وبالكاد كانوا يجيزون لها الخروج وحدها . وحين كانت صديقاتها القديعات ، وأكثرن متزوجات ، يدعونها إلى العشاء ، كان عليهن أن يطلبن الإذن قبل الموعد بوقت طويل وأن يعدن بإعادتها قبل العاشرة . وفي وسط الطعام ، كان رب البيت يقوم من المائدة ليصحبها بالعربة إلى منزلها . وفي هذه الأثناء ، كان جدى يذرع أرض حجرة نومه وهو بقميص النوم وساعته في يده . وكان يرعد عندما تدق الماشرة آخر دقة وأخذت الدسوات تقل كثيراً وكرهت والدتى هذه اللذات الباهظة الثمن .

وكانت وفاة جان باتيست أكبر حدث في حياتى إذا أعاد أُمى إلى أغلالها ومنحنى الحرية .

لا يوجد أب طيب ، تلك هى القاعدة ؛ ويجب ألا نلوم الرجال على ذلك ، بل نلوم رباط الأبوة المتعفن . ليس هناك أحسن من إنجاب الأطفال : ولكن يا له من ظلم حين نرزق بهم ! ولو عاش أبى لرقد على بكل طوله ولسحقنى . وبالصدفة مات صغيراً ؛ وأنا فى وسط الأبناء الذين يحملون آباءهم ، أعبر من ضفة إلى أخرى بفردى ، كارها هؤلاء الآباء المحتجين الزاكين على ظهور أولادهم مدى الحياة ؛ لقد تركت خلفى شاباً ميتاً لم يمتد به الزمن ليكون أبى وكان من الممكن أن يصبح اليوم ابنى .

هل كان ذلك شراً أم خيراً ؟ لست أدري ؛ ولكنى أنضم إلى حكم عالم
نفسانى كبير : فليس عندى العقدة المسماة « الأنا العليا » .

لا يكفى أن نموت : لابد أن نموت فى وقتنا . لقد شعرت بعد ذلك
بأنى مذنب ؛ إن اليتيم الواعى يولم نفسه : إن والديه ، وقد أعشيتها رؤيته
أنسجبا إلى جناحها فى السماء . أما أنا فكنت سعيداً : إن وضعى الحزين
كان يفرض الاحترام ويؤسس أهميتى ؛ كنت أعتبر حزنى فى عداد فضائلى .
كان أبى قد تطف ومات بحطئه : وكانت جدتى تكرر أنه تخلص من
واجباته ؛ وجدى الفخور بطول عمر أسرة شوايتزر ، لم يكن يقبل أن
يموت الانسان فى الثلاثين من عمره ؛ وعلى ضوء هذه الوفاة المشكوك
فيها وصل إلى الشك فى وجود زوج ابنته فى وقت من الأوقات ونسبه
لينتهى منه . ولم يكن علىّ حتى أن أنساء : فبانسحاب جان باتست على
الطريقة الإنجليزية ، حرمنى لئنة التعرف به . ولا زلت حتى اليوم فى دهشة
من القليل الذى أعرفه عنه . ومع ذلك فقد أحب وأراد أن يعيش ووجد
نفسه يموت ؛ وهذا يكفى لصنع رجل مكتمل . ولكن لم يعرف أحد من
عائلى أن يثير فضولى عن هذا الرجل . خلال عدة سنوات استطعت أن
أرى فوق سررى صورة ضابط صغير ذى عينين بريئتين ورأس مستدير
أصلم وشارب كث : وعندما تزوجت أبى مرة ثانية اختفت الصورة .

وقد ورثت بعد ذلك كتباً كانت به : كتاب من تأليف لوداتسك عن
مستقبل العلم وكتاب آخر تأليف وير عنوانه : نحو الإيجابية بالثالية المطلقة .
وكانت قراءاته سيئة مثل جميع معاصريه . وقد اكتشفت على الهوامش

كتابات مكتوبة بخط رديء لا يمكن قراءتها ، إنها علامات ميتة للعبة الهام كانت حية وراقصة حوالى مولدى . لقد بعث الكتب : فهذا الراحل يخصنى قليلا - فقد عرفته بالسمع كما عرفت الرجل ذا القناع الحديدى ^(١) أو فارس أيون ^(٢) ، وما أعرفه عنه لا يتعلق بى قط : هل أجنى ، هل ضمنى بين ذراعيه ، هل أدار نحو ابنه عينه الفاتحى اللون والثأرتين . الآن ، لا يذكر أحد شيئا من ذلك : إنه عذاب حب ضائع . إن هذا الأب لم يكن ظلا ولا نظرة : لقد وطئنا ، أنا وهو ، أرضا واحدة ، هذا كل شيء . لقد أفهمونى أنى ابن المعجزة بدلا من أن أكون ابن ميت . ومن هنا تأتى بلا أدنى شك خفى غير المقولة . فأنا لست زعيما ولا أبتغى أن أصبغه . إن القيادة والطاعة شيء واحد . إن الأكثر تسلطا يأمر باسم آخر ، باسم طفلى مقدس هو اسم الوالد . وينقل العنف المجرد الذى يتحصله . لم أعط فى حياتى أمرا دون أن أضحك ودون أن أضحك غيرى ؛ ذلك أن قرحة السلطة لا تعذبى : كما أننى لم أتعلم الطاعة .

ومن أطيع ؟ إنهم يشيرون إلى عملاقة شابة ويقولون لى إنها أمى . ولو ترك الأمر لى ، لاعتبرتها شقيقى الكبرى . إن هذه العذراء المحددة إقامتها وانخاضة للكل ، أرى جيدا أنها هنا لتخدمنى . إنى أحبها :

(١) رجل مجهول ألغوا به فى قلعة بنيرول فى سنة ١٦٧٩ ثم فى الباستيل حيث توفى سنة ١٧٠٣ . ولم تعرف شخصيته قط لأنه كان مضطرا أن يضع قناعا على وجهه . (المترجم)

(٢) هو الفارس شارل دى يومون ديون معتمد لويس الخامس عشر السياسى . ظهر فى بلاط القيصرية اليصابات فى ملابس امرأة فميتته « فارقتها » الخاصة .

(المترجم) .

ولكن كيف لي أن أحترمها ، ولا أحد يحترمها ؟ توجد ثلاث غرف في منزلنا : غرفة جدي وغرفة جدتي وغرفة الأولاد ، . إن الأولاد هم نحن : فكلانا قاصر وكلانا معال . ولكن كل الرعاية كانت موجهة لي . ففي حجرتي وضعوا سرير فتاة . والفتاة تمام وحدها وتستيقظ بعفة ؛ وأكون نائما حين تهرع لتغتسل في الطست في الحمام ؛ وتعود مرتدية ملابسها كلها : كيف ولدت منها ؟ إنها تقص على مصائبها وأصغى إليها بشفقة . لقد وعدتها بأن أتزوجها في المستقبل لأحميها : سوف أبسط يدي عليها وأضع أهميتي الشابة في خدمتها . هل يعتقد أني سأطيعها ؟ إنني أنكرم وأخضع لرجولتها . وهي على أي حال لا تعطيني أوامر : إنها ترسم بكلمات خفيفة مستقبلا تطلب مني أن أتفضل بتحقيقه فتقول : « إن صغيري العزيز سوف يكون لطيفاً جداً ، وعاقلاً جداً إنه سوف يدعى بكل ظرافة أضع نقطة في أنفه ، . وكنت أنساق إلى فتح تنبؤاتها الناعمة .

بقى البطيريك : إنه كان يشبه الله الأب إلى درجة كانت كثيراً ما تجعل الناس يظنونه هو . فقد دخل ذات يوم كنيسة من باب الهيكل ؛ وكان القسيس يهدد ضعاف الإيمان بصواعق السماء : « إن الله هنا ! وهو يراكم ! ، وخجاة اكتشف المؤمنون تحت المنبر عجوزا طويل القامة . وملتحيا كان ينظر إليهم : ففروا هارين . ومرات أخرى كان جدي يقول إنهم ألقوا بأنفسهم تحت أقدامه . وقد أحب التجليات . ففي شهر سبتمبر من سنة ١٩١٤ ظهر في دار للسينا بمدينة أركاشون : وكنت مع أمي في الشرفة ، حين طلب أن تضاء القاعة ، وكان رجال آخرون من حوله يقلدون الملائكة ويصيحون : « النصر ! النصر ! » وصعد الله على

اللسرح وقرأ بلاغ المارن^(١) . وحين كانت لحيته سوداء كان يمثل الرب وأشك في أن أميل مات بسببه بطريقة غير مباشرة . إن إله الغضب هذا كان يتغذى على دم أبنائه . ولكنني ظهرت في نهاية حياته الطويلة ، فقد ابيضت لحيته واصفرت من الدخان ولم تعد الأبوة تسليه . ومع ذلك ، فلو أنني كنت ابنة فإني أعتقد جيداً أنه لم يكن يتوانى عن استعبادي بحكم العادة . وكان حظي أنني كنت ملكايت : ميت سكب بضع نقط من النبي ، هي الثمن العادي لطفل ؛ لقد كنت قسباً من الشمس وكان في استطاعة جدي أن يتمتع بي دون أن يمتلكني : كنت « أعجوبته » . لأنه كان يتمنى أن ينهي أيامه شيخاً مذهبوا ؛ وقرر أن يعتبرني منة فريدة من القدر ، هبة مجانية قابلة للالغاء دائماً ؛ ما المفروض أن يتطلبه مني ؟ لقد كنت أغمره بوجودي وحده . كان إله الحب بلحية الأب وقلب الابن المقدس ؛ كان يضع يديه على رأسي ، وكنت أشعر بحرارة راحتيه على جمجمتي ، كان يسميني صغيره الصغير بصوت يرتجف حناناً ، وكانت الدموع تملأ عينيه الباردتين . وكان الكل يضحون معترضين : « لقد أصابه بالجنون هذا الشقي » ، كان يعبدني ، وهذا أمر ظاهر . ولكن هل كان يحبني ؟ في مثل هذه العاطفة العامة ، يصعب على أن أميز بين الصدق والتصنع : ولا أعتقد أنه أبدى محبة كثيرة لأحفاده الآخرين ؛ صحيح أنه كان يراهم قليلاً وأنهم لم يكونوا في حاجة إليه . أما أنا فكنت أتبعه في كل شيء : وكان يعبد في كرمه .

(١) معركة من معارك الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

والحقيقة أنه كان يبالغ في السمو بعض الشيء : كان رجلا من القرن التاسع عشر. وكان يعتقد في نفسه ، ككثيرين غيره ، وكفكتور هوجو نفسه ، أنه فكثور هوجو . وإنى أعتبر هذا الرجل الوسيم ذا اللحية الطويلة ، وهو بين أهلايين خائئين دأعين ، كالدمن على الحمر النشوان ، ضحية فنين اكتشفا أخيرا : فن المصور الفوتوغرافى وفن كونه جدًّا . وكان من حسن طالعه وسوءه أن يبدو وسيما في الصور الفوتوغرافية ؟ وكانت صورته تملأ المنزل : ولما كانوا لا يارسون التصوير الفوتوغرافى ، فقد شغف بالأوضاع واللوحات الحية ؟ وكان يتخذ كل شيء حجة لتعليق حركاته ، ولتجميد نفسه في وضع جميل ، ولتصجره ؟ كان مولما بلحظات الخلود هذه حيث يصبح تمال نفسه . ولم أحتفظ منه — بسبب شغفه باللوحات الحية — إلا بصور خيال ظل مشدودة : صورة في الغابة ، حيث أجلس على جذع شجرة ، وكنت في الخامسة من عمرى : وشارل شوايتزر يضع على رأسه قبعة بناما ويرتدى حلة من الصوف القابلة الطحينى الفاتح بخطوط سوداء وصديزية من نسيج القطن الأبيض تقطعها سلسلة ساعة ؛ وتبدل نظارته الأتية بطرف جبل ؛ ويميل إلى ، ويرفع إصبعي محلى بخاتم ذهبي ، ويتكلم : كل شيء معتم وكل شيء رطب ما عدا لحيته الشمسية : إنه يحمل هالته حول ذقنه . ولا أعرف ما يقوله : فقد كنت مشغولا بالأصغاء أكثر مما يجب كي أسمع . ويبدو لى أن هذا الجمهورى العجوز فى المهد الامبراطورى كان يعلمنى واجباتى المدنية ويحكى لى التاريخ البورجوازى ؛ فقد كانت هناك ملوك وأباطرة ، وكان هناك أيضا أشرار طردوا ، وكل شيء كان يسير على ما يرام . وفى المساء ، حين كنا نذهب

لانتظاره على الطريق ، كنا نعرفه بسرعة ، بين زحمة المسافرين الخارجين من القطار ، بقامته الطويلة ، وبمشيته التي تشبه مشية معلم الرقص . ومن أبعد مسافة يرانا منها كان يتخذ موضعا ، وكأنه يطيع أوامر مصور فوتوغرافي خفي : فلحيته في الهواء ، وجسمه مستقيم وقدماه في زاوية قائمة ، و صدره مبتفع وذراعا مفتوحان كثيرا ، وكنت عند هذه الإشارة أتوقف عن الحركة وأميل إلى الأمام ، فقد كنت العداء الذي يبدأ في الانطلاق ، والمصفور الصغير الذي سيخرج من الجهاز ؛ كنا نكث وجها لوجه بضع لحظات ، كمجموعة جميلة من خرف ساكس ، ثم أثب حملا بالفواكه والأزهار وبسعادة جدى وأصطدم بركبته وأنا أتضع اللث ، وكان يحملني من الأرض ويرفني عاليا إلى أقصى ما تستطيع ذراعاها وينزلني على صدره وهو يتمتم : « يا كثرى ! ، وكنت الوجه الثاني الأكثر إلفاتا للنظر من بين المارة . وكنا نلعب ملهاة ضافية ذات مائة مشهد مختلف ، فهناك الغزل وسوء التفاهم الذي يزول سريعا والمعاكسات المتناهية في الطيبة والتأنيب اللطيف ، وغضب الحبيب والتكم الحنون والهوى ؛ كنا نخيل عقبات لحينا كي نقرح بتذليلها ، كنت متعجرفا أحيانا ، ولكن النزوات لم تكن تستطيع أن تخفي حساسيتي العذبة ؛ كان يظهر الزهو السامى البريء الذى يتلاءم مع الحدود ، كما كان يظهر العمى والضعف الأثيم اللذين يوصى بهما فكتور هوجو ، فلو عوقبت بأكل الخبز الجاف ، لأحضر لى المريات ؛ ولكن المرأتين المراهبتين كانتا تجنبان هذا العقاب وكنت فوق ذلك طفلا عاقلا أجد دورى مناسباً إلى الحد الذى جعلنى لا أخرج منه . والحقيقة أن

انسحاب والذى السريع قد وهبني دأودياً ، متاهيا في التقصان : صحيح
 أن عقدة ، الأنا العليا ، غير موجودة ولكن لا وجود لمركب التدوان
 أيضا . فأني كانت لي ، ولم يكن أحد يعترض على ملكيتي الهادئة لها :
 كنت أجهل العنف والكراهية ، وكفوني مؤونه التدريب القاسي على
 الغيرة ؛ وكانت أول معرفتي للواقع عن طريق ميوعته الضاحكة ، وذلك
 لأنني لم أصطدم بمخاله . فعلى من وعلى أى شيء أثور : إن نزوة الغير
 لم تستطع أن تسيطر على .

كنت أسمح بلطف بأن يلبسوني خذائي ويضعوا قطعا في أنفي
 ويفرشوا ملابسي وينسلوني ويلبسوني الملابس وينزعوها عني ويزينوني
 وينظفوني ؛ فليس هناك ما يسلي أكثر من أن تلعب دور العقلاء . وأنا
 لا أبكي أبداً ولما أضحك ، ولا أضحك ؛ وفي الرابعة من عمري قبضوا
 عليّ وأنا أضع ملحا على الربى ؛ وكان ذلك على ما أعتقد جبا في العلم
 أكثر منه جبا في الايذاء ؛ وعلى أية حال فإن هذه هي الجريمة الوحيدة
 التي أذكرها . ويوم الأحد كانت هاتان السيدتان تذهبان أحيانا إلى
 القديس لسماع موسيقى جيدة وعازف أرغن معروف ؛ وكلتاها لا تقومان
 بواجباتهما الدينية على وجه كامل ، ولكن إيمان الآخرين كان يؤهلها
 للوجد الموسيقي ؛ وكاتتا تؤمنان بالله أثناء تذوق لحن . وكانت لحظات
 الروحية العليا هذه تسعدني : كان يبدو النعاس على الجميع ، وهي فرصة
 لعرض ما أستطيع عمله . فكنت أجثو على الركع ، وأتحول إلى تمثال ؛
 مانعاً نفسي حتى من تحريك أصبع قدمي ؛ ناظراً في خط مستقيم أمامي ،
 دون أن أطرف بعيني حتى تسيل الدموع على خدي ؛ وكنت بالطبع

أقاتل النمل قتال الجابرة ، ولكن كنت متأكداً من الانتصار ، مدركا
تقدرني إلى الحد الذي يجعلني لا أتردد عن أن أثير في نفسي أبشع
الاعراض لا استمتع بقدرتي على طردها : ولو وقفت صائحا . بدا
يوم ! ، ولو تسلفت العمود لأتبول في جرن الماء المقدس ؟ إن هذه
الأفكار الرهيبة سترفع من قدر التهشات التي ستقدمها لي أمي بعد هنيئة .
ولكني أكذب على نفسي ؛ فأنظأهر بأنني في خطر لأزيد مجدى : ولم
تكن المقربات تبعث الدوار لحظة واحدة ؛ فأنا شديد الخوف من
الفضيحة ؛ وإن كنت أريد إثارة العجب . بفضائلي ، وكانت هذه
الانتصارات السهلة تقنعني بأن لدى استعداد طيب ؛ وما على إلا أن أترك
نفسى على سجيته لكي ينهال المدح على . وإن الرغبات والأفكار السيئة
إن وجدت ، كانت تأتني من الخارج ؛ وما أن تستقر في حتى تسقم
وتذبل : فأنا أرض جدياء للشر . ولما كنت أمثل الفضيلة . فاني لأجهد
نفسى ولا أقهرها قط : كنت أخترع . ولى حرية المثل الواسعة الذي
يجذب جمهوره ويفرط في الاعتناء بدوره . إنهم يعبدونني ، فأنا مستحق
إذن للعبادة . ولا غرابة في ذلك ، مادام العالم قد أحسن صنعه ؛
يقولون لي إنني جميل فأصدق . وقد ظهرت منذ بعض الوقت ، على عيني
البنى ، العشاوة التي سوف تجعلني أعور وأحول ، ولكن شيئا من هذا
لم يظهر بعد . إنهم يلتقطون لي مائة صورة تنقحها أمي بأقلام ملونة .
وفى واحدة من هذه الصور التي بقيت ، أبدو ورديا وأشقر ، بشعر مموج
وخذ مستديرة وفى نظرتي احترام باش للنظام القائم ؛ وفى ينفخ بخرسة
خيثة : فانا أعرف قدرى .

ولا يكفي أن يكون لدى استعداد طيب ؛ بل يجب أن تكون لدى حاسة النبوة ، فالحقيقة تخرج من فم الأطفال . ولما كان هؤلاء لا يزالون قريين جدا من الطبيعة ، فانهم أولاد عمومة الريح والبحر : إن لجلجنتهم تقدم لمن يفهمها تعاليم واسعة ومبهمة . لقد اجتاز جدى بحيرة جنيف مع هنرى برجسون . ويقول لنا : « لقد جنيت حماسا ، ولم تكن عني تكفياني للاعجاب بالقمم المتلاثة ولتأبئة لمعان الماء . ولكن برجسون الذى كان يجلس على حقيّة ، لم يكف عن النظر بين قدميه . » وكان يستخلص من ذلك الحادث الذى وقع له أثناء السفر ، أن التأمل الشمعى أفضل من الفلسفة . وتأمل فى : وكان يجلس فى الحديقة وكأنه على ظهر إحدى عابرات المحيط الأطلسي ، وكوب من الجعة فى متناول يده ، ورآنى أعدو وأقفز ، وبحث عن حكمة فى أحاديثي المبهمة ، ووجدها . وقد ضحكت بعد ذلك من هذا الجنون ؛ وأنا آسف على ذلك الآن لأنه كان من عمل الموت . كان شارل يكافح القلق بالاعجاب الشديد . ويعجب فى شخصى بعمل الأرض الرائع ليقنع نفسه بأن كل شيء حسن ، حتى نهايتنا الجديرة بالشفقة . إن هذه الطبيعة التى كانت تستعد لاسترجاعه ، كان يذهب للبحث عنها على القمم وفى الأمواج ، وفى وسط النجوم ، وفى ينبوع حياتي الصغيرة ليتمكن من احتضانها كلها ومن تقبل كل شيء منها ، حتى الحفرة التى كانت تحضر له فى هذه الطبيعة . ليست الحقيقة هى التى كانت تكلمه من فمى ، بل موته . ولا عجب إن كان للسعادة التافهة لسنواتي الأولى طعم الموت أحيانا : إنى أدين بحريتي لوفاة حدثت فى الوقت المناسب ، وبأهميتي لوفاة ستحدث

قريباً . ولكن ماذا : إن جميع كاهنات أبولون ^(١) من الموتى ، الكل يعلم ذلك ؛ كل الأطفال مرايا للموت .

وكان جدى إلى جانب ذلك ، يحب مضايقة أولاده ، لقد أمضى هذا الوالد المرعب حياته في سحقهم ؛ كانوا يدخلون على أطراف أصابعهم ويفاجئونه على ركبتى طفل : فتنفطر قلوبهم ! ففي كفاح الأجيال غالباً ما يقف الأطفال والشيوخ في جهة واحدة : إن البعض يودى هتاف الآلهة ويقوم الآخرون بحل طلاسها ، إن الطبيعة تسلكم والحبرة ترجم : وليس على البالغين إلا أن يسدوا أفواههم . وإن لم تنجب فلترب كلباً : ففي مدافن الكلاب ، حين كنت أزورها في العام الماضي ، وفي الكلمة المؤثرة التي تتابع من قبر إلى قبر ، عزفت حكم جدى ؛ إن الكلاب تعرف أن تحب ؛ إنها أحن من الناس وأشد إخلاصاً منهم ؛ إنها فطنة ولها غريزة بلا شوائب تسمح لها بالتعرف على الخير والتمييز بين الصالحين والظالمين . لقد كتبت إحدى التكالى على قبر كلبها : أى بولونيوس أنت أحسن منى : فلم يكن في إمكانك أن تعيش بعدى ؛ بينما أعيش أنا بعدك . . وكان يصحبنى صديق أمريكي ، بكل من القبط بقدمه كلباً مصنوعاً من الأسمنت فكسر أذنه لقد كان على حق : فانتا حين نبالغ في حبنا للأطفال والحوانات فإننا نحبهم بدلا من حبنا للناس

(١) كانت كاهنات أبولون مكلفات بالنطق بهتاف الآلهة وكن يجلسن على مقعد من ثلاث أرجل فوق شق تنبث منه أشجرة باردة ينبج عنها هذان مؤقت .
(انترجم)

فأنا إذن كلب المستقبل ؛ إنى أتنبأ . لدى كلمات أطفال ، إنهم يحفظونها ويكررونها على . وأتلم أن أصنع كلمات أخرى . لى كلمات رجال : وأعرف أن أتحدث بكلمات ، أكبر من عمرى ، دون أن المسها إن هذه الأقوال شعرية ، والوصفة سهلة : يجب أن تثق فى الشيطان والصدفة والفراغ ، وأن نستعير جملا كاملة من الكبار وأن نضعها الواحدة فى طرف الأخرى وأن نكررها دون فهم . وبالاختصار ، كنت أتغوه بتنبؤات حقيقية وكان كل يفهمها جسما يريد . إن الخير يولد فى أعماق أعماق قلبى ، وتولد الحقيقة فى ظلمات فهمى الصغيرة . إنى أعجب بنفسى عن ثقة : ويحدث أن يكون لحركاتى وكلماتى صفة لا أدركها ولكنها تكون واضحة بالنسبة للكبار ؛ ولكن دعنا من ذلك ! سوف أقدم لهم دون توقف اللذة الرقيقة التى حرمت منها . إن مزاحى يتخذ ظواهر الكرم : كان بعض الناس الساكنين يأسفون على أنهم لم يرزقوا أطفالا ؛ فاشتغلت عليهم وخرجت من الدم فى فورة إثارة وتنكرت بلباس الطفولة لأوهمهم بأن لهم ابنا . وكانت أمى وجدتى كثيرا ما تدعوانى إلى إعادة تمثيل مشهد الطيبة السامية التى أعطتني الحياة : إنهما تتملقان هوس شارل شوايتزر ، وجه المفاجآت المسرحية ، فكائنا تدبران له المفاجآت . وكنت أختفى خلف قطعة أثاث وأحبس نفسى ، وتغادر الامرأتان الغرفة أو تتظاهران بنسيانى وأتوارى ؛ ويدخل جدى الغرفة تعباً وعابسا ، كما لو كنت غير موجود ؛ وأخرج فجأة من مخبئى ، وأنعم عليه بمولدى ، فيلمحنى ويندمج فى التمثيلية ويغير وجهه ويرفع يديه إلى السماء . كنت أسعده بوجودى باختصار كنت أهب نفسى ؛ أهب نفسى دائماً وفى كل مكان ، أهب كل

شيء : كان يكفي أن أدفع باباكي أشعر أنا كذلك بأننى أظهر فى رؤياي
إنى أضع مكعباتى بمضاه على بعض ، وأخرج فطائرى الرملية من قوالبها
وأنادى بأعلى صوتى ؛ فإثنى أحد ويدي عييه ! لقد زدت السعداء
واحدا . إن الطعام والنوم والاحتياجات من تقلبات الجو تشكل الأعياد
الأساسية والالتزامات الرئيسية لحياة كلها احتفالات . فإنى أتناول طعامى
علنا كلكم : فإذا أكلت جيداً هنا وننى ؛ وتصيح جدتى نفسها : وكم من
المقل أن نجوع ! . . .

ولا أكف عن أن أصبح قائلا : أنا الواهب والهبة . ولو كان أبى
على قيد الحياة ، لعرفت حقوقى وواجباتى ؛ ولكنه مات وأنا أجهلها ؛
فليس لى حق لأن الحب يملأنى ؛ وليس لى واجب لأننى أعطى . عن حب
وعلى مهمة واحدة هى أن أرضى الناس ؛ من أجل المظهر . إن عائلتنا
مفرطة فى الكرم : فجدى يعولنى ، وأضع أنا سعادته ؛ وأبى تبذل نفسه
من أجل الجميع . واليوم ، حين أفكر فى ذلك ، يبدو لى أن هذا البذل
وحده هو الحقيقى ؟ ولكن كئنا نميل إلى أن نلتزم الصمت إزاءه . ولكن
حياتنا ليست إلا سلسلة من الاحتفالات وكئنا تنفق وقتنا فى امطار أنفوسنا
بالمجاملات . وكئنا أحترم الكبار على شرط أن يعبدونى ؛ أنا صريح ،
ومتفتح ورقيق كالبلت أفكر جيداً واثق بالناس : الجميع طيرون بما أن
الجميع راضون . وأرى المجتمع تدرجا قاسيا من الفضائل والسلطات .
إن الذين يحتلون قمة السلم ، يعطون كل ما يملكون للذين تحتم . ومع
ذلك فأنا لا أهتم بأن أفق على أعلى درجة : فأنا لا أجهل أنهم يحتفظون
بها . لأشخاص قساة وذوى نية حسنة يوطدون النظام . إبنى أفق على مجنم

صغير هامشي ، ليس يعيد عنهم ، ويمتد إشعاعي من أعلى السلم إلى أسفله .
 وباختصار ، أبذل كل جهدي لأبتعد عن السلطة الدينية لا أسفل ولا أعلى
 بل في موضع آخر . ولما كنت حفيد رجل دين ، فأنا رجل دين منذ
 الطفولة ؛ على مسحة أمراء الكنيسة ، وبشاشة كهنوتية ، وأعامل الرؤساء
 كأنداد : إنها كذبة بريئة لاسعادم ومن المناسب أن يصدقها إلى حد ما
 إنني أتحدث إلى خادمتي وإلى ساعي البريد وإلى كلبتي بصوت متأن ومعتدل
 ففي هذا العالم المنظم يوجد فقراء . وتوجد كذلك خراف بخمس أرجل ،
 وأخوات توائم وحوادث سكة حديد : إن هذه المظاهر الشاذة ليست من
 خطأ أحد ولا يعرف الفقراء الطييون أن واجبهم أن يدربوا كرمنا ، إنهم
 فقراء يستحون من التسول ، فهم يتمسحون بالجدران ؛ وأثب ، وأدس في
 يدهم قطعة من فئة الصلبيين وأهديهم على الاخص أبتسامة رقيقة تؤمن
 بالمساواة . وأرى أن الغباء يبدو عليهم ولا أحب أن ألسهم ولكني أكره
 تقسى على ذلك : إنها تجربة ؛ ثم من واجبهم أن يحبوني ، وهذا الحب
 سوف يحمل حياتهم . وأعرف أن الضروري ينقصهم ويسرنى أن أكون
 فائضهم . ومن جهة أخرى ، أيا كان يؤسهم ، فإنهم لن يتألموا أبداً بقدر
 ما تألم جدى : حين كان صغيراً ، كان ينهض من فراشه قبل الفجر ويرتدى
 ملابسه في الظلام ؛ وفي الشتاء كان لابد من أن يكسر الجليد في إناء الماء
 ليغتسل . ولكن الظروف تحسنت لحسن الحظ منذ ذلك الحين : إن
 جدى يؤمن بالتقدم ، وأنا كذلك : التقدم هذا الطريق الطويل الوعر
 الذى يؤدي إلى .

كان الفردوس . فكنت أستيظ كل صباح في ذهول من الفرح ،

معبيا بالخط المحنون الذى جعلنى أولد فى أكثر العائلات اتحاداً ، وفى
أجل بلد فى العالم . وكان المستاءون يصدموننى : فم يستطيعون الشكوى ؟
لقد كانوا عصاة . وكانت جدتى على وجه الخصوص تسبب لى أحر القلق :
وكنت ألاحظ بأنهم لم تكن تعجب بى إعجاباً كافياً . وبالفعل فإن
لويز كشفتنى . فقد كانت تلومنى صراحة على هذا التمثيل الردىء الذى
لم تكن تجرؤ على أن تؤنب من أجله زوجها . كنت أراجزوا ومهرجا
وبهلوانا ، وكانت تأمرنى بأن أكف عن تصنى . وكنت أغتاض إلى
الحد الذى أتهمها بأنها تسخر كذلك من جدى : كانت « الروح التى
تسخر دائماً » . وكنت أجابها ، وكانت تطلب أن أعتذر ؛ ولا كنت
واثقا من التأيد ، فكنت أرفض الاعتذار . وكان جدى يتلفف فرصة
أظهار ضعفه : وكان ينضم إلى ضد زوجته التى كانت تهض ، غاضبة ،
وتذهب إلى غرفتها وتعلق الباب عايبا . وتقلق واللبتى خوفا من حقد
جدتى ، فتحدث بصوت منخفض وتقول بتواضع لوالدها إنه مخطيء ،
فيهر كنفه متهكما ، وينسحب إلى حجرة مكتبه ؛ وكانت تتوسل إلى
أخيراً أن أذهب لطلب الصفح . كنت أمتع بسلطتى : كنت القديس
ميخائيل وقد سحقت الروح الشريرة ، ولكى انتهى كنت أذهب للاعتذار
بعدم اكتراث وفيما عدا ذلك كنت أعبدها طبعاً لأنها كانت جدتى .
واقترحوا على أن أناديها بمامى وأن أنادى رب العائلة باسمه الأتراسى
كارل . إن جرس كارل ومامى أفضل من جرس روميو وجوليت
ومن فيليمون وبوسيس ^(١) . وكانت أمى تكرر على مائة مرة فى اليوم

(١) فى الميثولوجية الاغريقية ، زوجان أسطوريان ، أصبح اسمهما رمزاً للحب
بين الزوج والزوجة (المترجم) .

عن قصد عامد : « إن كارل ومامى ينتظراننا ، كارل ومامى سيكونان
مسرورين ، كارل ومامى . . . ذاكرة باتحاد هذه المقاطع
الأربعة التمام التام بين الشخصين . ولم أكن سوى نصف أبه ، وكنت
أرتب أمرى بحيث أبدو غاية فى البله : أمام نقى أولا . وكانت الكلمة
تلقى بظلمها على النىء ؛ فخلال كارل ومامى كنت أستطيع الاحتفاظ
بوحدة العائلة دون شائبة وصب جانب كبير من مزايا شارل على رأس
لويز . كانت جدتى ظنينة وشاعرة بالخطأ ، وكانت لذلك على حافة
السقوط دائماً ولكن كان يحول دون ذلك ذراع ملائكة أو قوة كلة .

هناك أشرار حقيقيون : البروسيون الذين أخذوا منا الأتراس واللورين
وكل ساعاتنا الكبيرة الدقاقة فيما عدا ساعة المرض الأسود التى تزين مدفأة
جدى والتى قدمها له بالذات جماعة من التلاميذ الألمان ؛ من أين سرقوها
يا ترى ؟ وكانوا يشترون لى كتب هانسى^(١) ويرونى صورته فلا أبدى
أى نقور من هؤلاء الرجال السنان الصنوعين من السكر الوردى
الكثيرى الشبه بأخوالى الأتراسيين . وإن جدى الذى اختار فرنسا فى سنة
١٨٧١ كان يذهب من آن لآخر إلى جنسباخ وبفافهوفن ليزور هؤلاء
الذين ظلوا هناك . وكان يأخذنى معه . وفى القطار ، حين كان
يطلب مفتش ألمانى تذاكره ، وفى المقامى ، حين كان خادم يتأخر فى أخذ
الطلب ، كان وجه شارل شوايتزر يصطبغ بحمرة الغضب الوطنى ؛ وكانت

(١) : برسام كارىكانور ألزاسى ولد فى سنة ١٨٧٣ وتوفى فى سنة ١٩٥١

(المترجم)

المرأتان تعلقان بذراعيه : « شارل ! هل تفكر فيما تعمل ؟ سيطردونا ولن نتال شيئاً ! » وكان جدى يرفع صوته قائلاً : « أود أن أراهم يطردونى : أنا فى بلدى ! » وكانت المرأتان تدفمان بى بين ساقيه ، وكنت أنظر إليه كمن يتوسل ، فيهدأ . وكان يقول متهدأ وهو يحك رأسى بأصابعه : « حسناً ، من أجل الصغير . » وكانت هذه المشاهد تكدرنى منه دون أن تثير حفيظتى ضد المحتلين . ومع ذلك ، كان لا يفوت شارل فى جنسباخ أن يثور على زوجة أخيه ؟ فعدة مرات فى الأسبوع ، كان يلقي بقوطته على المائدة ويترك حجرة الطعام وهو يصفق الباب : ومع ذلك فإنها لم تكن ألمانية . وبعد تناول الطعام كنا نذهب لنسبح ونتعجب عند قدميه ولكنه كان يواجهنا بنظرة قاسية . وكيف لا أنضم إلى رأى جدتى القائل : « إن الأتراس لا تناسبه ، ويجب ألا يعود إليها كثيراً ، » ومن جهة أخرى ، فانى لا أحب الأتراسيين كثيراً لأنهم يعاملوننى بغير احترام وأنا لست متكدرآ لأنهم أخذوهم منا . ويبدو أنى كنت أذهب كثيراً جداً عند بدال بلا قهوفن ، السيد بلومفيلد ، وأنى أزعجه بلا داع . وأبدت خالى كارولين ملاحظاتها لأمى فى هذا الشأن . فنقلت إلى : « ولأول مرة كانت لويز شريكى فى الجريمة : إنها كانت تكره عائلته زوجها . وفى ستراسبورج ، سمعت من غرفة فندق حيث كنا يجتمعين ، أصوات ضئيفة ورفيعة ، فحريت إلى النافذة : إنه الجيش ! أنا سعيد جداً أن أرى بروسيا تسير على أنغام هذه الموسيقى الصيبانية ، وأصفق . وظل جدى جالساً على كرسيه وهو يدمدم ؛ وجاءت أمى لتهمس فى أذنى بأن أترك النافذة . فأطمت مظهرآ قليلاً من الاستياء . أى نعم إنى أكره

الألمان ، ولكن بدون اقتناع . فضلا عن ذلك ، فإن شارل لا يستطيع أن يسمح لنفسه إلا بقدر قليل من الوطنية المتطرفة : ففي سنة ١٩١١ تركنا مودون لنستقر في باريس بشارع لوجوف رقم ١ ؛ ولا شك أنه تقاعد وجاء يؤسس معهد اللغات الحية ليقم أودنا . وكان هذا المعهد يعلم الفرنسية بالطريقة المباشرة للأجانب العابرين . وكان أغلب التلاميذ يأتون من ألمانيا . وهم يدفعون جيداً : ويضع جدى الجنيئات الذهبية ، دون أن يعدها قط ، في جيب سترته ؛ وفي الليل تنسل جدتى المصابة بالأرق إلى الدهليز لتقطع عثرها وخفية ، كما كانت تقول بنفسها لابنتها . وخلاصة القول كان العدو يصرف علينا ؛ وإن حرباً تقوم بين فرنسا وألمانيا تعيد لنا الأتراس ، تفلس لنا المعهد : كان شارل إذن مع الرأي القائل بالمحافظة على السلام . ثم كان هناك ألمان طيبون يأتون عندنا لتناول الغداء : ومن بينهم قصاصة حمراء الوجه وشعراء كانت لويز تسميها بضحكة صغيرة غيور : « حبيبة شارل » ، وطبيب أصلع كان يدفع أمى إلى الأبواب ويحاول تقييلها ؛ وحين كانت تشكو منه بجمل ، كان جدى ينفجر قائلاً : « تفسدين بنى وبين الجميع ! » ويرفع كتفيه ، مقرأ : « إنها تهيئات يا ابنتى ، وكانت هى التى تشمر بأنتها المذنبه . وكان جميع هؤلاء المدعوين يفهمون انه يجب عليهم أن يذهلوا أمام فضائلى ، وكانوا يلاطفوننى بوداعة : إن لديهم إذن ، على الرغم من أصلهم ، فكرة غامضة عن الخير . وفي العيد السنوى لتأسيس المعهد ، يدعى أكثر من مائة ضيف ويقدم شراب الشامبانيا ، وتعزف أمى والآنسة موتيه موسيقى باخ بأربع أيد ؛ وكنت أرتدى ثوباً من الموسلين الأزرق ، وتثر

النجوم في شعري وتركب لي أجنحة وأنتقل من مدعو إلى آخر مقدما شار
اليوسفي في سبت ، وكانوا يصيحون : « إنه ملاك بحق ! » لا ، إنهم
لم يسوا بأشرار كما تصور . لا شك أننا لم نعدل عن الانتقام للألتراس
الشهيدة : وفي العائلة ، وبصوت منخفض ، كما يفعل أولاد الأخوان في
جنسباخ وبفاكهوفن كنا نقتل الألمان بالسخرية منهم ؛ فكنا نضحك مائة
مرة ، الواحدة بعد الأخرى ، وبدون كلل من هذه الطالبة التي كتبت
توا في ترجمة إلى الفرنسية قائلة : « كانت شارلوت « كسيحة » من
الآلام على قبر فرتر » ، ومن هذا المعلم الشاب الذي تأمل ، خلال عشاء ،
قطعة من السم في غير ثقة وانتهى بأن أكلها كلها يذورها وقشرتها .
إن هذه الغلطات الكبيرة تجعلني أميل إلى التسامح : إن الألمان قوم أقل
مرتبة منا ومن حسن حظهم أن يكونوا جيراننا ؛ فسوف نعطهم معارفنا .

إن القبلية بدون شارب ، كما كانوا يقولون آنئذ ، كالبيضة بدون
ملح ؛ وأضيف : وكالحير بدون شر ، كحياتي بين ١٩٠٥ و ١٩١٤ .
وإن كنا لا نعرف أنفسنا إلا بالتضاد ، فقد كنت اللامعروف بلحمه وعظمه
وإن كان الحب والكراهية هما وجه النوط نفسه وظهره ، فاني لم أكن
أحب شيئا ولا إنسانا . كان ذلك حسنا : فلا يمكن أن نكرة ونكون
موضع رضا الآخرين في وقت واحد . ولا أن ترضى ونحب .

هل أنا نرجسي إذن ؟ ولا حتى ذلك : ولما كنت شديد الاهتمام بأن
أغري فاني أنسى نفسي . ومع هذا كله ، فإن ضنع الفطائر والحريشة
وقضاء حاجاتي الطبيعية لم تكن تساني كثيرا : فلكي يرتفع قيمتها في

نظري، كان لابد على الأقل أن يدي شخص كبير اعجابه الزائد بمتجاني..
ولحسن الحظ فإن التصنيق لم يكن يتقضى : وسواء أصغوا إلى ثرثرتي وإلى
« فن المتابعات ^(١) » فإن للبالغين نفس ابتسامة التذوق الحبيثة المتواطئة ؛
وهذا ما يؤكده حوبي بال فعل التي تعني أنني تاج ثقافي.. فقد تشبعت بالثقافة
وأنا أرجعها إلى الأسرة عن طريق الاشماع ، على نحو ما تشع من
العدران عند المساء حرارة النهار .

بدأت حياتي كما سوف أنهيها بلا شك : بين الكتب . ففي حجرة
مكتب جدي كانت الكتب في كل مكان ؛ كان محظورا تفيضها إلا مرة
في السنة ، في شهر أكتوبر ، قبل العودة إلى المدارس - . وكنت
لا أعرف القراءة بعد ، ومع ذلك فكنت أجعلها هذه الحجارة المرفوعة .
وسواء كانت قاعة أم مائلة ، متزاحمة كقطع الطوب على أرفف المكتبة
أم منفصلة بعضها عن بعض ، على غرار عمرات النهر ^(٢) ، فاني كنت
أشعر أن ازدهار عائلتي موقوف عليها . كانت متشابهة كلها ، وكنت
ألهو في معبد غاية في الصغر ، محاطاً بآثار ربة وقديمة شاهدت مولدي
وسوف تشاهد وفاتي ويكفل لي دوايها مستقبلاً هادئاً كالماضي . كنت
المسها خفية لأشرف يدي بغبارها ، ولكن لم أكن أعرف كيفية استعمالها
وكنت أحضر كل يوم احتفالات لم أكن أفهم معناها : فان جدي -
الآخرق في المادة إلى الدرجة التي تجعل أمي تزرر له قفازيه - كان

(١) مقطوعة موسيقية تلحن باخ .

(٢) حجر كبير قائم يصل ارتفاعه إلى عشرين متراً ، من آثار القبائل التي

كانت تعيش في إقليم برناني بفرنسا (المترجم) ..

يلبس هذه الأشياء الثقافية بمهارة الكهنة . وقد رأيت ألف مرة ينهض
مشتت الفكر ويدور حول مائدته ، ويحتاز الحجرة في خطوتين ، ويأخذ
عجلدا دون تردد ، وبدون أن يمنح نفسه وقتا للاختيار ويقلب صفحاته وهو
عائد إن مقعده ، بحركة متعاقبة بين الابهام والسيابة ، ثم بمجرد جلوسه
يفتحه بمخبطة واحدة « في الصفحة المطلوبة » وهو يقطع كالخذاء . وكنت
أحيانا أثرب لأراقب هذه الصناديق التي كانت تنشق كالحجار وكنت
أكتشف عرى أعضائها الداخلية ، أوراق شديدة الشحوب ومتعفنة ،
ومتفخة قليلا ، مغطاة بعريقات سوداء تسرب الجبر وتنبعث منها رائحة
عش الغراب .

وفي غرفة جدتي كانت الكتب ماثلة ؛ وكانت تستعيرها من مكتب
المطالعة ولم أر منها قط أكثر من كتابين في وقت واحد . إن هذه
الزيئات الحفيرة كانت تذكرني بحلوى رأس السنة لأن وريقاتها الرخصة
اللامعة تبدو وقد قصت من ورق مصقول . وكانت لامعة وبيضاء وشبه
جديدة وكانت تستخدم حجة لأسرار خفيفة : وفي كل يوم جمعة ، كانت
جدتي ترندى ملابسها لتخرج قائلة : « أنا ذاهبة لأرجاعهما » ؛ وعند
عودتها ، بعد أن تخلع قبعتها السوداء وخمارها ، كانت تخرجهما من
الفرو التي تدفء بها يديها وكانت أسأل نفسي مخدوعا : هل هما بذاتهما ؟
وكانت تغلفهما بعناية ، وبعد أن تختار أحدهما ، تجلس بالقرب من النافذة
على كرسيها الواسع ذي الوسائد الصغيرة وتضع نظارتها وتشهد بسعادة
بوتعب وتخفص جفניה بابتسامة ناعمة متلذذة ، التقيت بها بعد ذلك على شفتي
« الجيوكوندا » وكانت أمي تصمت وتدعوني إلى الصمت ، وكنت أفكر في

القداس والموت والنوم : وأملاً تقى بصمت مقدس . ومن وقت لآخر ، كانت لويز تضحك ضحكة صغيرة ؛ وتنادى ابتها وتشير بأصبعها إلى سطر ، وكانت المراتان تتبادلان نظرة متواطئة . ومع ذلك كنت لا أحب هذه الكتب المصورة الصغيرة الحجم المتناهية في الأناقة ؛ لقد كانت دخيلة ولم يكن جدى يخفى أنها موضع عبادة صغرى ، مقصورة على النساء . وفي يوم الأحد كان يدخل عن فراغ حجرة زوجته ويقف أمامها ، دون أن يجد ما يقوله لها ؛ وكان الجميع ينظرون إليه وهو ينقر الزجاج ، فإذا نصب خياله ، تحول إلى لويز وأخذ روايتها من يديها . وكانت جدتى تصرخ غاضبة : « شارل ! إنك ستضيع الصفحة ! ، ولكنه كان يرفع حاجبيه ويقرأ ؛ ولجأة يضرب الكتاب بسبابته ويصيح : « إني لا أفهم ، وكانت جدتى تقول له : « ولكن كيف تريد أن تفهم ؟ إنك تقرأ من الداخل ! ، وينتهى الأمر بأن يرمى بالكتاب على المائدة ويذهب رافعا كتفيه .

كان على حق بالتأكيد لأنه ابن الصنعة نفسها . وكنت أعرف ذلك : فقد أرانى على رف من المكتبة كتباً ضخمة مجلدة بالكرتون ومغطاة بنسيج بنى . « تلك الكتب أيها الصغير ، صنعها جدك . . يا للفخر ! لقد كنت حفيد صانع متخصص فى صنع الأشياء المقدسة ومحترم . مثل صانع الأرغن وحائك ثياب رجال الاكليروس . وقد شاهدته وهو يعمل . فى كل عام كان يعاد طبع « المطالعة الألمانية » . وأثناء الإجازة الصيفية كانت العائلة كلها تنتظر تجارب الطبعة بفارغ الصبر : وكان شارل لا يحتمل البطالة ، ويغضب من ضياع الوقت وأخيراً كان ساعى البريد يحضر

ورزمات ضخمة رخصة . وكانت الحيوط تقص بالمقص ؛ وكان جدى يقرء
 السلخات وينشرها على مائدة حجرة الطعام ويقطعها بخطوط حمراء ؛ وأمام
 كل غلطة مطبعية كان يهدف فى تلمة ، ولكنه لم يكن يصرخ إلا حين
 كانت الخادمة تباشر فى إعداد المائدة . وكان السرور يعم الجميع . وكنت
 أقف على كرسى وأنظر باعجاب شديد إلى هذه الأسطر السوداء
 المزرعة بالدماء . وقد أخبرنى شارل شوايترز أن له عدوا لدوداً ، هو
 ناشره . جدى لم يعرف الحاسبة قط : ولما كان مسرفاً عن غفلة ، واخيراً
 عن مباحاة ، فقد انتهى به الأمر إلى الإصابة ، بعد وقت طويل ، بهذا
 المرض الذى يناسب الذين بلغوا الثمانين وهو البخل ، نتيجة للمعجز والخوف
 من الموت . وفى ذلك الوقت كان البخل قد ظهر فى شكل ارتياب غريب :
 فحين كان يتسلم بحالة حاصل حقوق التأليف ، كان يرفع ذراعيه إلى
 السماء وهو يصرخ بأنهم يذبحونه أو يدخل حجرة جدتى ويعلن فى كآبة :
 « إن ناشر كتابه يسرقه كما يسرق الناس فى القاعة . » واكتشفت ،
 مذهولاً ، استغلال الإنسان للإنسان . ولولا هذه الشناعة التى أوقفت
 عند حدها حسن الحظ ، لكان العالم بخير ؛ ومع ذلك فإن أصحاب العمل
 بحسب قدرتهم ، يطمون المال حسب استحقاقهم . ولماذا يشوه جمال هذا
 العالم هؤلاء الناشرى المحتلسون بعصم دماء جدى المسكين ؟ لقد ازداد
 احترامى لهذا الرجل انهديس الذى لم يكافأ على تقانيه . وقد أعددت مبكراً
 لأن اعتبر التدريس كهوناً والأدب هوى .

ولم أكن أعرف القراءة بعد ، ولكنى كنت نجماً للظهور إلى الحد
 الذى جعلنى أطلب بكتب لى . وذهب جدى إلى ناشره الوغد وأخذ منه

« قصص » الشاعر موريس بوشور ، المقتبسة من الأدب الشعبي والموضوعة في أسلوب يتناسب وذوق الطفل ، بقلم رجل احتفظ بعيون الطفولة كما يقول . وأردت أن أبدأ في الحال احتفالات التملك . وأخذت المجلدين الصغيرين وشمتهما وجسستهما وفتحتهما بلا اكتراث ، في الصفحة المطلوبة ، وجعلتهما يقرقمان . ولكن عينا : فلم أكن أشعر بأنى أملكهما . وحاولت دون تحقيق نجاح أكبر أن أعاملهما كأنهما دميّتان ، فأهددهما ، وأقبلهما وأضربهما وانتهى بي الأمر ، وأنا أكاد أبكي ، إلى وضعهما على ركبتي امى . فرفعت عينها من على شغلها وقالت لى : وماذا تريد أن أقرأ لك يا حبيبي ؟ الجنيات ؟ ، فآلتها ، غير مصدق : « الجنيات ، هل هي داخل الكتاب ؟ » ، إن هذه القصة كانت مألوفة عندي : وكانت امى تقصها على كثيرا ، حين كانت تغسل لى وجهى ، وتوقف لتدلكنى بماء الكولونيا أو لى تلتقط من اللعس قطعة الصابون التى انزلت من بين يديها . وكنت أصغى ساهيا إلى القصة التى كنت أعرفها جيدا ؛ ولم أكن أنظر إلا للفتاة آن ماري ، التى كانت تطالعنى كل صباح ؛ ولم أكن أصغى إلا لصوتها المضطرب بالعبودية ؛ كنت أعجب بحملها غير الكاملة وبكلماتها دأمة البطء . وبثقتها الفجائية التى تنكسر بشدة وتحول إلى هزيمة لتختفى في تمزق رخيخ . ولتعود ثانية بعد صمت . إن القصة كانت تأتى عرضا باعتبارها الرباط الذى يجمع بين سلسلة مناجياتها . وطالما كانت تسكلم ، كنا وحيدين ومختفين بعيدا عن الناس والآلهة والكهنة ، كوعلىين في الغابة مع هذه الوعول الأخرى ألا وهى الجنيات ؛ ولم أكن أستطيع أن أصدق أنهم ذهبوا إلى حد تأليف كتاب كامل ليضمونه هذا

الجزء من حياتنا اللاقدسية التي تنبعث منها رائحة الصابون وماء الكولونيا .

أجلستنى آن مارى فى مواجهتها ، على كرسى الصغير ؛ وانحنت وخفضت جفניה ونامت . ومن هذا الوجه الذى يشبه التمثال خرج صوت جامد . وفقدت عقلى : من كان يحكى ؟ وما الذى كان يحكىه ؟ ولبن كان يحكى ؟ لقد نغيت أسمى : لا ابتسامة ولا إشارة تواطؤ ، لقد كنت فى النفى . ثم لم أكن أعرف لغتها . من أين أخذت هذه الثقة ؟ وفهمت بعد لحظة : كان الكتاب هو الذى يتكلم ، وتخرج منه جل تخيلى : كانت حرش ^(١) حقيقية وكانت تغص بالمقاطع والحروف وتعد أصواتها وتهز الحرفين الساكنين ؛ والحروف الشادية ، والانتية ، مشطورة بوقفات وتهذبات ، غنية بكلمات غير معروفة ، تأخذ بعضها برقاب بعض ويعطفانها دون أن تبالى بى : وكانت تختفى أحيانا قبل أن أعكن من فهمها ، وأحيانا كنت أفهم مقدما وكانت تستمر فى سيرها بكرم نحو نهايتها دون أن تعفينى من فاصلة . ومن المؤكد أنى لم أكن المقصود بهذا الخطاب . أما القصة فقد ارتدت ثياب العيد : فالخطاب والخطابة وبناتهما والجنية ، كل صفار القوم هؤلاء ، أمثالنا ، اكتسبوا جلاله ؛ فكانوا يتحدثون عن أسماهم بعظمة ، وكانت الكلمات تؤثر على الأشياء بحولة الأعمال إلى طقوس والأحداث إلى احتفالات . وأخذ أحدهم يوجه أسئلة : إن ناشر مؤلفات جدى ، وقد تخصص فى نشر الكتب المدرسية ، كان

(١) جم: حريش : وهو الحيوان الزاحف المسمى بأمر أربع وأربعين .

يشتهز كل فرصة لتدريب ذكاء قرائه الغنى . وبدأ الى أنهم يسألون طفلاً :
 ما الذى كان سوف يعمل لو أنه كان الحطاب ؟ أى الأختين كان يفضل ؟
 ولماذا ؟ هل يقر عقاب باييت ؟ ولكن هذا الطفل لم يكن أنا تماماً
 وكنت أخشى الإجابة . ومع ذلك فقد أجبت ، وضاع صوتى الضعيف
 وشعرت بأننى أصبحت ، شخصاً آخر . وأن مارى أيضاً كانت شخصاً
 آخر بهيئتها التى تشبه الكفيف قوى البصيرة : لقد بدا الى أننى كنت ابناً
 لكل الأمهات ، وأنها كانت أمّاً لكل الأولاد . وخين كفت عن
 القراءة ، انتزعت منها الكتب وحملتها تحت أبطى دون أن أقول
 كلمة شكر .

وبعضى الوقت أصبحت أتلهذ بهذا الصوت الذى كان ينزعنى من
 نفسى : وكان موريس يوشور ينحنى على الطفولة بتلك العناية الشاملة التى
 يبدىها رؤساء الأقسام لزبائن المحال الكبرى ؛ وكان ذلك يرضينى .
 وأصبحت أفضل القصص المصنوعة قبلاً على القصص المترجمة . وغدوت
 أتاثر بالتسلسل الدقيق للكلمات : فعند كل قراءة ، كانت تعود دائماً
 بذاتها وبالترتيب نفسه ، وكنت أستظرها . وفى حكايات آن مارى ،
 كان الأشخاص يعيشون يوماً بيوم ، كما كانت تفعل هى : وانتهى كل
 منهم إلى مصير . وكنت فى القداس : أشهد الاسماء والأحداث وهى تتردد
 تردداً دائماً .

وقد غرت حينئذ من أمى وقررت أن آخذ دورها منها . واستوليت
 على كتاب عنوانه : « مغامرات أحد الصينيين فى الصين » وحملته إلى حجرة .

الأشياء. المستغنى عنها ؛ وهناك وقفت على سرير مجواجز ، وتظاهرت بالقراءة : وكنت أتابع بعيني الأسطر السوداء دون أن أترك سطرًا واحدًا وأقص على نقى قصة يصوت عال مع العناية بنطق كل المقاطع . وفاجأوني — أو جعلتهم يفاجئوني — وصاحوا متعجبين وقرروا أن الوقت قد حان لتعليمي الحروف الأبجدية . وكنت متحمسا كالوعوظ ^(١) ، وذهب بي الجاس إلى حد اعطاء نقى دروسا خاصة : كنت أتسلق سريري ذا الحاجز مع رواية « بلا عائلة » لهكتور مالو التى كنت أحفظ بعضها وأطالع فى صعوبة بعضها الآخر وأقلب جميع صفحاتها ، الواحدة بعد الأخرى : وعندما قلبت آخر صفحة ، كنت قد تعلمت القراءة .

لقد جئت فرحا : إن هذه الأصوات التى جفت كالنباتات بين الصفحات هى لى ، هذه الأصوات التى كان جدى يبعثها بنظرة ويسمها ولا أسمها انا ! لسوف أصغى إليها وسوف أملا نقى بخطب احتفالية وأعرف كل شيء . وتركونى آتجول فى المكتبة وهجمت على الحكمة الانسانية ، الشيء الذى كوئنى . وبعد ذلك سمعت مائة مرة أعداء السامية يأخذون على اليهود جهلهم لدروس الطيبة وصمتها ؛ وكنت أجب : « إني فى هذه الحالة أكثر يهودية منهم . » وعشنا أبحث فى نقى عن الذكريات الغامضة وعن الشقاوة اللطيفة لأطفال الريف . إني لم أحفر الأرض قط ولم أبحث عن أعشاش ، ولم اجمع النباتات من الحقول ولم أقذف الطيور بالحجارة . ولكن

(١) الذى يعتنق دينًا جديدًا عن اقتناع (المترجم) .

الكتب كانت طيورى وأعشاشى ، وحيواناتى الأليفة وحظيرتى وريفي ؛ إن المكتبة كانت العالم معكوسا فى مرآة ؛ كان لها سمكة اللانهاى وتنوعه وعدم القدرة على التنبؤ بما سيقع فيه من أحداث . لقد نفذت بنفسى فى الغامرات المعجبة : وكان لا بد لى من تسليق الكراسى والموائد غير مبال بالانهيارات التى قد تردمنى تحتها . وظلت كتب الرف الأعلى بعيداً عن متناولى مدة طويلة ؛ وانتزعت كتب أخرى من يدى بمجرد اكتشافى لها ؛ وغيرها من الكتب كانت عجبة أيضاً : كنت قد أخذتها وبدأت قراءتها واعتقدت بأننى أعدتها إلى مكانها ، ولكن كان لابد من أسبوع للثور عليها . لقد التقيت بأشياء مرعبة : فكنت أفتح دفترا للرسوم ، وأصادف لوحة بالألوان ، وحشرات قبيحة تتحرك تحت نظرى . وكنت أقوم برحلات شاقة خلال فوتنيل واريستوفان ورابليه وأنا راقد على السجادة : وكانت الجمل تقاومنى على منوال الأشياء ؛ كان لابد من ملاحظتها واللف حولها والتظاهر بالابتعاد والعودة بغتة إليها لمفاجأتها بعيداً عن حراسها : وفى أغلب الأحيان ، كانت تحتفظ بسرها . وكنت لا يروز^(١) وماجلان وفاسكودى جاما ؛ وكنت أكتشف سكاناً أصليين غرباء : كلمة « هيو تونيمورومينوس » فى إحدى تراجم تيرانس^(٢) فى بيت شعر ذى اثنى عشر مقطعا ، واصطلاح « المزاج الشخصى » فى كتاب يبحث فى الأدب المقارن . والكلمات « أبوكوب » و « الشبك » و « نمودج »

(١) ملاح فرنسى مشهور توفى سنة ١٧٨٨ (المترجم)

(٢) شاعر كوميدي لاتنى ولد فى قرطاجة فى حوالى سنة ١٩٠ قبل الميلاد .

قلد الشعراء اليونانيين (المترجم)

ومائة كلمة أخرى مغلقة وقصية كانت تظهر في معنى منفحة . وكان مجرد ظهورها يقطع أوصال الفقرة كلها . إننى لم أعرف معنى هذه الكلمات الملبية والسوداء إلا بعد ذلك بشهر أو خمس عشرة سنة . وهى تحتفظ حتى اليوم بعدم شفافتها : إنها دبال ذا كرتى .

لم تكن المكتبة تحوى إلا كبار كلاسيكي فرنسا وألمانيا . وكانت هناك أيضا كتب قواعد وبعض الروايات المشهورة ، وتخصص مختارة لموباسان ومؤلفات فى الفن — عن روبانس وفان ديك ودورر ورامبرانت — وكان تلاميذ جدى قد أهدوها له بمناسبة عيد من أعياد رأس السنة . إنه عالم هزيل . ولكن قاموس لاروس الكبير كان كل شيء بالنسبة لى : كنت أتناول جزءا عرضا ، خلف المكتب ، على الرف قبل الأخير ، من حرف ا إلى كلمة ييلو ومن ييلوك إلى ش أو من ت إلى ث ومن كلمة ميللى إلى بو أو الباء الثقيلة والراء إلى آخر حرف من حروف الأبجدية الفرنسية (إن هذا التآلف بين المقاطع أصبح بالنسبة لى أسماء أعلام تشير إلى أقسام المعرفة العامة : فهناك المنطقة التى تمتد من حرف التاء إلى حرف الثاء ومنطقة الباء الثقيلة المتبوعة بالراء إلى آخر حرف من الأبجدية الفرنسية بحيواناتها ونباتاتها ومدنها ورجالها العظام ومعاركها) ؛ كنت أخطئه بصعوبة على القرطاس الذى يضعه جدى تحت يديه على المكتب ليكتب عليه ، وأفتح . وأخرج منه الطيور الحقيقية . وكنت أصطاد فيه الفراشات الحقيقية . النازلة على أزهار حقيقية . وكان الناس والحيوانات بذواتهم هناك : وكانت الصور المطبوعة هى أجسامها والنص روحها وجوهرها الفريد ؛ -

يوتلقى خارج الأسوار برسوم غير كاملة ، مبهمه تقترب بعض الشيء من التماذج ولكن دون أن تصل إلى كمالها : ففي حديقة الحيوان كانت القردة أقل من القردة ، وفي حديقة اللوكسمبورج كان الناس أقل من الناس . ولما كنت أفلاطونيا من حيث الوضع ، فكنت أبدأ بالمعرفة . وانتهى بموضوعها ؛ وأجد الفكرة أكثر واقعية من الشيء ، لأنها كانت تعطى نفسها لى أولا ولأنها كانت تعطى نفسها كشيء . ففي المكتب التقيت بالكون : متمثلا ومصنفا ومعنونا ومتأملا فيه ومرهوبا أيضا ؛ وقد خلطت فوضى تجاربي المكتنية بالمجرى الخطر للأحداث الواقعية . ومن هناك جاءت هذه المثالية التي أنفقت ثلاثين سنة للتخلص منها .

كانت الحياة اليومية راتقة : فكنا نعاشر أشخاص رصينين يتكلمون بصوت عال وبوضوح ويؤسسون يقينهم على مبادئ سليمة ، على حكمة الأمم ولم يكونوا يفضلون تمييز أنفسهم عن العامة إلا ببعض تنكف في الروح كنت قد اعتدته تماما . وما أن يدلوا بأرائهم حتى أقنع بها بيداها شفاقة وساذجة . فإذا أرادوا أن يبرروا سلوكهم قدموا أسبابا عملة إلى الحد الذي لا يمكن إلا أن تكون حقيقة ؛ وإن مشكلاتهم الضميرية التي يعرضونها براءه كامل كانت تقتلني أتل مما تبني . وكانت هذه المشكلات منازعات زائفة تم حلها من قبل ؛ وهي نفس المشكلات دائما ؛ وإن أخطاءهم حين كانوا يعترفون بها لم تكن تثقل ضمائرهم كثيرا : إن العجلة الشديدة ، هذا الهيجان الشرعى البالغ فيه . بلا شك قد حرفت حكمهم ؛ ولكنهم انتبهوا إليها في الوقت المناسب الحسن . الحظ ؛ وإن أخطاء

الغائبين الأكبر من أخطائهم كانت قابلة دائماً لأن تغفر : فلا اغتياب عندنا ، إنها عيوب في السلوك كانت تلاحظ بأسى . وكنت أصغى ، وأفهم ، وأوافق ، وأجد هذه الأحاديث مطمئنة ، ولم أكن مخطئاً بما أنها كانت تهدف إلى الطمأنينة : لا داء بلا دواء وفي الواقع لا شيء يتحرك ، إن الاضطرابات السطحية الباطلة يجب ألا تخفى علينا الهدوء الجنازى الذى هو نصينا .

كان زوارنا يستأذنون في الرحيل ، فأظل وحيداً وأهرب من هذه القبرة المتبدلة ، وكنت أذهب للعاق بالحياة وبالجنون في الكتب . وكان يكفيني أن أفتح كتاباً منها لأكتشف فيه هذه الفكرة اللاإنسانية ، القلقة التى تتجاوز أبهتها وظلماتها إدراكى والتى تقفز من فكرة إلى أخرى بسرعة تجعلني أفلك قبضتي مائة مرة في الصفحة وأتركها تهرب وأنا مذهول ، ضائع . وحضرت أحداثاً كان جدى يعتبرها بالثأ كيد بميدة التصديق ومع ذلك فقد كان لها الصديق الواضح للأشياء المكتوبة . وكانت الأشخاص تظهر دون استئذان وتحاب وتفصل وتتقاتل ؛ وكان الباقي على قيد الحياة يذبل كدماً ويلحق في القبر بالصديق وبالخليلة الحنون التى اغتالها توا ، ما الذى كان يجب على أن أفعله ؟ هل كنت مدعوا كالأشخاص الكبار إلى اللوم والتهنئة والفقرات ؟ ولكن هؤلاء التواذ لم يكن يبدو عليهم أنهم يسرون على مبادئنا . ودوافعهم ، حتى عندما كانوا يقدمونها ، لم أكن أدركها فبروتوس يقتل ابنه وهذا ما يفعله ماتيو فالكونيه (١) أيضاً .

(١) بطل إحدى قصص الأديب الفرنسي بروسير ميرعى (المترجم)

فهذه العادة كانت تبدو مألوفاً بقدر كاف . ومع ذلك فإن أحداً من حولى لم يلجأ إليها . لقد اختلف جدى حين كنا فى مودون مع خالى اميل وسمعتهما يصرخان فى الحديقة : ولكن لم يكن يبدو أنه فكر فى قتله . كيف كان جدى يدين الآباء الذين يقتلون أولادهم ؟ أما أنا فكنت أمتنع عن الادلاء برأىي : خيالى لم تكن فى خطر لأنى كنت يتما وهذه الاغتيالات الاستعراضية كانت تسلىنى بعض الشيء ، ولكن فى القصص التى كانوا يؤلفونها عنها ، كنت أشعر بموافقة محيرة . وبالنسبة لهوراس كنت مضطراً إلى مقاومة نفسى كي لا أبصق على الصورة التى تظهره لابسا خوذة ، شاهراً سيفه ، جارياً خلف كاهى السكينة . وكان كارل يدندن أحياناً :

ليس هناك أقرب

من الأخ والأخت طبعاً ..

كان ذلك يلقىنى : ولو أن الحظ أعطانى أختاً ، لكان من الممكن أن تكون أقرب إلى من آن مارى ؟ من كارليمى ؟ إذن لأضحت جيئى ، و « جيئى » لم تكن بعد إلا كلمة غامضة كنت أصادفها كثيراً فى ماسى كورنىي . أحبباء يقبلون بعضهم بعضاً ويتواعدون أن يناموا فى نفس السرير (عادة غريبة : ولم لا ينامون فى سريرين متشابهين كما أفعل أنا وأمى ؟) . لم أكن أعرف أكثر من ذلك ، ولكن تحت السطح المضىء للفكرة ، كنت أشعر مقدماً بكتلة مشعرة لو كنت أختاً لعدوت ابن سقاح على أى حال . كنت أحلم بذلك . ولكن هل هو هروب أو إخفاء لشمور

ممنوع ؟ قد يكون ذلك . وكانت لى أخت أكبر ، هى أمى ، وكنت أعنى أن تكون لى أخت أصغر . وحتى اليوم - ١٩٦٣ - أرى أنه الرباط العائلى الوحيد الذى يحرك شجوني^(١) . لقد اقترفت الخطأ الكبير بأن بحثت كثيراً بين النساء عن تلك الأخت التى لم تكن : وقد حكم بعدم صحة دعواى وبدفع الصاري . وهذا لا يمنع أنى ، وأنا أخط هذه الأسطر ، أبث الغضب الذى اتابنى على قاتل كأمى ؛ إن غضاضتها الزائدة وحيويتها الفاتكة جعلتانى أسائل نفسى عما إذا كانت جرعة هوراس إحدى أسباب عداوتى للمسكينة : إن المسكرين يقتلون أخواتهم . ولو كنت حاضراً لأذقته المر هذا الجندى القبط الغليظ . وأول ما أفعله أربطه إلى عمود وأفرغ فى جسمه اثنتى عشرة رصاصة ! وأدركت الصفحة ؛ إن حروفاً مطبعية تبرهن لى على خطئى : فلا بد من إطلاق سراح قاتل أخته . ولبضع دقائق أخذت أنفخ وأضرب الأرض بقبقيب كالثور المخدوع . ثم كنت أسرع إلى رمى الرماد على غضبي . كان الأمر كذلك ؛ وكان على أن أخضع له إذ كنت صغيراً جداً . وكنت قد فهمت كل شئ بالمقلوب

(١) عندما كنت فى حوالى العاشرة كنت أتلذذ بقراءة « عابرات المحيطات » : حيث نجد أمريكياً صغيراً وأخته غابة فى البراءة . كنت أتجد الصبي وأحب خلاله « بيدي » الفتاة الصغيرة . وقد فكرت طويلاً فى كتابة قصة عن طفلين ضائعين وابنى سفاح سرا . وتوجد فى كتاباتى آثار هذه الرؤية : أورست والكفرا فى « الباب » ، بوريس وإيفيس فى « طرق الحرية » وفرانز واينز فى « سجناء التونة » . إن الزوج الأخير هو وحده الذى انتقل إلى العمل . إن ما كان يفرينى فى هذا الرباط العائلى هو تحريم المضاجعة أكثر من اغواء الحب : ناز وجليد ، لذة ممزوجة بالحرمان ، وكان السفاح يروق لى إذا ما ظل عنفياً .

إن ضرورة هذه التبرئة كانت موجودة بالذات في الآيات الكثيرة التي ظلت أمامي مغلقة أو التي تركتها لنفاد صبرى . كنت أحب هذا الشك وأحب أن تغلت منى القصة من كل جهة : كان ذلك يحيرنى . لقد أعدت قراءة الصفحات الأخيرة من رواية « مدام بوفارى » عشرين مرة ؛ وفي النهاية حفظت عن ظهر قلب صفحات كاملة دون أن يكون سلوك الأرملة المسكين أكثر وضوحا لى : لقد وجد خطابات ، ولكن هل هذا سبب تركه لحيته تنمو ؟ إنه يلقي نظرة غامضة على رودولف ، فهو يحقد عليه إذن — ولماذا يحقد عليه بالفعل ؟ ولماذا قال له : « إنى لا أحقد عليك » ولماذا كان رودولف يحبه « مضحكا ودنياً بعض الشيء » ؟ ثم يموت شارل بوفارى : هل يموت حزنا ؟ هل يموت من المرض ؟ ولماذا يفتحه الطبيب وقد انتهى كل شيء ؟ كنت أحب هذه المقاومة الصلبة التي لم أتمكن قط من القضاء عليها ؛ ولما كنت مخدوعا وعاجزا ، فقد تذوقت لذة الفهم دون فهم ، هذه اللذة الغامضة : إنها بطء فهم الناس ؛ إن القلب الإنسانى الذى كان جدى يتكلم عنه بطيية خاطر مع العائلة كنت أجده فارغا وبلا طعم فى كل مكان ما عدا فى الكتب . إن أسماء مصدعة كانت تكيف أمرجى وتلقى بى فى جو من الرعب أو من الحزن لا أعرف أسبابه . كنت أقول « شاربوفارى^(١) » ولم أكن أرى فى أى مكان رجلا طويل القامة ذا لحية يتنزه فى أسماله داخل حظيرة . ولم يكن ذلك محتلا . كان يوجد فى منبع هذه اللذة القلقة مزيج من خوفين متناقضين . كنت أخشى أن أسقط على رأسى فى عالم خرافى وأن أتوه فيه بلا انقطاع ، بمصاحبة

هوراس وشاربوفارى ، دون أمل فى أن أعثر على شارع لوجوف وعلى كارليماسى ولاعلى أمى . ومن جهة أخرى ، فقد اكتشفت أن هذه الجمل المتتابعة تقدم للقراء البالغين معانى تتوارى عني . ومن عيني كنت أدخل فى برأسى كلمات سامية ، أغنى بكثير مما أعلم ؛ إن قوة غريبة كانت تعيد تكوين حزن هائل فى نفسى هو حطام حياة ، وذلك بكلام أعني قصص هائجين لا تتعلق بي : ألن أفسد نفسى وأموت مسموماً ؟ ولما كنت أمتص الكلمة وتمتنى الصورة ، فاني لم أكن أعتقد نفسى أخيراً إلا بتناقض هذين الخطيرين الآنيين . وعند جنوح الهمار ، وأنا تائه فى غابة من الكلام ، أرتعد لأدنى صوت وأظن طقطقة الأرضية الخشبية أصوات تعجب ، كنت أعتقد أنني اكتشفت اللغة فى حالتها الطبيعية ، دون الناس . وبأى عزاء جبان وبأية خيبة أمل أجد الابتذال العائلى حين تدخل أمى وتضىء العرفة وهى تصيح : « يا حبيبي المسكين إنك تملع عينيك ! » وكنت أقفز على قدمي ، شارداً ، وأصبح وأعدو ، وأهرج . ولكن حتى فى هذه الطفولة التى أعدتها ، كانت هذه الأسئلة تقلقني : عم تتحدث الكتب ؟ من الذى يكتبها ولماذا ؟ بحث بقلبي إلى جدي الذى رأى — بعد تفكير — أن الوقت قد حان لتحرري . وقد قام بهذه المهمة على أحسن وجه الشيء الذى طبعني بطابعه .

كان يهددني طويلاً على ساقه الممدودة وهو يغني : « أنا راكب حصاني الصغير وحين يجب يضرب » وكنت أضحك من الفضيحة ، ولم يعد يغني : وأجلسني على ركبتيه ونظر إلى فى أعماق عيني وكرر جهاراً « أنا انسان ، أنا انسان وكل ما هو انساني ليس غريباً على . » وكان خيالي كثيراً : وكما فعل أفلاطون فى الشاعر ، فقد طرد كارل من جمهوريته

المهندس والتاجر كما طرد الضابط على الأرجح . إن المصانع كانت تشوه الناظر الطبيعية ، ولم يكن يذوق من العلوم البحتة سوى نقاوتها . وفي جريني حيث كنا نقضى النصف الثانى من شهر يوليو ، كان خالى جورج يصحبنا لزيارة السابك : وكان الجو حارا وكان رجال غلاظ فى ملابس رثة يدفعوننا ؛ وكنت أموت من الخوف والملل وقد أصمت أذنى أصوات هائلة ؛ وكان جدى ينظر إلى المعدن المنصهر وهو يصفر تأدبا ولكن عينه كانت كالتيه . ولكن فى الأوفرني ، فى شهر أغسطس ، كان يتجول باحثا خلال القرى وكان يقف أمام الأبنية القديمة ويضرب الطوب بطرف عصاه ويقول لى بحماسة : « إن ماتراه هنا يا صغيرى هو حائط غالى — روماني » . وكان يقدر كذلك الفن الممارى الدينى وعلى الرغم من مقتته لأتباع البابا لم يكن يفوته قط دخول الكنائس حين تكون على الطراز القوطى أو طراز القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كان ذلك موقوفا على مزاجه . لقد اقطع عن الذهاب إلى حفلات الكونسير ولكنه كان يحضرها . فقد كان يحب بهوفن وأبته وأوركستراه الكبيرة ؛ وكان يحب باخ أيضاً ولكن بدون اندفاع . ويقترب أحيانا من البيانو ويوقع بأصابعه اليابسة بعض التوافقات الموسيقية وهو واقف : وكانت جدتى تقول بابتسامة مكتومة : « إن شارل يؤلف . » وكان ولداه — وخاصة جورج — قد أصبحا عازفين محيدين يكرهان بهوفن ويفضلان موسيقى الحجرة ؛ ولم يكن جدى يتضايق من اختلاف وجهات النظر هذه ؛ وكان يقول . بلهجة تم عن الطيبة : « إن عائلة شفايتزر ولدت موسيقية . » وبعد .

ثمانية أيام من مولدى حين بدا منى أثنى سرور من قرع ملقة ، قرر أن
يلدى أذنا موسيقية .

إن نوافذ الكنائس المزخرفة بالزجاج الملون والأقواس والأبواب
المنحوتة والأناشيد ومناظر صلب منحوتة فى الحشب أو فى الحجر
والتأملات الشعرية والألقام الشاعرية ، كل هذه الانسانيات كانت تخلق
فينا الاحاس بالقداسة وفضلا عن ذلك كان لا بد من الجمال الطبيعى .
إن روحا واحدة كانت تشكل أعمال الله والأعمال الانسانية العظيمة ؛
إن قوس قزح كان يلعب فى زبد الشلالات ويتراقص بين أسطر قلوير
ويلعب فى لوحات رامبرانت التى يصفى السواد المحيط بشخصها البيضاء
مزيدا من اللائلاء : تلك هى الروح ، الروح التى تحدث البشر عن الله
وتجاولو لهم وجوده . . وكان جدى يرى فى الجمال الوجود المادى للحقيقة
ومصدرا لأعلى سمو . وفى بعض الأحوال الاستثنائية — حين كانت تنفجر
عاصفة فى الجبل ، وحين كان يلهم فيكتور هوجو — كنا نستطيع الوصول
إلى النقطة السامية حيث تحتلط الحقيقة والجمال والخير بعضها ببعض .

لقد وجدت دينى : ولم يبد لي أن هناك ما هو أهم من الكتاب :
كنت أجد فى المكتبة معبداً ، ولما كنت حفيد قسيس ، فكنت
أعيش على سقف العالم ، فى الطابق السادس جأعا على أعلى
فرع من الشجرة الأساسية : وجزعها ، هو نقص المصعد . وكنت
أروح وأغدو على الشرفة وأرى المارة بنظرة عمودية ، وأحسب
من خلال القفبان لوسيت مورو ، جارتى ، التى كانت فى سنن وشعرى

الأشقر المجد وأنوثى الصغيرة ، وكنت أدخل في الكوة أو في المدخل
ولا أنزل أبدا : وحين كانت أرى تصحبنى إلى حديقة اللوكسمبورج -
أى كل يوم - كنت أعير ملابسى المزقة للجهات السفلى ولكن جسدى
المجيد لم يكن يترك جشمه ، وأعتقد أنه لا يزال هناك . ولكل انسان
مكانه الطبيعى ؛ ولا يحدد ارتفاعه الكبرياء أو القيمة : إن الطفولة
هى التى تقرر ذلك . ومكانى هو طابق سادس فى باريس يطل على أسطح
النازل . لقد اختنقت زمنا طويلا فى الوديان وأنقلت السهول كاهلى :
وكنت أجز رجلى على كوكب المريخ وكان الثقل يسحقنى ؛ ويكشفنى أن
أتسلق إحدى الرواى ليعاودنى السرور : وكنت أعود إلى طابق السادس
الرمزى ، واستنشق فيه من جديد هواء الآداب النادر ، وكان الكون
يتدرج عند قدمى وكل شىء كان يطلب بتواضع اسما ، واعطاؤه اياه كان
يعنى خلقه وأخذه فى وقت مما . ولولا هذا الوم الأساسى لما كتبت أبدا .

واليوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٦٣ أصحح هذا المخطوط فى الطابق العاشر
من منزل جديد : ومن نافذة مفتوحة أرى مقبرة ، وباريس وتلال سان
كلو الزرقاء . مما يدل على عنادى . ومع ذلك فكل شىء قد تغير . فعندما
كنت طفلا ، هل كنت أريد أن أستحق هذا المركز العالى ، لا بد أن فى
حى لايراج الحمام أنرا للطموح والزهو وتمويضا لقامتى القصيرة . ولكن
لم يكن الأمر أن أتسلق على شجرتى المقدسة فقد كنت فوقها وكنت
أرفض النزول ، ولم يكن الأمر أن أضع نفسى فوق الناس : كنت أريد
أن أعيش فى وسط الأثير ، بين الأشباح الهوائية للأشياء . وبعد ذلك ،
وبدون أن أتشبث غناطيد ، بذلت كل همى فى العوص : وكان لا بد من

ارتداء نعال من رصاص . وحدث لى أحيانا أن مسست بالصدفة ، على رمال جرداء ، أنواعا في قلاع البحار وكان على أن أبكر لها اسما . وفي مرات أخرى ، بلا فائدة : كانت خفة لا تقهر تمسكنى عند السطح . وفي النهاية ، انكسر ميزان قياس الارتفاع عندى ، فأنا تارة يهلوانا وتارة غطاسا ، وكثيرا ما أكون كليهما كما هو لا ثق في جهتنا : واسكن الهواء بالمادة وأندخل في شئون الدنيا دون أمل كبير .

ولكن كان لا بد له أن يحدثنى عن المؤلفين . لقد فعل جدى ذلك ببطانة وبدون حرارة . لقد علمنى أسماء هؤلاء الرجال العظام ؛ وكنت أتلو قائمتهم وحدى من هزبود^(١) إلى هوجودون أن أخطيء مرة واحدة: وكان هؤلاء الرجال العظام هم القديسين والأنبياء . وكان شارل شفايتزر يقول إنه يخصهم بنوع من العبادة . ولكنهم كانوا يضايقونه : فان وجودهم المزعج كان يمنعه من أن يسند إلى الروح القدس رأسا أعمال الانسان . لذا كان يفضل سرا المجهولين والبنائين الذين تواضعوا وتواروا خلف كاندراياتهم والعدد الذى لا يحصى من مؤلفى الأغاني الشعبية . ولم يكن يكره شكسير الذى لم تكن شخصيته قد ثبتت ، وللسبب نفسه لم يكن يكره هوميروس ولا بعض المؤلفين الآخرين الذين لم يتأكد وجودهم تماما . وكان يلتمس الأعذار لهؤلاء الذين لم يشاءوا أو لم يعرفوا أن يسحوا آثار حياتهم ، على شرط أن يكونوا قد مانوا . ولكنه كان يدين معاصريه بالجملة باستثناء أناتول فرانس وكورتلين الذى كان يهجه . وكان

(١) شاعر اغريق عاش في القرن الثامن قبل الميلاد (المترجم) .

شارل شفايتزر يتمتع خفورا بالاحترام الذى كان الناس يكتونه لسنه الكبير ولثقافته وجماله وفضائله . إن هذا اللوثيرى لم يكن يمنع نفسه من التفكير ، حسب التوراة ، فى أن الله قد بارك بيته . وعلى المائدة ، كان يفرغ لنفسه أحيانا لينظر إلى حياته نظرة فيها بعض التعجب ويحتم قائلا : « كم هو جميل ، يا أولادى ، ألا نجد ما نأخذه على أنفسنا . » وإن احتداده وعظمته وكبرياءه وجهه للسمو كانت تضطى خجلا عقليا سببه دينه وعصره والجامعة وبيته . ولهذا السبب كان يكن كراهية سرية للغيلان المقدسة التى فى مكتبته ، هؤلاء الأشرار الذين يعتبر كتبهم مجونا فى قرارة نفسه . وكنت مخطئا فى ذلك : فإن التحفظ الذى كان يبدو تحت حماس متكلف ، كنت آخذه على أنه قوة قاض ؛ إن كهنوته كان يرفعه فوقهم . وكان رجل الدين يهمس فى أذنى أن العبقرية ليست على أى حال سوى قرص : ولا بد من استحقاقه بعدايات كبيرة ويتجارب تحتاز بتواضع وثبات ؛ ويشهى بنا الأمر بأن نسمع أصوات وعلى علينا ما نكتبه . وبين الثورة الروسية الأولى والنزاع العالمى الأول وبمعد وفاة مالارميه (١) بخمس عشرة سنة وفى الوقت الذى كان دانييل دى فوتتانان يكتشف « الأغذية الأراضية (١٢) » كان رجل من القرن التاسع عشر يفرض على حفيده الأفكار التى سادت عصر الملك لويس فيليب . وهكذا تفسر العادات الريفية ، كما يقولون ؛ فالآباء يذهبون إلى الحقول تاركين أولادهم

(١) شاعر فرنسى توفى سنة ١٨٩٨ زعيم المدرسة الرمزية فى الشعر .

(المترجم)

(المترجم)

(٢) رواية من تأليف اندريه جيد

في أيدي الأجداد . لقد انطلقت متأخراً ثمانين سنة . هل يجب على أن أشكو من ذلك ؟ لا أعرف : إن في مجتمعاتنا التحركة يعطى التأخير أحيانا بعض التقدم . ومهما يكن الأمر لقد ألقوا لي بهذه العظمة لأقرضها وقت بقرضها جيدا بحيث أصبحت أرى الضوء من خلالها . وكان حدى يمتنى سراً أن يجعلنى أكره الكتاب ، هؤلاء الوسطاء وحصل على النتيجة العكسية : فقد خلطت بين الموهبة والاستحقاق . إن هؤلاء الناس الطيبين كانوا يشبهوننى : حين كنت عافلاجدا وحين كنت أتحمّل بشجاعة الآلى ، وكنت استحق أغصان الغار أو مكافأة ؛ ولكن تلك كانت الطفولة . وكان كارل شفايتزر يربى أطفالا آخرين ، روقبوا مثلى ، ومروا بحزن وكوفثوا ، وعرفوا كيف يحتفظون طول حياتهم بسنى . ولما كنت بلا أخ ولا أخت وبلا أصحاب ، فقد جعلتهم أصدقائى الأول . لقد أحبوا وتذبذبا عذابا مريراً ، مثل أبطال رواياتهم وانتهوا على الأخص نهاية طيبة ؛ كنت أتذكر آلامهم بشفقة تشوبها بعض البهجة : كم كان سرور هؤلاء الأتراب حين كانوا يشمرون بشدة بعباسهم : وكانوا يقولون فى أنفسهم : « باللعظ ! إن بيتنا جديداً سوف يولد ! » .

إنهم فى نظرى لم يموتوا ، أو لم يموتوا تماماً لقد تحولوا إلى كتب . إن كورنى كان ضخماً ، أحمر الوجه ، خشنا ذا ظهر من جلد تنبعث منه رائحة الصمغ . إن هذا الشخص غير المريح والقاسى ذا الكلام الصعب كانت له زاويا تدمى نخدى حين كنت أقوم بنقله ولكن ما أن أفتحته حتى يقدم لى صورته المظلمة الرقيقة كأنها اعترافات . وكان فلووير صغيراً مبطناً بقماش ، لرائحة له ، ومنقطاً يقع نخالة . وفكتور هو جود التعداد

الأجزاء كان معشاً على كل الأرفف مما . ذلك بالنسبة للأجسام ؛ أما بالنسبة للأرواح ، فقد كانت تتردد على المؤلفات : وكانت الصفحات نوافذ ، ومن الخارج كان وجهها ملتصقا بازجاج ، إن أحدا يراقبني ؛ وكنت أظاهر بأني لا ألاحظ شيئا واستمر في قراءتي ، وقد تعلقت عيني بالكلمات تحت نظرة الرحوم شاتوبريان الثابتة . إن هذا القلق لم يكن يستمر : وباقي الوقت كنت أعبد رفقاؤى فى اللعب . لقد وضعهم فوق كل شيء ، وقد حكوا لى دون أن أتعجب أن شارل الخامس التقط فرشاة ترينانو (١) : وما الغرابة فى ذلك ! أليس هذا هو عمل الأمير ؛ ومع ذلك فلم أكن أحترمهم : ولماذا أمدحهم لأنهم عظام ؛ كانوا لا يقومون إلا بواجبهم . وكنت ألوم الآخرين لأنهم صغار . وبالاختصار لقد فهمت كل شيء على العكس واتخذت من الاستثناء قاعدة : لقد أصبح النوع الإنسانى لجنة محددة عحاطة بحيوانات ودودة . خاصة وأن جدى كان يعاملهم معاملة سيئة للغاية كى آخذهم على محمل الجد تماما . لقد كف عن القراءة منذ وفاة فكتور هوجو ؛ وعندما لم يكن لديه عمل آخر كان يعيد القراءة . ولكن مهمته كانت الترجمة . فى حقيقة قلبه كان مؤلف « المظالمة الألمانية » يعتبر الآداب العالمية مادته . وكان يرتب باحتقار المؤلفين حسب استحقاقهم ، ولكن هذا التدرج الظاهرى كان لا يخفى تفضيله جيداً هذا التفضيل النعمى : فهو باسان كان يقدم للتلاميذ الألمان أفضل نصوص الترجمة . إن جوته الذى يتفوق على جوتفريد كيلر بقليل ، لا يبارى بالنسبة للنصوص الألمانية الواجب ترجمتها إلى الفرنسية : ولما كان جدى إنسانيا فانه كان

قليل التقدير للروايات ؛ ولكونه مدرسا فإنه كان يقدرها بشدة من أجل
 المفردات . وانتهى الأمر به إلى أنه أصبح لا يحتمل إلا المقطوعات المختجة .
 ورأيته بعد بضع سنوات تليذ نبذة من « مدام بوفارى » اقتطعها ميرونو
 لكتاب « مطالعته » بينما كان فلوير كاملا ينتظر منذ عشرين سنة إرادته .
 المستبدة . وكنت أشعر بأنه كان يعيش من الأموات ، الشيء الذى كان
 يعتقد صلاتى بهم : فبحجة أنه يحترمهم إلى حد العبادة ، فإنه كان يكلمهم
 بسلاسله ولم يكن يمنع نفسه من تقطيعهم إلى شرائح لينقلهم من لغة إلى
 أخرى بطريقة أكثر سهولة . واكتشف فى الوقت نفسه عظمتهم وبؤسهم .
 وكان ميريه لسوء حظه يناسب الفصول المتوسطة ؛ فكان يعيش لذلك
 حياتين : فى الطابق الرابع من المكتبة ، كانت « كولومبا » (١) حمامة غضة
 ذات مائة جناح ، باردة ومعروضة ولكنها مجهولة بالنظام ، ولم تنهكها
 أية نظرة قط . ولكن على الرف السفلى كانت هذه العذراء نفسها محبوسة .
 فى كتاب صغير قدر بنى اللون ، كرية الرائحة ؛ ولم تغير لا القصة ولا اللغة
 ولكن كانت فيها شروح بالألمانية وقاموس ؛ فضلا عن ذلك فقد علمت
 أنه نشر فى برلين ، وهى فضيحة لاتعد لها فضيحة منذ اغتصاب الأتراس
 والورين . وكان جدى يضع هذا الكتاب مرتين فى الأسبوع فى حنية
 كتبه ، لقد غطاه بالبقع وبالخطوط الحمراء وبالحروق وكنت أكرهه ؛
 إنه ميريه مهان . وكنت أموت من الملل بمجرد فتحه : إن كل مقطع كان
 ينفصل تحت نظرى كما كان يحدث بالمعهد فى فم جدى . ما هى هذه الإشارات
 المعروفة التى تعرف بجهد ، المطبوعة فى ألمانيا ليقراها ألمان سوى تقليد

لكلمات فرنسية ؟ إنها قضية جاسوسية أخرى : كان يكفي أن نكتب
لنكتشف خلف تكررها العالي (١) ألفاظا جرمانية كامنة . واتهمى بي الأمر
إلى سؤال نفسى عما إذا لم يكن هناك « كولومبتان » ، الواحدة متوحشة
وحقيقية والأخرى منحولة وتعليمية كما يوجد ايزولتان (٢) .

إن شقاوة أصحابي الصغار اقنعتى بأنى ندم . ولم تسكن لى مواهبهم
ولا أفضالهم ، ولم أكن قد شرعت بعد فى الكتابة ، ولكنى لما
كنت حفيد قسيس فقد كنت متفوقا عليهم بولدى ؛ لاشك أنى كنت
مكرسا لا لاستشهادهم الذى كان فاضحا بعض الشيء فى كل الأحوال ولكن
لبعض الكهانة ؛ سأكون ديدبان الثقافة كشارل شفايتزر . كما كنت أنا
حيا ، وشديد النشاط : ولم أكن أعرف بعد تقطيع الأموات ، ولكنى
كنت أفرض عليهم نزواتى : كنت آخذهم على ذراعى وأحملهم وأضعهم
على الأرضية الخشب وأفتحهم وأقفلهم ، كنت أسحبهم من العدم لأعيد
غمسهم فيه : لقد كانوا دميائى ، هؤلاء الناس الناقصون ، وكنت مشفقا
على هذا الخلود البائس الشالول الذى يسمونه خلودهم . كان جدى يشجع
هذه الدالة : إن كل الأطفال ملهمون ولا يستطيعون أن يحسدوا الشعراء على
شيء ، إنهم بكل بساطة أطفال . وكنت مولما بكورتلين (٣) ، وألاحق
الطاهية فى مطبخها أقول لها بصوت عال : « تيودور هات كبرتيا » . وقد

(١) نسبة إلى بلاد الغال ، فرنسا القديمة . (الترجم)

(٢) فى قصة « تريستان وايزولت » من قصص العصور الوسطى الفرنسية ،
توجد ايزولت التى يحبها تريستان ، وايزولت ذات الدين البضاوين خطيبة
تريستان . وهى تحبه وهو لا يحبها (الترجم) .

(٣) مؤلف تمثيلات مضحكة . توفى سنة ١٩٢٩ (الترجم) .

سرهم ولعى هذا وغمته عنايتهم الزائدة به وجعلوا منه هوى معلنا ..
 وذات يوم قال لى جدى بعدم اكتراث : « لابد أن يكون كورتلين رجلا
 طيبا . لماذا لا تكتب له إذن ، مادمت تحبه بهذا المقدار ؟ » وكتبت ..
 ووجه شارل شفايتزر قلبي وقرر أن يترك عدة أخطاء إملائية فى خطابى ..
 لقد أعادت بعض الصحف نشر هذا الخطاب منذ بضع سنوات وقرأته ثانية ..
 متضايقا . لقد أنهيت الخطاب بهذه الكلمات « صديقك مستقبلا » وكانت
 تبدو طيعة جداً : وكانت لى دالة على فولتير وكورني ؛ فكيف يرفض كاتب
 على « قيد الحياة » صداقتى ؟ لقد رفض كورتلين هذه الصداقة وحسنا ؛
 فعل : لو أنه أجاب الحفيد لوقع على الجذ . وفى ذلك الوقت حكمتنا على
 سكوتة حكما قاسيا . قال شارل : « إني أفهم أن يكون لديه عمل كثير ،
 ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، فلا بد من الرد على طفل » .

واليوم أيضا ، ما زالت عندى تقيصة الدالة هذه . إني أعاملهم وكأنهم
 زملائى فى المدرسة ، هؤلاء الرماحلين المشهورين ، وأعبر عن ذاتى بلا
 مواربة عند الكلام عن بودليروفلوير ، وحين ألام على ذلك ، أود دائما
 أن أجيب : « لا تتدخلوا فى شؤوننا . إن عبقرىكم كانا ملكى ، لقد
 أمسكتهما فى يدى وأحببتهما عن هوى وبكل وقاحة . فهل أعاملهما
 بعدارة ؟ » ولكن إنسانية كارل ، إنسانية رجل الدين هذه ، لقد تخلصت
 منها منذ اليوم الذى فهمت فيه أن كل إنسان هو كل الإنسان . كم هى
 حزينة حالات الشفاء : إن اللغة تخلص من الأوهام ؛ وأبطال القلم ، أترابى
 القدماء ، قد دخلوا الصف مجردين من امتيازاتهم : إني ألبس الحداد
 عليهم مرتين .

إن ما كتبته توا لخطأ . إنه صح ، لا صحا ولا خطأ ككل ما يكتب
عن المجانين ، عن الناس . لقد أتيت بالوقائع بالدقة التي أتيت لها كرتي .
ولكن إلى أى حد أصدق هذيانى ؟ إنها المسألة الرئيسية ومع ذلك ، فإنى
لا أقرر شيئا فيها . ورأيت بعد ذلك أنه فى الاستطاعة معرفة كل شيء
عن عواطفنا عدا قوتها ، أى صدقها . إن الأعمال نفسها لن تستخدم
معيارا إلا إن ثبت أنها ليست حركات ، وهو أمر ليس سهلا دائما . أنظروا
بالأحرى : وحدى بين البالغين ، كنت بالغامصغرا ، وكانت قراءاتى
قراءات بالغين ؛ إن ذلك ليؤذى السمع ، لأننى فى نفس اللحظة ظلمت
طفلا . لا أدعى أننى كنت مذنبا : لقد كان الأمر كذلك ، وهذا هو كل
شيء ، ولا يمنع أن اكتشافاتى وصيدى كانت جزءا من المهارة العائلية ،
كانوا يفرحون لذلك ، وكنت أعلم : نعم كنت أعلم ، فى كل يوم كانت
طفل عجيب يوقظ كتب السحر التى لم يعد جده يقرأها . كنت أعيش فوق
سنى كما يعيش المرء فوق طاقته المالية : بهمة وبتمب وبشمن غال للمظهر .
وما أن أدفع باب المكتبة حتى أجد نفسى فى بطن عجوز لا يتحرك : المكتب
الكبير ، القرطاس الذى يوضع تحت اليدى ، بقع الحبر ، الجراء
والسوداء على النشافة وردية اللون ، المسطرة ، إناء الصمغ ، الرائحة التنة
للطباقي وفى الشتاء ، الوميض الأحمر للسندر وقمعة الميكا ، إنه كارل
بنفسه قائم : ولم تكن الحاجة تستدعى لأكثر من ذلك لأضع نفسى فى
حالة النعمة ، وكنت أجرى إلى الكتب . هل كنت أفعل ذلك بخلاوص
نية ؟ ما معنى ذلك ؟ كيف أستطيع أن أعين — خاصة بعد هذا البعد
من السنين — الحد المتحرك الذى لا يمكن إدراكه والذى يفصل التملك

عن التهريج ؟ كنت استلقي على بطني ، في مواجهة النافذة وكتاب مفتوح أمامي وكوب ماء محمر إلى يميني ، وإلى يساري قطعة خبز المربي موضوعة في طبق . حتى في العزلة كنت في عرض مسرحي : لقد أدارت آن ماري وكارليمي هذه الصفحات قبل أن أولد بوقت طويل ، إن علمهم هو الذي ينسب أُمّمي ؛ وفي المساء ، كانوا يسألونني : « ما الذي قرأته ؟ وما الذي فهمته ؟ » ، كنت أعرف ذلك ، كنت في حالة وضع ، وسوف أذكر كلمة ؛ إن الحرب من الأشخاص الكبار إلى القراءة لأفضل وسيلة للاتحاد معهم ؛ وفي غيابهم كانت نظرتهم المستقبلية تدخل في من الحلف وتخرج من الحدفين وتحدد في مستوى الأرض هذه الجمل التي قرئت مائة مرة والتي كنت أقرأها لأول مرة . وكما كنت مرثيا فقد كنت أرى نفسي : كنت أرى نفسي وأنا أقرأ كما يصغي المرء لنفسه وهو يتكلم . هل تغيرت كثيرا منذ الوقت الذي كنت أظاهر فيه أنني أفك ، الخط الصيني في الصين ، قبل أن أعرف الحروف الأبجدية ؟ كلا : إن اللعبة مستمرة : وكان الباب يفتح خلفي ، ويأتون ليروا « ماذا كنت أصنع » : كنت أغش ، كنت أنهض بسرعة وأعيد الشاعر موسيه إلى مكانه وأذهب في الحال وقد وقفت على أطراف أصابعي ، رافعا ذراعي لأخذ كتاب كورني الضخم ، وكانوا يقيسون هواي بالنسبة لمجهوداتي ، وكنت أسمع خلفي صوتا مقتوتا يهمس : « لأنه يحب كورني ! » لم أكن أحبه : فالآيات ذات الأثنى عشر مقطعا كانت تثبط همتي . ولحسن الحظ لم يكن الناشر قد طبع في نصها الكامل إلا أشهر مآسيه ؛ ولم يكن يعطى إلا عنوان المآسي الأخرى وملخصها التحليلي : وهذا ما كان يهمني : « إن رودلاند ، زوجة برتاريت ، ملك اللومباردين

الذى اتصر عليه جريموالد ، يستعجلها أو تولف لتقبل الأمير الأجنبي زوجها لها ، لقد عرفت رودوجون وتيدور واجيسلاس قبل السيد ، وقبل « سينا » (١) كنت أملاً فى بأسماء رنانة وأملاً قلبى بعشاعر نبيلة وأهتم بالأأتوه فى روابط القرابة . وكانوا يقولون أيضاً : « إن هذه الصغير ظمأ إلى العلم ؛ فهو يلتهم قاموس لاروس ! » ، وكنت أتركهم يقولون . ولكنى قلما كنت أتعلم : لقد اكتشفت أن القاموس يحوى ملخصات للتشيليات والروايات وكنت أتلذذ بها .

كنت أحب أن أكون موضع رضى وأريد أن آخذ حمامات ثقافة : وأملاً نفسى كل يوم بما هو مقدس . ويتم ذلك عن سهو أحيانا : إذ يكفى أن أسجد وأدير الصفحات ؛ وكثيرا ما استخدمت مؤلفات أصدقائى الصغار طواحين الصلاة . وكان يتناوب فى آن واحد خوف وسرور حقيقيان . وكان يحدث لى أن أنسى دورى وأن أسير بلا احتراس وقد جرفنى صوت مجنون ما هو إلا العالم . ولتستخلصوا النتيجة ! وعلى أى حال فإن نظرتى كانت تعالج الكلمات : ولا بد من تجربتها وتقرير معناها ؛ إن كومينديا الثقافة تفقتى على مر الأيام .

وكنت مع ذلك أقرأ أقراءات حقيقة : خارج المبد فى غرفتنا أو تحت مائدة حجرة الطعام ؛ وكنت لا أتحدث عن هذه القراءات مع أحد ، ولا أحد كان يحدثنى عنها سوى أحمى . وحملت آن مارى فورانى المزورة

(١) كل هؤلاء أبطال فى مآسى كورنى المؤلف المسرحى الفرنسى الذى عاش فى القرن السابع عشر (الترجمة) .

على محمل الجد . وكشفت لجدتي عن قلقها : وكانت جدتي حليفة يوثق فيها
وقالت : « إن شارل ليس معقولا . إنه هو الذى يدفع الصغير ، لقد رأيت
يفعل . ما الذى نجّيه حين يهزل هذا الطفل ؟ ، وذكرت المرأتان كذلك
الارهاق والحمى الحمية الشوكية . إن من الخطورة والعبث مهاجمة جدى
من الأمام ، لابد إذن من مواربته . وخلال إحدى نزھاتنا ، وقفت آن
مارى كما لو كان بالصدفة أمام الكشك الذى لا يزال على ناصية شارع سان
ميشيل وشارع سوفلو : لقد رأيت صورا عجيبة ، وسحرتنى ألوانها الزاهية
فطلبته وحصلت عليها ؛ وتمت اللعبة : وقد أردت الحصول كل أسبوع على
مجلات « كرى كرى » ، و « المدهش » ، و « العطة » ، و « أبناء الكشافة
الثلاثة » ، لجان دى لاهير و « حول العالم بالطائرة » ، لأرنو جالوبان وكانت
تظهر فى ملازم كل يوم خميس . ومن خميس إلى خميس كنت أفكر فى
« نرجال الأنديز » ، وفى مارسيل دونو الملاك ذى القبضتين الحديديتين
وفى كريستيان الطيار أكثر بكثير مما كنت أفكر بصديقى رابليه وفيني .
وأخذت أرى تبعث عن كتب تعيدنى إلى طفولتى : وكانت هناك أولا
« الكتب الوردية » الصغيرة ، وهى كتب شهيرة تحوى قصص الجنيات ثم
شيئا فشيئا « أبناء القبطان جرانت » ، و « آخر قبيلة الموهيكان » ، و
« نيقولا نيكلي » ، و « صولديات لافاريد الخمسة » . وفضلت هوس بول
ديفوا على أتران جول فرن الزائد . ولكن أيا كان المؤلف ، فكنت
أعبد كتب مجموعة هزل ، وهى عبارة عن تمثيلات صغيرة وأغلفتها الحمراء
ذات الشراريب الذهبية تصور الستار : وغبار الشمس على حافة الكتب
كان يصور أضواء المسرح الأمامية . إنى أدرك لهذه الصناديق السحرية

— لا لجل شاتوبريان التوازنة — مقابلتي الأولى مع الجمال . حين كنت أفتحها أنسى كل شيء : أكانت هذه قراءات ؟ كلا ، ولكنها كانت تفانيا من شدة الإعجاب : ومن إلقاء وجودي كان لا يلبث أن يولد وطنيون مسلحون بالحرايب والحشائش الاستوائية ومستكشف على رأسه خوذة يضاء . لقد كنت رؤيا وكنت أغمر بالضوء خدي ، عودة ، الجليلين الأسمرين وسالفي فيلياس فوج (١) . إن الأعجوبة الصغيرة ، وقد تخلصت من نفسها أخيرا ، كانت تترك نفسها لتصبح إعجابا خالصا . وعلى ارتفاع خمسين سنتيمترا من الأرضية الحشوية كانت تولد سعادة كاملة بلا سيد ولا طوق . وكان العالم الجديد يبدو أولا أشد إقلاقا من القديم : فالنهب والقتل قائمان فيه ؛ والدم يجري أنهاراً إن هنوداً وهندوساً وموهيكان وهوتنتونخطفون الفتاة ويقيمون أباهما المجوز ويتواعدون على إزهاق روحه بتعذيبه تغديا يشيب لموله الولدان . وكان الشر خالصا . ولكنه لم يكن يظهر إلا ليخضع أمام الخير : وفي الفصل التالي يعود كل شيء إلى حاله . إن أيضاً شجعانا يذبحون مئات المتوحشين ويقطعون قيود الأب الذي يلقي بنفسه بين ذراعي ابنته . إن الأشرار هم وحدهم الذين يموتون — وكذلك بعض الأخيار الثانويين الذين يأتي موتهم بين الأحداث غير المتوقعة من القصة . فضلا عن ذلك كان الموت مطهراً : فقد كانوا يسقطون مبسوطي الذراعين وبثقب صغير مستدير تحت الثدي الأيسر أو — إذا كانت البندقية لم تحترع بعد — كان المذنبون « يموتون بحمد السيف » . وكنت أحب هذا التركيب

(١) بطل رواية « حول الأرض في ثمانين يوما » للكاتب الفرنسي جول فرن (الترجم) .

الجبل : وأتخيل هذا البرق المستقيم الأبيض ، هذا النصل وهو ينغرز كما لو كان في زبد ويخرج ثانية من ظهر الخارج على القانون الذى يسقط دون أن يفقد نقطة دم واحدة — وكانت النية تذهب أحيانا إلى حصد الاضحاك : مثل هذا المغربى الذى فى قصة « ريبية رولان » ، على ما أذكر ، هجم بجواده على جواد أحد الصليبيين ؛ فضربه الفارس الفرنسى على رأسه بالسيف ضربة قوية شطرته من أعلى إلى أسفل ؛ إن صورة لجوستاف دوريه تصف هذه الحادثة . وكما كان المنظر مضحكا ! إن نصفى الجسم الشطورتين كانا آخذين فى السقوط ويرسم كل منهما نصف دائرة حول الركاب ؛ وقد شب الجواد مندهشا ١١ . وظللت عدة سنوات لا أنظر إلى هذه الصورة إلا وأضحك ملء شدى . وكنت أمسك أخيرا بما أنا فى حاجة إليه : العدو ، المكروه ، لكنه غير مؤذ آخر الأمر ، بما أن مشروعاته لم تكن تصل إلى غرضها وحتى على الرغم من جهوده ودهائه الشيطاني ، كانت تخدم قضية الخير ؛ وكنت ألاحظ بالفعل أن العودة إلى النظام كانت مصحوبة دائما بتقدم : وكان الأبطال يكافأون ، أو يتلقون التكرم وعلامات الإعجاب والمال ؛ وبفضل جسارتهم كان غزو إقليم ونزع تحفة فنية من أبناء البلاد الأصليين ونقلها إلى متاحفنا . وكانت الفتاة تقع فى حب المستكشف الذى أنقذ حياتها ، وكل شيء كان ينتهى بزواج . لقد استخلصت من هذه المجلات ومن هذه الكتب خيالى المستقر فى أعماق : التفاؤل .

(١) كان الفرنسيون وغيرهم من الغربيين يقصون على أولادهم قصصا تفرس فى نفوسهم كراهية الشعوب الشرقية ويلاحظ أن سارتر يسخر من طرف خفى من هذه القصص (المترجم) .

وظلت هذه القراءات سرية زمنا طويلا ؛ ولم تكن آن ماري في حاجة إلى تنبيهي : ولما كنت مدركا شناعة فعلتهم ، فإنني لم أقل أى كلمة عنها لجدي . كنت أتذلل ، وأمنح تقى بعض الحريات ، وأبضى عطائيت في بيوت الدعارة ولكن لم أكن أنسى أن حقيقى ظلت في الهيكل .. ما جدوى الاساءة إلى الكاهن بقعة ضاللى ؟ وانهى الأمر بكارل أن فاجأني ؛ وغضب من الرأتين اللتين انتهزتا لحظة توقفه ليسترخ لتلقيا على كل الوزر : لقد رأيت المجلات وقصص الغامرات واشتهيتها وطلبتها ، فهل كان في إمكانهما أن ترفضاه ؟ إن هذه الأ كذوبة البارعة أخرجت جدى : لقد كنت أنا ، أنا وحدى الذى يندفع كولومبا مع تلك العاهرات اللواتى بالن فى طلاء وجوههن بالمساحيق . أنا الطفل النبوى وكشفة الغيب الشابة ، والياسين ^(١) الأدب وكنت أظهر ميلا مجنونا إلى العار . وعليه أن يختار : أو أن أكف عن التنبؤ أو أن يحترموا أذواقى دون أن يحاولوا فهمها . لو كان شارل شفايتزر أباً لحرق كل شئ ؛ ولكنه كان جدا فاختار التسامح الحزين . ولم أكن أطلب أكثر من ذلك وأكملت حياتى الزوجية بسلام . ولم تكف أبداً : وحتى اليوم أفضل قراءة كتب « السلسلة السوداء » ^(٢) على كتب وتجنشتين ^(٣) .

(١) أحد أشخاص مأساة أتالى لراسين . إن ألياسين هو الاسم الذى أعطى لجواس الأمير الذى رباه سرا « جواد » كبير السكينة ليحميه من غضب أتالى المترجم .
(٢) روايات بوليفية (المترجم) .

(٣) فيلسوف نمساوى ولد في فيينا سنة ١٨٨٩ وتوفى في كبردج سنة ١٩٥١ .
قام بالتدريس بجامعة كبردج وكتب بحثا في النطق الفلسفى وغيره من البحوث ..

كنت الأول ، العديم الثالث في جزيرتي المئوية ؛ وسقطت في الصف الأخير عندما طبقوا على القواعد العامة .

وقرر جدى أن يلحقني بليسيه موسى . وصحبنى ، ذات صباح ، إلى المدير وأشاد له بفضالى : ولم يكن عيبي سوى أنى . تقدم جدا بالنسبة لسنى . وسلم المدير بكل شيء : وأدخلونى فى الصف الثامن واستطعت أن اعتقد أننى سأعاشر الأولاد الذين فى سنى . ولكن لا : فبعد تمرين الاملاء الأول ، أسرعت الادارة فى استدعاء جدى ؛ وقد عاد غاضبا كل الغضب : وأخرج من حقيبة كتبه ورقة رديئة مكتوبة بخط غير مقروء وقد امتلأت بالبقع وقذف بها إلى المائدة : كانت الورقة التى قدمتها . وكانوا قد لفتوا نظره إلى الأخطاء الاملائية — « الأربن البررى يحب الذعرا »^(١) ، — وحاولوا أن يفهموه أن مكافى فى الفصل العاشر التحضيرى . وأمام الأربن البررى ، أغرقت أمى فى الضحك ؛ وأوقفها جدى بنظرة رهية . وبدأ يتهمنى بسوء النية وبتيكى لأول مرة فى حياتى ، ثم أعلن أنهم أنكروا صفاتى ؛ ومنذ الغد أخرجنى من الليسيه وغضب من المدير .

لم أفهم شيئا من هذا الموضوع وفشلى لم يؤثر فى : كنت طفلا من نوادر الزمن لا يعرف الإملاء . هذا كل ما فى الأمر . ثم وجدت عزلى ثانية بلا ضجر : كنت أحب عيبي . لقد فقدت ، دون أن أنتبه إلى ذلك ، فرصة أن أصبح حقيقة : وقد كلف السيد ليفان ، وهو معلم باريسى ، أن يعطينى دروسا خاصة ؛ وكان يأتى كل يوم تقريبا . وكان جدى قد

(١) الأربن البررى يحب الزعتر .

اشترى لى مكتبا صغيرا لاستعمالى الشخصى ، عبارة عن مقعد وقطر من الحشب الأبيض . وكنت أجلس على المقعد وكان السيد ليفان يروح ويندو وهو يلى . وكان يشبه فانسان أوربول^(١) وكان جدى يدعى أنه ماسونيا ويقول لنا باشمتراز الرجل الشريف الخائف المرض لمحاولات شخص شاذ جنسيا « إنه يرسم بابهامه الثلث الماسونى على راحة يدى » . وكنت أكرهه لأنه كان ينسى أن يدللى : وأعتقد أنه كان يعتبرنى ، لا بدون سبب . طفلا متأخرا . لقد اختفى ولا أعرف السبب : ربما يكون قد كشف لأحد عن رأيه فى .

وقضينا بعض الوقت فى أركشون وأدخلت مدرستها العامة : لقد كانت مبادئ جدى الديمقراطية تقتضى ذلك . ولكنه كان يريد أيضا أن يمدونى عن العامة . وأوصى العلم بى بالمبارات التالية : « يا زميلى العزيز إنى أعهد إليك بأعلى ما عندى » . وكان السيد بارو يربى لحية صغيرة ويضع على عينيه نظارة من التى تثبت فى الأنف : وجاء يشرب نبيذ موسكات فى فلتنا وأعلن عن اغتباطه بالثقة التى أولاه إياها أحد أعضاء التعليم الثانوى . وكان يجلسنى إلى قطر خاص إلى جانب كرسى العلم وأثناء الفسح كان يقينى إلى جانبه . إن هذه المعاملة الخاصة كانت تبدو لى عادلة ؛ أما ما كان رأى « أولاد الشعب » زملائى فى ذلك ، فإنى أجعله : أعتقد أنهم كانوا لا يالون به . وكان طيشهم يعينى وكنت أرى من النجابة أن أتضايق إلى جانب السيد بارو بينما كانوا يلعبون لعبة السباق .

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٤ . (المترجم)

كنت أحترم معلمى لسبيين : فهو يريد لى الخير ورائحة فمه كريهة . إن
الأشخاص الكبار يجب أن يكونوا دميمين ومتعنين ومتعبين ، وحين
كانوا يأخذونى بين ذراعيهم ، لم يكن يضائقنى أن أقهر تقززا خفيفا : مما
يثبت أن الفضيلة ليست سهلة . وتوجد مباهج بسيطة ، وعامية : الجرى ،
القفز ، أكل الحلوى ، تقيل بشرة أى الناعمة العطرة ، ولكنى كنت
أقدر أكثر الباهج الدراسية والتشابكة التى كنت أشعر بها فى مصاحبتى
للرجال الناضجين : إن النفور الذى كانوا يوحون به إلى أصبح جزءا من
سحرهم : وكنت أخط التقزز بروح الجد . وكنت مولما بالدع . وحين
كان السيد بارو ينحنى على ، كان نفسه يفرض على ضيقا لذيذا ، وكنت
استنشق بحماس الرائحة الجاحدة لفضائله . واكتشفت ذات يوم كتابة
جديدة جداً على حائط المدرسة ، فاقتربت منها وقرأت : « إن الأب بارو
مغفل » . ودق قلبى حتى كاد ينفطر وسمرت فى الدهشة فى مكانى ، وكنت
خائفا . « مغفل » ، إنها لا يمكن أن تكون إلا إحدى هذه « الكلمات
البديئة » التى تكثر فى أحط ألفاظ اللغة والتى لا يصادفها قط طفل مهذب .
ولما كانت قصيرة وفظة فقد كانت لها شناعة الحيوانات البدائية . وكان
كثيراً على أن أقرأها : لقد منعت نفسى من النطق بها حتى بصوت منخفض .
إن هذا الصرصر المعلق إلى الجدار ، كنت لا أريد أن يقفز فى فمى ليتحول
داخل حلقى إلى بوق أسود . ولو تظاهرت بعدم ملاحظتى له لربما دخل
فى ثقب بالحائط . ولكن كلما أشعت بصرى وقعت على التسمية الشائنة :
« الأب بارو » وكان ما يعنى أكثر هو كلمة « مغفل » ، وعلى كل ،
فأنا لم أكن أفضل أكثر من تخمين معناها ؛ ولكنى كنت أعرف جيداً

من كان يسمى ، بالأب فلان ، في عائلتي : إنهم البستانيون وسعاة البريد وأبو الخادمة وبالاختصار كبار السن من الفقراء . هل كان أحد يرى السيد بارو ، المعلم ، زميل جدي على هيئة عجوز فقير ؟ في مكان ما ، في رأسى ، كانت تجول هذه الفكرة المريضة المجرمة . في أى رأس ؟ ربما في رأسى . ألا يكفي أن يقرأ المرء الكتابة التجديفية ليكون شريكا في الدنس ؟ لقد بدا لي في وقت معا أن مجنوننا قاسيا كان يسخر من أدبي ومن احترامى ومن حماستى ، من السرور الذى كان يدخل نفسى كل صباح وأنا أرفع قبعتى وأقول : صباح الخير يا أستاذ ، وأنى كنت هذا المجنون وأن الكلمات والأفكار البذيئة تملأ قلبى . ما الذى يعنى مثلاً أن أصرخ بملء صوتى : « إن هذا القرد العجوز تفوح رائحته كالحزير » . وتمت : « الأب بارو تفوح رائحته ، وأخذ كل شيء يدور من حولى : وهربت باكياً . ومنذ اليوم التالى وجدت احترامى للسيد بارو من جديد ، لياقته السيولوجية ولعقدة رباط عنقه التى على شكل فراشة . ولكن حين كان ينحن على كراسى ، كنت أدير رأسى وأحبس نفسى .

وفي الحزيف التالى ، قرأت أى أمى على إدخالى مؤسسة بوبون . وكان على أن أصعد سلماً خشبياً وأن أدخل قاعة بالطابق الأول ؛ وكان الأطفال يتجمعون في نصف دائرة صامتين : والأمهات تراقبن المعلم وقد جلسن مستقيمات في آخر القاعة وظهورهن إلى الخائط . وكان أول واجبات الفتيات المسكينات اللواتي كن بملتنا هو أن يوزعن بالعدل والقسطاس كلمات المديح والدرجات التشجيعية لمجتمعا الذى يتألف من عجائب الزمان . وإذا صدر من إحداهن حركة ثم عن الملل وأظهرت أنها راضية كل الرضى عن إجابة صحيحة ، فقدت آنسات بوبون بعض التلاميذ وتفقد

صاحبتنا بالتالى مكانها . كنا ثلاثين أكاديميا تماما ولم يكن لدينا أى وقت
كى نخطب بعضنا بعضاً . وعند الخروج كانت كل أم تستولى على ولدها
بنف وتولى به دون سلام . وفي نهاية نصف العام أخرجتني أى من المدرسة :
إن العمل فيها كان قليلا ثم إن الأمر قد انتهى بها إلى السأم لشغورها بأن
جاراتها كن يلتهمنها بنظراتهن عندما يحل دورى لتلقى عبارات التهئة .
وقبلت الآنسة مارى لويز — وهى فتاة شقراء ، تضع نظارة على عينيها
وتعلم ثمانى ساعات فى اليوم فى مدرسة بوبون بأجر لا يكاد يقيم أودها ،
قبلت أن تعطىنى دروسا خاصة فى المنزل دون علم المديرات . وكانت تقطع
أحيانا تمرينات الاملاء لتخفف عن قلبها بتنهدات عميقة : وتقول لى أنها تمبة حتى
الموت وأنها تعيش فى وحدة قاتلة وأنها تعطى كل شىء فى سبيل الحصول
على زوج ، أى زوج . وانتهى بها الأمر هى الأخرى إلى الاختفاء : فقد
ادعوا أنها لم تعلمنى شيئا ، ولكن أعتقد على الخصوص أن جدى كان يجدها
شؤما . إن هذا الرجل العادل لم يكن يرفض التخفيف عن البؤساء ولكنه
كان يكره دعوتهم تحت سقف بيته . لقد حان الوقت : إن الآنسة مارى
لويز كانت تثبط غزيمتى . وكنت أعتقد أن الأجور تتناسب مع الاستحقاق
وكانوا يقولون لى إنها مستحقة : فلم يدفعون لها هذا الأجر المزرى ؟
وعندما يمارس المرء مهنة ، فإنه يكون جديراً وغوراً بها وسعيداً بالعمل :
وبما أن الحظ أسعدها بالعمل ثمانى ساعات فى اليوم ، فلم تتحدث عن حياتها
كأنها مرض مستعص ؟ وحين كنت أثقل شكواها كان جدى يأخذ فى
الضحك : إنها دميمة إلى الحد الذى لا يمكن لرجل أن يقبلها . وكنت
لا أضحك : فقد يولد المرء محكوما عليه ؟ وفى هذه الحالة يكونون قد كذبوا

على : إن نظام العالم يخفى فوزى لا تحتمل . وزال قلبنى بمجرد إزاحتها .
 فقد وجد لى شارل شفايتزر معلمين أليق . لقد كانوا أليق إلى حد جعلنى
 أنسابهم جميعا . وظللت وحيدا بين رجل عجوز وامرأتين حتى العاشرة
 من عمرى .

إن حقيقى وخلقى واسمى كانت فى أيدى الكبار ؛ فقد تعلمت أن
 أرى نفسى بعيونهم ؛ كنت طفلا ، هذا المسخ الذى يصنعونه بتأسفاتهم ، فإذا
 غابوا تركوا خلفهم نظرتهم المزوجة بالضوء ؛ كنت أجرى وأفقر خلال
 هذه النظرة التى كانت تحفظ لى طبيعة الحفيد النموذجى والتى كانت
 تستمر فى إهدائى لعبى والكون . فى مقمى الجميل ، فى روحى ، كانت
 أفكارى تدور ، كان كل واحد يستطيع أن يتابع حيلها : فلا يوجد فيها
 ركن مظلم واحد . ومع ذلك ، فلا كلمات ولا شكل ولا ثبات ؛ كان يقين
 شفاف ممزوج فى هذه الشفافية البريئة ، يفسد كل شيء : كنت دجالا .
 فكيف أرائى دون أن أعلم ؟ إن الظواهر الواضحة المشبعة المكونة
 لشخصيتى كانت تعلن عن نفسها بنفسها : بذلك العيب الذى يجعلنى لا أستطيع
 أن أفهم تماما ولا أن أكف عن الشعور . كنت التفت إلى الأشخاص
 الكبار وكنت أطلب منهم أن يكفلوا فىناثلى : كان ذلك إمعانا منى فى
 الدجل . ولما كان محكوما على بأن أرضى الناس ، فقد كنت أعطى نفسى
 ملاحظة كانت تذبل فى الحال ؛ كنت أجر سذاجتى الزائفة فى كل مكان
 وأهميتى الفارغة مترقبا فرصة جديدة : كنت أعتقد أننى أمسكتها وألقى
 بنفسى فى وضع فأجد فيه الميوعة التى كنت أريد الهرب منها . كان جدى
 يغفو وقد التفت بحرامه ، وكنت ألح تحت شاربته الأشعث عرية شفتيه

الوردتين ، كان ذلك غير محتمل : ولحسن الحظ كانت نظاراته تنزلق .
وكنت أسرع لالتقاطها . وكان يستيقظ ويرفعني بذراعيه ويقوم بتمثيل
دور الحب الكبير : ولم يعد ذلك ما كنت أريد . وما الذى كنت أريده ؟
كنت أنسى كل شيء ، كنت أبني غنى فى أعشاب لحية الكثة . كنت
أدخل المطبخ وأعلن أنى أريد هز السلطة ، وكانت صيحات وضحكات عالية :
« لا يا حبيبي ، ليس كذلك ! أمسك بيدك الصغيرة بشدة : هكذا ! ساعديه
يا مارى ! إنه رائع ، . كنت طفلاً مزوراً ، وكنت أمسك بسلة سلطة
مزورة ، وكنت أشعر بأن أعمالى تتحول إلى حركات . وكانت المهزلة تخفى
عنى العالم والناس : كنت لا أرى إلا أدواراً ومعدات ، ولما كنت أخمد
عن هزل مشروعات الكبار فكيف آخذ همومهم على محمل الجد ؟ كنت
أقبل مقاصدهم بتحمس عفيف كان يمنعنى من مشاطرتهم نتائجها . ولما كنت
غريباً عن حاجات النوع وآماله وأفراحه رأيتنى أبدد نقسى يروء لأغريبه ؟
وكان النوع جمهورى إن خطاً من النار يفصلنى عنه ويلقى بى إلى منفى
متكبر كان لا يلبث أن يتحول إلى قلق .

والأدهى أنى كنت أنهم الكبار بأنهم يمثلون . إن الكلمات التى
يوجهونها لى كانت هى الحلوى ؟ ولكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة
مختلفة تمام الاختلاف . ثم كان يحدث أن يحطموا عقوداً مقدسة : وكنت
أعط شفى أجمل ما يمكن ، بالطريقة التى كنت واثقاً منها أشد ما يمكن
وكانوا يقولون لى بصوت حقيقى : « إلب بعيداً ، يا صغير ، إنا نكلم .. »
وأحياناً أخرى كنت أشعر بأنهم يستخدمونى . وكانت أمى تصحبنى إلى
حديقة الأوكسبورج ، وكان خالى اميل ذو العلاقات السيئة بالمائلة يظهر

خجأة، وينظر إلى أخته نظرة حزينة ويقول لها بحفاة: «إني لست هنا من أجلك: بل كي أرى الصغير». وكان يقول حينئذ أنني البريء الوحيد في العائلة، الوحيد الذي لم يهنه قط عن قصد ولم يدنه بناء على وشايات فاسدة. وكنت ابتسم متضايقا من قدرتي ومن الحب الذي أشعلته في قلب هذا الرجل الكئيب. ولكن لا يلبث الأخ والأخت أن يتناقشا في شؤونهما ويعددا شكواهما للتبادلة؛ وكان اميل يتحدث على شارل، وكانت آن ماري تدافع عنه مع بعض التسليم، وكانا ينتقلان في حديثهما إلى لويز، وكنت أمكث بين كرسيهما منسيا. ومستعدا لأن أقبل - لو كنت فقط في السن الذي يسمح لي بفهمها - كل مبادئ اليمين التي يعلمها لي يسلكه رجل عجوز من اليسار وهي: أن الحقيقة والحرافة شيء واحد وأنه يجب أن تمثل الهوى للشعر به وأن الإنسان كائن مظهرى. لقد أقنعوني بأننا خلقنا لكي نمثل على أنفسنا، إنني أقبل التمثيل ولكن أطالب بأن أكون الشخصية الرئيسية: ولكن في لحظات سريعة كانت تتركني عظما كنت ألاحظ أنني أمثل «دورا جيلا زائفا»، بنص، وبتعبير كثير، ولكن بدون مسرح «لي»؛ وبالاختصار كان دورى في الجوار صغيرا بالنسبة للأشخاص الكبار. وكان شارل يطربني ليهدي موته؛ وفي ثرقي كانت لويز تجد تبريرا لظهور استيائها، وكانت آن ماري تجد تبريرا لخضوعها. ومع ذلك، فلولاى لقام أهل أمى بايوائها ولأبسلتها رقتها لأمى بلا حماية، وبدونى لأظهرت لويز استياءها، ولأبدى شارل إعجابه بجبل سرفان^(١) أو باليازك أو بأولاد الآخرين. وكنت السبب

(١) أحد جبال الألب.

المرضى لاختلافاتهم ولمصالحاتهم ، إن الأسباب العميقة كانت في مكان آخر في ما كون وجنسباخ وتيفيه ، في قلب عبوز موحل ، في ماض يعود إلى قبل مولدى بوقت طويل . كنت أعكس لهم وحدة العائلة ومتناقضاتها القديمة ؛ وكانوا يستخدمون طفولتى البريئة كي يصبحوا ما كانوا . وعشت في القلق : في الوقت الذى كانت احتفالاتهم تقنعني بأن لا شيء يوجد بدون سبب وأن لكل إنسان ، من الأكبر إلى الأصغر مكانه المعلوم في الكون ، أما سبب وجودى أنا فإنه كان يتوارى ، لقد اكتشفت فجأة أنني أساوى الزبدة وأنتى خجل من وجودى غير العادى في هذا العالم المنظم .

لو كان لى أب لأتقلنى ببعض إصراره الدائم ، وبصنعه مبادئى من أمزجته ومعرفتى من جهله وكبريائى من حقه وقانونى من هوسه ، ولاحتل نفسى وأعطانى هذا المستأجر احترامى لنفسى . ولأست على الاحترام حقى في الحياة . ولقرر من وهبى الحياة مستقبلى : ولو كنت مهندسا بالولادة لنعمت بالامدى الحياة . ولكن لو فرض وعرف جان ياتيس سارتر مصيرى لحمل سره معه ، إن أمى تذكر فقط أنه قال : « إن ابنى لن يدخل البحرية . » ولعدم وجود معلومات أدق ، لم يكن أحد يعرف ابتداء منى ما الذى جثت أفعله على الأرض . لو كان ترك لى مالا لتغيرت طفولتى ، لما كنت كتبت ، لأننى كنت سأصبح إنسانا آخر . إن الحقول والنزل تعكس للوارث الشاب صورة ثابتة لنفسه ، إنه يلس نفسه على حصائه وعلى زجاج شرفته ذى الشكل المعين ويعمل من سكونهما الجوهر الخالد لنفسه . فئذ بضعة أيام سمعت وأنا في المطعم ابن صاحبه ، وهو طفل في السابعة من عمره ، يصيح في أمانة الحزينة : « حين لا يكون

والدى هنا أكون أنا السيد . هـ هاك رجلا ! فعندما كنت فى سنه لم أكن سيد أحد ولم أكن أملك شيئا . فى دقائق طيشى النادرة كانت أمى تهمس لى : انتبه ! إننا لسنا فى منزلنا . ولم نكن قط فى منزلنا : لا فى شارع و لوجوف ، ولا بعد ذلك ، حين تزوجت أمى للمرة الثانية . ولم أتألم لذلك ، لأنهم كانوا يعيرونى كل شىء ، ولكننى ظلمت مجرداً . إن أموال هذا العالم تمكس للمالك ماهيته ، وكانت تعلمنى ما لم أكنه : لم أكن ثابتا ولا مستديما ، لم أكن ذلك الذى يستمر فى عمل والده ، لم أكن ضروريا لإنتاج الصلب : واختصارا لم تكن لى نفس .

لو أننى عشت فى وفاق مع جسمى لكان ذلك عظيما . ولكننى كنت أولف معه زوجا غريبا . ففى البؤس لا يسأل الطفل نفسه : إن حالته التى ابتليت جسمانيا بالحاجات والأمراض ، هذه الحاجة التى لا مبرر لها تبرر وجوده ، إنها الجوع ، إنها خطر الموت الدائم اللذان يؤسسان حقه فى الحياة : إنه يعيش كي لا يموت . أما أنا ، فلم أكن غنيا بما فيه الكفاية لاعتقد أننى موعود ولا فقيرا بما فيه الكفاية لأشعر بهنواتى كأنها احتياجات . كنت أودى واجباتى الغذائية وكان الله يرسل لى فى بعض الأحيان — نادرا — هذه النعمة التى تسمح بالأكل دون تفزز — الشهية . وكنت أنتفس وأهضم وأخرج بلا مبالاة ، وأعيش لأننى بدأت الحياة . وكنت أجهل عنف مطالب جسدى التوحشة : كان يعرف نفسه بسلسلة من الاضطرابات الخفيفة التى تسترعى كثيرا اهتمام الكبار . ففى ذلك المصر كان يتعم أن يكون فى العائلة الكريمة طفل واحد على الأقل . ضعيف الصحة . وكنت ذلك الطفل ، فقد فكرت فى الموت عند مولدى .

« كانوا يراقبونني ويقيسون نبضي وحرارتي، ويضطرونني إلى اخراج لساني :
 « ألا ترى أنه شاحب بعض الشيء ؟ » « إنه الضوء : » « أوكد لك أنه
 تحل ! » « ولكتنا وزناه أمس يا والدي . » كنت أشعر ، وأنا تحت
 النظرات الفاحصة ، بأنني أصبحت شيئا ، أصبحت زهرة في أبيض . وكان
 ينتهي الأمر بوضعي في السرير . وكنت أحتقن من الحرارة وأحترق
 تحت الأغطية فأخط بين جسми واضطرابه : فلا أعود أعرف أيهما غير
 المرغوب فيه .

كان السيد سيمونو مساعد جدي يتناول الغداء معنا يوم الخميس .
 وكنت أحد هذا الخميسني بخديه اللتين تشبهان خدود البنات الذي كان
 يلعب شاربه ويصنع شعره : وحين كانت آن ماري تسأله ، لتطيل الحديث
 إن كان يحب باخ ويعجبه البحر والجبل ، وإن كان يحتفظ بذكرى طيبة
 عن مسقط رأسه ، كان يفكر طويلا ويوجه نظره الداخلية إلى كتلة
 حيوله الجرانيتية . وحين كان يحصل على البيان المطلوب كان ينهي إلى أمي
 بصوت موضوعي وهو يحكي برأسه . ياله من رجل سعيد ! لقد تصورته
 يستيقظ كل صباح في حبور ويحصى ، من إحدى النقاط العالية ، أحرفه
 وقمعه وودياته ثم يتعاطأ بتلذذ وهو يقول : « هذا هو أنا حقا : أنا
 السيد سيمونو كله . » بيد أنني كنت قادرا تماما ، حين كنت أسأل ،
 على الإدلاء بما أفضله من أشياء بل وتأكده ، ولكن ، في الوحدة ،
 كنت أنساها : ولما كنت بعيدا عن التثبيت منها ، فقد كان لا بد من أن
 أمسكها وأن أدفعها وأن أثق فيها الحياة ؛ حتى إنني لم أكن متأكدا
 بعد إن كنت أفضل لحم ظهر الثور على لحم العجل المشوي . كم كنت على

استعداد لأن أعطى ليضعوا في داخلي منظرا طبيعيا مضطربا ، وعزمات عبيدة حادة كمقاطع الجبال . وعندما كانت السيدة يكار تقول عن جدى مستخدمة بذوق صائب مفردات اللغة المعمول بها آنذ : « إن شارل لكائن جذاب ، ، أو « إننا لا نعرف الكائنات ، كنت أشعر بإدانتى دون تقص . إن حصى حديقة اللوكسمبورج والسيد سيمونو وأشجار الكستناء وكارليمى هم كائنات . أما أنا فلا . فلم يكن لدى لا الجمود ولا العمق ولا الناعة . وكنت لا شيء : شفافية لا تمنحى . ولم يعد لغيرتى حدود يوم علمت أن السيد سيمونو ، هذا التمثال ، هذه الكتلة الحجرية الواحدة ، كان فوق ذلك ضروريا للكون .

كان هناك عيد . وفي معهد اللغات الحية ، كان الجمع يصفقون تحت اللهب المتحرك لمصباح أور^(١) الغازى . وكانت أمى تعزف موسيقى ثوبان والجميع يتجدثون بالفرنسية بناء على أمر جدى . فرنسية بطيئة ، حلقة وبطلاوة ذابلة وبأبهة لحن موسيقى دينى حزين . وكنت أظير من يد إلى يد دون أن ألمس الأرض ، وأختنق على صدر روائية ألمانية حين أسقط جدى من عليائه حكما أثر فى . « ينقصنا شخص هنا . إنه سيمونو » . لقد أفلتت من بين ذراعى الروائية والتجأت إلى ركن ، واختفى المدعوون . وفى وسط حلقة مضطربة رأيت عمودا . إنه السيد سيمونو بذاته ، وقد غاب بلحمه وعظمه . إن هذا الغياب العجيب غير هيئته . وكان عدد المتألمين كبيرا ليكمل عدد من فى المعهد . وكان بعض التلاميذ مرضى ، واعتذر

(١) اسم مخترع هذا النوع من الاضاءة وهو كيميائى نمساوى (المترجم)

آخرون ؛ ولكن الأمر هنا لا يتعلق إلا بأحداث عارضة يمكن التغاضي عنها . إن السيد سيمونو هو وحده الغائب . إن مجرد لفظ اسمه كان كاف لينغرس الفراغ كسكين في هذه القاعة الغاصة بالناس . لقد تعجبت من أن يوضع لإنسان مكان . ومكانه هو العدم الذي حفره الانتظار العام ، بطن لا مرئية يبدو فجأة أنه يمكن الولادة منها من جديد . ومع ذلك ، لو أنه خرج من الأرض ، وسط الهتافات ، لو أن النساء ألقين بأنفسهن على يده ليقبلنها ، لأقت من سكرتي : إن الوجود الجسدى زائد على الدوام . ولما كان بكرا تحول إلى طهارة جوهر سلبى فإنه كان يحتفظ بشفافة الماس التى لا يمكن اعتصارها . ولما كان من نصيبى أنا أن أكون فى كل لحظة موجودا بين بعض الأشخاص ، فى مكان ما من الأرض وأن أعرف أننى زائد عليها ، أردت أن أشعر سائر الناس فى كل الأمكنة الأخرى بحاجتهم إلى مثل حاجتهم إلى الماء والحبز والهواء .

إن هذه الأمنية عادت كل يوم على شففى . كان شارل شفاييزر يضع الضرورة فى كل مكان ليغضى حزنا لم أتبينه قط ، طالما كان على قيد الحياة وقد بدأت الآن أن أحده . وكان كل زملائه يحملون السماء . وكان فى عداد أطالسه^(١) النحويون وقهاء اللغة وعلماء اللسان والسيد ليون كاين ومدير « المجلة التربوية » . وكان يتحدث عنهم بوقار ليحثنا على تقدير أهميتهم « إن ليون كاين يعرف مادته . إن مكانه فى المهد » ، أو كذلك « إن الشيخوخة تزحف على شورر ؛ أمل ألا يقتروا حماقة إحالته على المعاش :

(١) اله لاغريقى حكم عليه الاله زوس بأن يحمل على كتيه قبة السماء (المترجم)

إن الكلية لا تعرف ماسوف تفقد. ، ولما كنت محاطا بشيوخ لا يمكن لأحد أن يحمل علمهم ولما كانت وفاتهم القرية ستعمر أوروبا حزنا وربما أردتها في البربرية ، كم كنت أعطى لأسمع صوتا أسطوريا يحمل حكما إلى قلبي :
 « إن هذا السارتر الصغير يعرف مادته ، لو توفي ، فإن فرنسا لن تعرف ما تفقد ! ، إن الطفولة البورجوازية تعيش في أزلية اللحظة ، أى في الجمود :
 كنت أريد أن أكون أطلس في الحال ، وعلى الدوام ومنذ القدم ، وكنت كذلك لا أفهم أن فى استطاعة المرء أن يعمل ليصبح أطلسا ؛ وكان لابد لى من محكمة عليا ، من مرسوم يعيد إلى حقوق . ولكن أين القضاة ؟
 إن قضائى الطبيعيين فقدوا اعتبارهم بمثيلهم الرديء ، لقد رددتهم ، ولكنى لا أجد غيرهم .

ولما كنت حشرة طفيلية مشدوهة ، بلا إيمان وبلا قانون وبلا عقل ولا مصير ، كنت أهرب إلى المهزلة الماثلية دأبرا ، جاريا وطائرا من خدعة إلى خدعة . وكنت أهرب من جسمى الذى لا مبرر له ومن نجواه الضعيفة ؛
 وكأنحلة التى تصطدم بعقبة فتتوقف ، فإن الممثل الصغير الشارد كان يسقط فى الدهول الحيوانى . وقالت بعض الصديقات الطيبات لأمى أننى حزين وأنهن فاجأتنى وأنا أحلم ، فضمتنى أمى إليها وهى تضحك وقالت لى :
 « أنت المرح الذى تغنى دائما ! من تشكو ؟ فليدك كل ما تريد . ، وكانت على حق : فالطفل المدلل لا يكون حزيناً ، إنه يضجر كالملك . كالكلب .

أنا كلب : إنى أتناهب ، والدموع تسيل ، إنى أشعر بها وهى تسيل .
 أنا شجرة ، الريح تتعلق بأغصانى وتهزها بعموض . أنا ذبابة ، أتسلق

زجاج الشباك وأندحرج وأعيد التسلق . وأحيانا أشعر بعلامسة الزمن الذى يمضى ، وأحيانا أخرى — وهى الأكثر — أشعر بأنه لا يمضى . إن دقائق مرتجة تسقط وتبتلعنى ولا تكف عن الاحتضار ، وتكنس حين تركد على الرغم من أنها لا تزال حية . وتحمل محلها دقائق أخرى أكثر جدة ولكنها فارغة مثلها ؛ إن هذه التقرزات اسمها السعادة ؛ إن أمى بعيد وتكرر على أتنى أسعد الصبية . وكيف لا أصدقها وهى تقول الحق ؟ إنى لا أفكر قط فى عزلى ، إنه لا توجد أولا كلمة لتسميتها ، ثم إنى لا أراها ؛ إنهم لا يكفون عن الاحاطة بى . إنها لحة حياتى ونسيج أفرأحى ولحم أفكارى .

لقد رأيت الموت . كان يترصدنى وأنا فى الخامسة ؛ وفى المساء كان يطوف على الشرفة ويلصق خطمه على الزجاج ، وكنت أراه ولكنى لم أكن أجرو على الكلام . وقابلناه مرة عند كى فولتير ، كانت سيدة عجوزة طويلة القامة ومجنونة ترتدى ملابس سوداء ، وهممت حين مرت بى : « هذا الطفل سوف أضعه فى جيبى . » وفى مرة أخرى اتخذ الموت شكل حفرة : كان ذلك فى أركشون ، وكان كارليمائى وأمى يزوران السيدة دوبيون وابنها جبريل المؤلف الموسيقى . كنت ألعب فى حديقة الفيلا ، خائفا لأنهم كانوا قد قالوا لى إن جبريل مريض وأنه سيموت . وقلدت الحصان ، بدون حماس ، وجلت حول المنزل . وجأة لحت حفرة ظلمات : كان القبو مفتوحا ، ولا أعرف تماما أى عزلة وهول واضحين أعشيا

بصرى . وبحركة خلف در هربت وأنا أغنى بأعلى صوتى . وفى تلك الحقة كنت على موعد معه فى سرى ، كل ليلة . وكان طقسا : وكان على أن أنام على الجهة اليسرى وأننى متجها إلى الحائط . كنت انتظر وجسمى كله يرتعش ويظهر لى ، هيكل عظمى تقليدى بمنجل ، ويأذن لى حينئذ أن أتقلب على الجهة اليمنى ، وكان يذهب وكنت أستطيع أن أنام هادئا . وفى النهار كنت أعرفه وهو متكرر بالملابس الأشد اختلافا : وإن حدث أن غنت أُمى بالفرنسية « ملك الأولن » ، كنت أسند أذنى ، ولأنتى قرأت « السكير وامرأته » ، فقد مكثت ستة أشهر دون أن أفتح حكايات لافوتين . ولكن هذا الصعلوك لم يكن يبالى به ؛ إنى يحفى فى قصة ميريه « فينوس أيل » ، وينتظر أن أقرأها لينقض على . إن الجنازات والقابر لا تقلقنى ؛ وفى حوالى ذلك الوقت مرضت جدتى لأبى وماتت ، ووصلنا أنا وأُمى إلى تيفيه وقد استدعينا بريقة حين كانت لا تزال حية . وفضلوا إيمادى عن المكان الذى كان فيه هذا الوجود الطويل التمس ينتهى من التخلص من نفسه ؛ واهتم بعض الأصدقاء بى وآوونى وليشغلونى ألعاب مناسبة . ألعاب تعليمية مفعمة بحزن ممل . ولعبت وقرأت واجتهدت فى التظاهر بالتأمل المثالى ولكنى لم أشعر بشيء . وكذلك لم أشعر بشيء حين سرنا خلف العربة الجنائزية إلى القابر . إن الموت كان يلعب بغيابه : إن الوفاة ليست هى الموت ، ولم أستبجح تحول هذه المعجوز إلى بلاطة جنائزية . وكان فى هذه الوفاة تحول ووصول إلى الوجود ، وبالاختصار كان كل شيء يحدث كما لو كنت تحولت بأبهة إلى السيد سيمونو . ولهذا السبب ، أحببت دائما ، ولا زلت أحب القابر الايطالية : إن الحجر فيها حزين ، إنه إنسان .

كامل غريب ، وينقش عليه نوط يحيط بصورة شمسية تذكر بالمرحوم في حالته الأولى . وحين كنت في السابعة كنت التقي بالموت الحقيقي ، بالزميل في كل مكان ، ولكن لم ألتق به هنا قط . أى شيء كان الموت ؟ كان شخصاً وتهديداً . كان الشخص عجبونا ، أما التهديد فها هو ذا : أفواه مظلمة يمكن أن تفتح في كل مكان ، في رابعة النهار ، تحت أسطح شمس ومظلمة . وكان يوجد ظهر فظيع للأشياء ، وحين تقدم صوابنا ، كنا نراه ، إن الموت هو التطرف في الجنون والفرق فيه . لقد عشت في رعب كان مرضاً عصبياً حقيقياً . وإذا بحثت عن سببه تبين لي ما يأتى : لما كنت طفلاً مدلاً ، هبة العناية ، فإن عمق عدم فائدتي كان يشتد وضوحاً طالما يبدت لي الطقوس العائلية ذات ضرورة مصطنعة . وكنت أشعر بأنتى زائد عن الحاجة ولا بد لي أن أختفى . وكنت تفتحا تافها ، مقامة على دائماً دعوى الإلغاء . وبمعنى آخر ، كان محكوماً على ، وكان في استطاعتهم تنفيذ الحكم من لحظة إلى أخرى . ولكنى كنت أرفضه بكل قواى ، لا لأن وجودى كان عزيزاً على ، ولكن لأنتى لم أكن أحفل به : إن الحياة أكثر لا معقولة والموت أقل مكابدة .

لكن الله خفف عني الألم : ولكنى أصبحت تحفة تحمل توقيعاً ؛ ولما كنت متأكداً من أنى أملاً مكانى في المجتمع العالمى ، فقد انتظرت في صبر أن يكشف لي مقاصده وضرورتى . كنت أشعر مقدماً بالدين وكنت آمله لأنه الدواء . ولو أنهم رفضوا إعطائى إياه لقلت باختراعه بنفسى . ولكنهم لم يرفضوا : ولما كنت قد تربيت في الإيمان الكاثوليكي ، فقد تعلمت أن الكلى القدرة قد خلقنى لجده : وكان ذلك أكثر مما كنت

أجرؤ على أن أحلم به . ولكن ، بعد ذلك ، لم أتعرف في الله الذي علموني ، إياه على الذي كانت تنتظره روحي : كنت في حاجة إلى خالق فأعظوني معلما عظيما ، ولم يكن الاثنان إلا واحداً ، ولكنني كنت أجهله ؛ كنت أخدم بدون حرارة الوثن الفريسي^(١) وجعلني الدين الرسمي آتف البحث عن إيمانى الشخصى . يا للحظ ! إن الثقة والحزن جملا من روحي أرضا طيبة لبذر بذور السماء . ولولا هذه القلطة لكنت أصبحت راهبا . ولكن عائلتي كانت قد مست بحركة الإلحاد التي ظهرت في البورجوازية الفولتيرية العليا والتي استعرت قرنا لتمتد إلى كل طبقات المجتمع : ولولا هذا الضعف العام في الإيمان لراد صدوف لويز جيان ، الأنسة الكاثوليكية ، التي تعيش في الأقاليم ، عن الزواج بأحد أتباع لوثر^(٢) . وبالطبع كان جميع أفراد العائلة مؤمنين ولكن عن حذر . وبعد سبع أو ثمانى سنوات من وزارة كومب^(٣) ، كان إعلان الكفر يحتفظ بعنف وبذاءة الهوى ، وكان الكافر يعتبر شاذا ومجنونا ولا يدعى إلى العشاء خوفا من أن يتقوه بكلمة « خارجة » ، كان يعتبر متعصبا ، مثقلا بكلمات التحريم ، وهو يرفض حق الركوع في الكنائس وتزويج بناته فيها والبكاء بحرارة ، وهو يفرض على نفسه إثبات حقيقة دينه بطهارة أخلاقه ، وهو يثور على نفسه وعلى سعادته إلى حد أنه يجرد نفسه من الوسيلة التي تجعله يموت متعزيا ، إنه مهووس .

(١) عضو طائفة يهودية تتظاهر بالتمسك بقواعد الدين (المترجم)

(٢) أنتأ مارتن لوثر المذهب البروتستانتي (المترجم)

(٣) هو اميل كومب تولى رئاسة الوزارة من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ ونادى بفصل الدين عن الدولة (المترجم) .

بأنه يشاهد غيابه في كل مكان وهو لا يستطيع أن يفتح فاه دون أن يلفظ اسمه ، وبالاختصار إنه سيد لديه براهين دينية مقنعة . إن المؤمن لم تكن لديه هذه البراهين : فمذ ألفى سنة كان لدى اليقين المسيحي الوقت كي يثبت وجوده . وكان هذا اليقين ملكا للجميع ، وكان يطلب إليه أن يلمع في نظرة قسيس في ضوء الكنيسة الخافت وأن يضئ النفوس ، ولكن لا أحد كان في حاجة إلى أخذه لحسابه ، لقد كان تراثا مشتركا . إن المجتمع الصالح كان يؤمن بالله كي لا يتكلم عنه ، وكما كان الدين يبدو متسامحا وكما كان مريحا : كان في استطاعة المسيحي أن يترك القداس وأن يزوج أولاده زواجا دينيا وأن يتسم للتقوى المبالغ فيها في كنيسة سان سوليس وأن يذرف الدمع وهو يضئ إلى «النشيد الزفافي» للوهنجرين ؛ ولم يكن يطلب منه أن يحيا حياة مثالية ولا أن يموت في اليأس بل ولا أن يطلب حرق جثته . وفي يثنتا وأسرتنا ، لم يكن سوى اسم استعراضي بالنسبة للحرية الفرنسية الرقيقة ، لقد عمدوني كما عمد كثيرون غيري ، ليحافظوا على استقلالي : فبرفضهم تعميدي يخشون قسر روحي ، وتسجيلي كاثوليكيًا كنت حرا وكنت عاذيا . وكانوا يقولون : « ليفعل ما يشاء بعد ذلك . » وكانوا يرون في ذلك الوقت أن كسب الإيمان أصعب بكثير من فقدانه .

كان شارل شفايتزر ممثلا إلى الدرجة التي كان لا يحتاج عندها إلى متفرج كبير . ولكنه قلما كان يفكر في الله إلا في الأوقات الحرجة ؛ ولما كان واثقا من الإلتزام به ساعة الموت كان يعمده عن حياته . وفي الحياة الخاصة ، إخلاصا لإقليمنا الضائعين ، وللفرح الكبير لأعياد

البابوية ، إخوانه ، لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يسخر من الكاثوليكية : إن أحاديثه على المائدة كانت تشبه أحاديث لوثر . وعن لورد (١) ، لم يكن معينه ينضب : لقد رأت برناديت « امرأة طيبة كانت تغير قميصها » ؛ لقد غطسوا مشلولاً في الحوض وحين انتشلوه كان يرى بينيه الاثنين . . وكان يحكى قصة حياة القديس لابر ، القمل ، وقصة القديسة ماري ألاكوك التي كانت تلتقط براز الرضى بلسانها . لقد قدمت لى هذه الأكاذيب خدمة : وكنت أميل إلى الترفع عن خيرات هذا العالم بقدر ما كنت لا أملك منها شيئاً ولوجدت بلا تعب دعوتى فى املاق للريح ؛ إن التصوف يناسب الأشخاص المعزولين والأطفال الزائدين عددهم عن الحد : وكى ألقى بنفسى فيه ، كان يكفى أن أقدم لنفسى المسألة من طرفها الآخر ؛ وكنت أعرض نفسى لخطر الوقوع فريسة للقداسة . لقد جعلنى جدى أكرهها إلى الأبد : رأيتها بينيه ، وهذا الجنون القاسى جعلنى أقرز لفاهة اختطافات وأرهبنى باحتقاره السادى للجسد ؛ إن شذوذ القديسين قلما يعود له معنى كالانجليزى الذى غطس فى البحر وهو بلباس الاسموكنج . وكانت جدتى تتظاهر بالغضب وهى تصغى إلى هذه القصص ، وكانت تسمى زوجها « كافراً ، و بروتستانتياً ، وكانت تضربه ضربات خفيفة على أصابه ، ولكن سماحة ابتسامتها كانت لا تلبث أن تردنى إلى صوابى ؛ لم تكن تؤمن بشئ ؛ وإن شكها وحده هو الذى كان يحول بينها وبين الكفر . وكانت تحرص على عدم التدخل ؛ فقد كان « لها رها ، ولم تكن تطلب منه إلا أن يعزبها فى السر . وكانت المناقشة تستمر فى رأسى النهك : شخص غيرى ، أخى

(١) يقصد أعجوبة عذراء لورد (المترجم)

الأسود كان يعترض بفتور على كل بنود إيماني؛ كنت كاثوليكيًا وبروتستانتيا كنت أجمع بين روح النقد وروح الخضوع . وفي الواقع كل ذلك كان يقتلني : لقد انسقت إلى عدم الإيمان لا بسبب تنازع العقائد ولكن بسبب لا مبالاة جدى . ومع ذلك فكنت أومن : فبقميصي ، جاثيا على ركبتي خوف السرير ، وضاما يدي . كنت أؤدي صلاتي كل يوم ولكن تفكيرى في الله كان يتناقص . وكانت أُمى تصحبني يوم الخميس إلى معهد الأب ديبلدوس : وكنت ألتقي فيه دروساً في الدين وسط أطفال لا أعرفهم . ولقد كان مجهود جدى في هذه الناحية قويا إلى الدرجة التي جعلتني أرى القساوسة ، وكانهم حيوانات غريبة ؛ وعلى الرغم من كونهم كهنة ديانتي فقد كانوا بالنسبة لى أغرب من الرعاة البروتستانت بسبب جلبابهم وبقائهم عزابا . وكان شارل شفايتزر يحترم الأب ديبلدوس — « إنه رجل فاضل ! » — كان يعرفه شخصيا ، ولكن عداؤه للكهنة كان صارخا لدرجة جعلتني اجتاز الباب الكبير وأنا شاعر بأنى أدخل أرض الأعداء . أما أنا فإنى لم أكن أكره الكهنة : فحين يكلموننى كانوا يرسمون على وجوههم سياء المطفئ ، تلك الوجوه المدلّكة بالروحانية ، والتي يبدو عليها مظهر التلطف المدهوش . وتلك النظرة اللاهائية التي كنت أقدرها على الخصوص عند السيدة يكار . وعند غيرها من صديقات أُمى الموسيقيات ؛ وكان جدى هو الذى يكرههم خلاى . كما أنه أول من فكر بأن يعهد بى إلى صديقه الكاهن ، ولكنه كان يتفرس بقلق وجه الكاثوليكي الصغير الذى كانوا يعيدونه إليه مساء الخميس ، وكان يبحث عن تقدم البابوية ولا يحرم نفسه من التهمك على . ولكن هذا الوضع المزيف لم يستمر أكثر من ستة أشهر . وذات يوم

أعطيت العلم موضوع إنشاء باللغة الفرنسية عن الآلام ، ؛ لقد أسعد هذا الموضوع عائلتي وقامت أمي بتبسيطه بنفسها . ولكنه لم ينل سوى الميدالية الفضية . وقد أوغلت في هذه الصدمة في الكفر . وحال مرض اتابنى والمطلة الصيفية دون عودتي إلى معهد ديلدوس ؛ وعند بداية العام الدراسي طالبت بعدم العودة إلى هذا المعهد . وخلال عدة سنوات أخرى أقمت علاقات عامة مع السكلى القدرة ؛ أما في حياتي الخاصة فقد كففت عن معاشرته . واتابنى مرة واحدة شعور بأنه موجود . ولقد لعبت بأعواد الثقاب وأحرقت سجادة صغيرة ، وكنت منهمكا في إخفاء جريعتي وخفاة رآنى الله ، لقد أحسست بنظرته داخل رأسى وعلى يدي ، ودرت مراراً في الحمام ، ظاهراً بوضوح ، وكأنتى هدف حي . لقد ألهذنى الغضب : وهجت على هذا الطفل المتناهى في السهاجة ، وجذفت ، وهمت كما يفعل جدى : يا إلهى ! يا إلهى ! يا إلهى ، وكف بعد ذلك عن النظر إلى .

لقد قصصت في التو قصة رسالة لم يكتب لها النجاح : لقد كنت في حاجة إلى الله فأعطونى إياه ، وقبلته دون أن أفهم أثنى أبحت عنه . ولأنه لم يتأصل في قلبي ، فقد عاش في بعض الوقت ثم مات . واليوم حينما يحذثوننى عنه ، أقول باللهو غير الآسف لوسيم عجوز يقابل جميلة عجوز : منذ خمسين سنة لولا سوء التفاهم هذا ، ولولا هذا الاحتقار ، ولولا الحادث الذى فصلنا بعضنا عن بعض لكان فى الإمكان أن يحدث شيء بيتنا .

ولكن لم يحدث شيء . ومع ذلك فإن شؤونى كانت تزداد سوءا .

وكان جدى يتضايق من شعرى الطويل ويقول لأى : « إنه صبي وستجملين منه بنتا ؛ إني لا أريد أن يصبح حفيذى جيانا ! » وصمدت آن مارى ؛ إني أعتقد أنها كانت تفضل أن أكون بنتا بحق ؛ لكانت طفولتها الحزينة العائدة قد سعدت بامتلائها بالنعم . ولما كانت السماء لم تستجب إليها ، فقد رتبتم أمرها : سوف يكون لى جنس اللائكة ، غير محدد ولكنه مؤنث على الأطراف . ولما كانت حنونة فقد علمتنى الحنان ؛ وقامت عزلتى بالباقي . وأبعدتنى عن الألعاب العنيفة . وذات يوم — وكنت فى السابعة — لم يستطع جدى الصبر : فقد أخذنى من يدي معلناً أنه ذاهب بى إلى نزهة .. ولكن ما أن وصلنا إلى ناصية الشارع واستدرونا حتى دفعنى إلى الحلاق وهو يقول لى : « سوف تقاجىء أمك » . وكنت أعشق المفاجآت .. وكانت كثيرة عندنا . كتمان للسربغرض اللهور أو عن فضيلة ، وهدايا غير متوقعة ، وكشف سر مسرحى يتيحه عناق : كانت هذه وتيرة حياتنا . وحين استأصلوا لى الأعور لم تقل أى شيئاً لكامل لتكفيه مؤونة القلق الذى لم يكن يشعر به على أى حال . لقد أعطى خالى أوجست المال ، وعدنا خفية من أركاشيون وأختبأنا فى إحدى المستشفيات الخاصة فى كورنفوا . وبعد غداة العملية ، جاء أوجست لزيارة جدى وقال له : « سأعلن لك خبراً ساراً » . وخدع كامل برسمية هذا الصوت الباش . « هل تزوج ثانية ! » فأجاب خالى وهو يتسم : « لا ، ولكن كل شئ سار على مايرام . » « ماذا تقصد بكل شئ ؟ » الخ .. الخ . وبالاختصار فإن المفاجآت المسرحية كانت صلاتى اليومية الصغرى ونظرت بحسن التفات إلى شعرى المجدد وهو يتدحرج على طول القوطة البيضاء التى كانت تضغط على رقبتي .

ويسقط على الأرضية الخشب وقد أغبر صون سبب ؛ وعدت خوراً
ومجزوا .

وحدث صراخ ولكن لم يحدث عناق وأغلقت أى باب غرفتها عليها
لتبكي : لقد استبدلوا بنتها الصغيرة بصبي صغير . وحدث ما هو أنكى :
فطالما كان شعري الجميد يتطاير حول أذنى فإن ذلك كان يسمح لها بأن
ترفض جلاء دماق . وها هي ذى عيني التي تدخل في الفسق . وكان
لا بد لها أن تمر لنفسها بالحقيقة . ويبدو على جدى نفسه أنه حائر تمام
الحيرة ؛ لقد عهدوا إليه بأعجوبته الصغيرة ، فردها ضفدا : إن ذلك
يعنى اجتثاث دهشاته المستقبلية من جذورها . ونظرت إليه جدتى
بسخرية ، وقالت فقط : « إن كارل ليس خوراً ؛ إنه خجلان . »

وتكرمت آن مارى فأخفت عني سبب حزنها . ولم أعرف هذا
السبب إلى حين بلغت الثانية عشرة من عمري ، وبمنف . ولكنى كنت
أشعر بضيق وأنا في جلدى . فأصدقاء عائلتي كانوا يلقون على نظرات قلقة
أو حيرة كنت كثيراً ما ألحها فجأة . أن جمهورى كان يزداد تعصبا يوما
عن يوم ؛ وكان لا بد أن أبذل نفسي ، لقد غاليت في التأثير فأسأت
التثيل . وعرفت أهوال المثلة التي بدأت تشيخ : وعلمت أن غيرى
يستطيع أن يرضى . انى احتفظ بذكرين حدثا بعد ذلك بقليل ولكنها
جليتان .

كنت في التاسعة من عمري ، وكانت السماء تعطر ، وفي فندق
نواريتابل ، كنا عشرة أطفال ، عشر قطط في كيس واحد ؛ وقبل جدى

ليلينا أن يكتب ويخرج تمثيلية وطنية بعشر شخصيات . ولقب برنارد ،
 أكبر الجماعة ، دور الأب ستروتوف ، محسن فقط . وكنت أتراسيا شابا :
 وكان والدى قد اختار فرنسا وعبرت الحدود سرا لألحق به . وقد أعدت
 لى إجابات شجاعة : ومددت ذراعى الجنى وأخيت رأسى وهمست خفيا
 خدى الجبرى فى تجويف كفتى : « وداعا ، وداعا يا أتراسا العزيزة » .
 وفى المراجعات كانوا يقولون إنى كنت ظريفا جدا ؛ الشيء الذى لم يدهشنى .
 وتم العرض فى الحديقة ؛ وكان يحد المسرح مجموعة من شجيرات السياجات
 وجدار الفندق ، وأجلس الآباء والأمهات على كراسى خيزران . وكان
 الأطفال يلهون كالجنانين فيما عداى . ولما كنت مقتنعا بأن مصير التمثيلية
 فى يدى ، فقد اجتهدت فى أن أرضى ، تقانيا للفضية المشتركة ، وكنت أعتقد
 أن الميون كلها مثبتة على . ولقد بالغت ، وحاز برنارد رضى الحضور لأنه
 كان أفل تصنعا منى . هل فهمت ذلك ؟ وفى آخر العرض أخذ يجمع المديح :
 وتسللت خلفه وشدت لحيتى التى ظلت فى يدى . وكان ذلك مزاحا بين
 كواكب للاضحاك فقط ؛ وكنت أشعر بنفسى أنى غاية فى الظرف وأخذت
 أفقر بقدم على الأخرى ملوحا بغنيمتى . ولم يضحك أحد . وأخذتنى أمى
 من يدى وأبعدتنى بشدة : « سألتنى حزينة : « ما الذى دهاك ؟ هل اللحية
 جميلة إلى هذا الحد ! لقد تعجب الجميع من هذه الرعونة . » ولحقت بنا
 جدتى ومعهما آخر الأخبار : لقد عزته أم برنارد إلى الغيرة . « أترى
 ما ربحت من إظهار نفسك ! » وهربت ، وجريت إلى غرفتنا ، ووقفت
 أمام الحزانة ذات المرآة وأخذت ألعب وجهى طويلا .

وكان من رأى السيدة يكار أن الطفل يستطيع أن يقرأ كل شيء . :

« إن الكتاب لا يضر قط حين يكون مكتوباً جيداً .. وكنت في حضورها قد طلبت فيها مضي الاذن بقراءة « مدام بوفارى » ، وقالت أُمى بصوتها الموسيقى الزائد « لو أن ابني العزيز قرأ هذا النوع من الكتب في هذه السن فما الذى يفعله عندما يكبر ؟ » — « سوف أعيشه ! » ، وعرفت هذه الإجابة أصرح نجاح وأطوله ، وكانت السيدة يكار تشير إليها كلما جاءت لزيارتنا ، وكانت أُمى تصيح مؤنة معجبة : « بلانش ! أرجو أن تسكتى ، سوف تقسدينه ! » كنت أحب وأكره هذه المرأة العجوز الكالحة السمينة خير جمهورى ؟ وحين كنت أخبر بمقدمها ، كنت أشعر بمقبرتى ، وأتخيل أنها فقدت جودلتها وأنى أرى ردفها ، وهى طريقة تقديم الاحترام لروحانياتها . وفى نوفمبر ١٩١٥ أهدتنى كتيبا من الجلد الأحمر ، مذهب الحوافى . وكنا جالسين فى مكتب جدى أثناء غيابه ، وكانت النساء يتكلمن بحجرات ولكن بصوت أخفض مما كان فى سنة ١٩١٤ ، وذلك بسبب الحرب إن ضابا قدرا أصفر يلتصق بالنوافذ ، وكانت تنبث رائحة الطباخ البارد . وفتحت الدفتر الصغير ، وخاب ظنى أولا : فقد كنت انتظر رواية أو قصصا ، وقرأت عشرين مرة على وريقات متعددة الألوان مجموعة من الأسئلة . وقالت لى « املاى إحدى هذه الوريقات واجمل أصدقاءك الصغار يملاؤن الأخباريات ، فتعد لنفسك ذكريات حلوة » . وفهمت أنه يعرض على فرصة أن أكون مدهشا . وصمدت على الإجابة فى الحال ، وجلست إلى مكتب جدى ووضعت الدفتر فوق ورقة نشاف وأخذت مقبض ريشته المصنوع من الباعة وغمستها فى زجاجة الحبر الأحمر ، وأخذت أكتب ، فى حين كان الكبار يتبادلون نظرات إعجاب . وبقفزة ، طرت أعلى من

روحي لأصطاد . الإجابات التي هي أكبر من سني . . ولكن مجموعة الأسئلة لم تكن تساعد على ذلك مع الأسف . كانوا يسألونني عما أحب وأكره . وعن اللون الذي أفضله وعطري المفضل ؟ كنت أخترع بلا حماس أشياء مفضلة ، حين حانت فرصة ظهور : « ما هي أغلى أميانتك ؟ » وأجبت دون تردد : « أن أكون جنديا وأن أثأّر للعوني . » ولما كنت منفعلا أكثر مما يجب لأستطيع أن استمر في الإجابة فقد قفزت إلى الأرض وحملت عملي إلى الكبار . وشحذت الأنظار ، وأحكمت السيدة ييكار وضع نظارتها وانحنيت أُمي على كتفها ؛ ومطت كلتاها شفتيها بنجث ، وارتفع الرأسان معا ، وتوردت وجتا أُمي ، وأعادت السيدة ييكار الكتاب إلى : « أتعلم يا صديقي الصغير ، إن ذلك لا يكون جديرا بالاهتمام إلا إذا كان الإنسان صادقا ؟ » واعتقدت أنني أموت . إن خطائي ظاهر للعيان ، وكانوا يطالبون بالطفل المعجزة فكنت الطفل السامي . ولسوء حظي لم يكن لهؤلاء السيدات أحد في جبهة القتال : فقذا السمو العسكري بلا أثر على أرواحهن المعتدلة . واختفيت وذهبت ألعب وجهي أمام مرآة . وعندما أتذكر هذه التلميحات ، اليوم ، أفهم أنها كانت تكفل حمايتي من انطلاقات السجل الشديدة ، إذ كنت أدافع عن نفسي بحصار عضلي فكما أنها ترفع تعاسقي إلى أقصى حددها — فإنها كانت تخلصني منها . كنت أندفع إلى الانضاع لابتقادي المهانة ، وكنت أخلع عن نفسي وسائل الفوز بإعجاب الناس لأنسى أنني كنت أملكها وأنني أسأت استخدامها ، وكانت المرأة عوننا كبيرا إلى : وكنت أكلفها بأن تخبرني يشاعني ، فإن توصلت إلى ذلك كان ندمي المرير يتحول إلى شفقة . ولكن ، على الأخص ، لما كان الفشل قد كشف

لى عن دناءتى ، كنت أبشع نفسى لأجعلها غير مستطاعة ، ولأنكر الناس وينكرونى . إن مهزلة الشر كانت تمثل ضد مهزلة الخير ، إن الياسان يأخذ دور كوازيمودو^(١) . وبواسطة لى ملاهى وتغنيها كنت أحلل وجهى ، أسكب عليه الجفص الكاوى لأمسح ابتساماتى القديمة .

لقد كان الدواء أسوأ من الداء : ففى المجد والعار ، حاولت أن ألتجأ إلى حقيقى المنزلة ، ولكن لم تكن لدى حقيقة ، ولم أجد عندى غير خامة غفل تحركها الدهشة . وتحت عيني كنت أرى السمكة الهلامية بجدران الحوض الزجاجى ، تصطدم برخاوة طوقها وتتمزق فى الظلمات .. وهبط الليل ، وذابت سحب من الخبر فى المرأة دافئة تجسدى التهاى . ولا كنت محروما مما يثبت براءتى ، كنت أنهارك على نفسى . وفى الظلام كنت أنجيل ترددا غير محدد ، خشخشة ، نبض ، حيوانا حيا بأكله — أكثر الحيوانات إرعايا ؛ والحيوان الوحيد الذى لا أستطيع أن أخافه . لقد هربت وذهبت لأستعيد فى الضوء دورى ، دور الملاك الذى أزيل بهائوه . عبثا . لقد علمتقى المرأة ما كنت أعرفه دائما : كنت طبيعيا إلى أبعد حد . ولم أبرأ من ذلك أبدا .

لما كنت معبوداً من الجميع ، مرفوضاً من كل واحد منهم ، فقد كنت نافلة ولم يكن لى من معين وأنا فى السابعة سواى الذى لم يكن موجوداً بعده .

(١) إحدى شخصيات رواية « أحذب نوتردام » للاديب الفرنسى فكتور هوجو . كان كوازيمودو يبنى أجراس كنيسته نوتردام . وكان على الرغم من بشاعته ذو أحاسيس سامية (المترجم) .

قصر من مرايا مهجور ، كان القرن الجديد ينظر خلالها إلى جفنه . لقد ولدت لأسد حاجي الكبيرة إلى تقسى ، ولم أكن أعرف حتى ذلك الوقت إلا غرور كلب الصالونات ، ولما كنت مدفوعا إلى الكبرياء فقد أصبحت متكبرا . ولأن أحدا من الناس لم يطالب بي جديا ، فقد وصل بي ادعائي إلى الاعتقاد بأنى ضرورى للكون . أى شيء أكثر ضخامة من ذلك ؟ وأى شيء أكثر بلاهة ؟ والحقيقة أنه لم يكن لى حرية الاختيار . ولما كنت مسافرا متسللا فقد نمت على المقعد وهزنى المفتش وهو يقول لى : « تذكرتك ! » ، وكان لا بد لى أن أعترف بأننى لا أحمل تذكرة . ولا نقودا لأدفع حالا عن الرحلة . وبدأت أترافع على أساس الاعتراف بالجريمة : « كنت نسيت فى يقي بطاقتى الشخصية . ولم أكن أتذكر كيف غابت العامل المكلف بقب التذاكر ، ولكن اعترفت بأنى دخلت العربية بالخداع . ولم اعترض على سلطة المفتش ، بل أعلنت جهارا احترامى لوظيفته وخضوعى مقدا لقراره . وعند هذا الحد الأقصى من التذلل ، لم أكن أستطيع أن أنقذ تقسى إلا بقلب الوضع : فقد أعلنت أن أسبابا هامة وسرية استدعتنى إلى ديجون ، وهذه الأسباب تمه فرنسا وربما الانسانية كلها . وإن أخذت المسائل من هذه الزاوية الجديدة ، فإنه لن يوجد شخص فى كل القطار يكون له حق شغل مكان بقدر حقى . حقا إننا بصدد قانون أعلى يخالف القاعدة ولكن ، لو أخذ المفتش على مسؤوليته قطع رحلتى ، فإنه يسبب تعقيدات خطيرة تقع نتائجها على رأسه ؛ وتوسلت إليه أن يفكر : فهل من المعقول أن نعرض النوع كله للقوضى بحجة المحافظة على النظام فى قطار ؟ هذه هى الكبرياء : مرافعة التمساء . إن المسافرين حاملى التذاكر لهم وحدهم الحق فى أن يكونوا متواضعين . لم

أكن أعرف قط إن كنت قد رجحت دعواى . فقد لا نرم الفتش الصمت ؛
وكررت عليه الشرح ، وطالما كنت أتكلم ، كنت واثقا من أنه لن
يجبرنى على النزول وجلسنا الواحد فى مواجهة الآخر ، أحدهما ضامت
والآخر لا ينضب له معين ، فى القطار الذى يحملنا إلى ديجون .
فقد كنت القطار والفتش والذنب : وكنت كذلك شخصا رابعا
وهذا الشخص — وهو النظم — لم تكن لديه إلا رغبة واحدة أن
يخدع نفسه ، ولو دقيقة ، أن ينسى أنه هو الذى أعد كل شيء . لقد
خدمتني التمثيلية العائلية : فقد كانوا يسموننى هبة من السماء ، كان ذلك
من أحوال وكنت لا أجعله ، ولما كنت متخما بالحنان ، فقد كان دمعى سهلا
وقلبى قاسيا : كنت أريد أن أصبح هدية مفيدة تبحث عن الأشخاص
الذين خصصت لهم ، لقد قدمت نقى لفرنسا وللعالم كنت لأعبأ بالناس
ولكن بما أنه لا بد من المرور بهم ، فإن دموع فرحهم سوف تعلمنى أن
الكون يستقبلنى بمرقان الجليل . وسوف يعتقدون بأننى كثير الزهو ؛ كلا
لقد كنت يتيم الأب . ولما لم أكن ابن أحد ، فقد كنت سبى نفسه ، منتهى
الكبرياء والتعاسة ، لقد ولدت بالاندفاع الذى رفعنى إلى الخير . إن التسلسل
يبدو واضحا : لما كان حنان أمى قد أثنى ، ولما كان غياب موسى الفظ
الذى خلفنى قد مسخنى ، ولما كانت عبادة جدى لى قد فتنتنى ، فقد كنت
شيئا خالصا حائرا إلى أعلى مراتب المازوكية ، لو أثنى استطعت فقط أن
أصدق التمثيلية العائلية . ولكن كلا ، إن هذه التمثيلية لم تكن تحركنى
إلا سطوحيا ، فى حين أن القاع كان يظل باردا ، بلا مبرر ؛ لقد أربعنى
هذا النظام ، وكرهت الاغماءات السعيدة ، النسيان ، هذا الجسم الذى

بولغ في تدليله والعناية به ، لقد عثرت على نفسى وأنا أعارضها وألقت
بنفسى فى الكبرياء والسادية ، أو بمعنى آخر فى الكرم . وهذا الكرم ،
كالخلل أو العنصرية ، ليس إلا بلها معصور آليشى جروحنا الداخلية
وينتهى أمره بتسمينا : وكى أهرب من عدم عون المخلوق ، فقد أعددت
نفسى لأكثر العزلات البورجوازية بعدا عن الشفاء : ألا وهى عزلة
المخالق . ولن تخلط ضربة القضيبي هذه بثورة حقيقية : فالرء يثور على
الجلاد ولم يكن لى إلا محسنون . لقد ظلت شريكه مدة طويلة .
ومع ذلك فهم الذين أسمونى هبة العناية الالهية : ولم أقم إلا باستخدام
الأدوات التى تحت تصرفى لأغراض أخرى .

كل ذلك حدث فى رأسى ، ولما كنت طفلا خياليا ، فقد دافعت عن
نفسى بالخيال . وعندما أرى حياتى ثانية ، من السادسة إلى التاسعة ، فانى
أعجب لاستمرار تمريناتى الروحية . لقد تغيرت كثيرا من حيث المحتوى
ولكن البرنامج لم يتغير ؛ كان دخولى خاطئا ، فانسجبت خلف حجاب
وبدأت ولادتى من جديد فى الوقت المعين فى الدقيسة نفسها التى كان
الكون يطلبنى فيها بصمت .

ولم تكن قصصى الأولى سوى إعادة : «العصفور الأزرق» و « القطة
ذات الحذاء » وقصص موريس بوشور . كانت تتحدث وحدها خلف
جيبى ، بين اقواس حاجبى وتجرأت بعد ذلك فجملتها وأعطيت لنفسى
دورا . لقد غيرت طبيعتها ، فلم أكن أحب الجنيات ، إذ كان حولى
الكثير منها : وخلت البطولات محل السحر . وأصبحت بطلا ؛

وتركت سمحري ؛ فلم تعد مسألة ارضاء للغير ولكن مسألة فرض نفس .
لقد تخليت عن عائلي : إن كارل مامى وآن مامى أخرجوا من تخيالاتي .
ولما كنت قد شملت أشارات وأوضاع فقد قمت بأفعال حقيقية في الحلم .
واخترعت كونا صعبا وفانيا — كون « كرى - كرى » ، « واللدش » ،
و« بول ديقوا » ^(١) ، — وفي مكان الحاجة والعمل اللذين كنت أجهلهم
وضعت الحظر . ولم أكن في يوم من الأيام أبعد من الاعتراض على النظام
القائم : ولما كنت متأكدًا من أنى أسكن خير العوالم ، فقد أعطيت نفسي
واجب تنظيفه من وحوشه ، ولما كنت شرطيا ومنفذ حكم ، فقد كنت أقدم
للتضحية كل مساء عصابة من قطاع الطرق . لم أخض قط حربا وقائية ،
ولا قتت بحملة تأديبية ؛ كنت أقتل بلا سرور ولا غضب لانتزع فتيات
من الموت . إن هذه المخالقات الضعيفة كانت ضرورية لى : كانت تطلبنى ..
يبد أنها لم يكن فى استطاعتها أن تعتمد على مساعدتى لأنها لم تكن تعرفنى ..
ولكنى كنت ألقى بها إلى مخاطر شديدة لدرجة . ألا أحد كان يمكن أن
يخرجها سوى . وحين كانت الجنود الانكشارية تلوح بسيفها المقوسة ،
كان أنين يتردد فى الصحراء وكانت الصخور تقول للرمل : « إن شخصا
ينقصنا هنا : إنه سارتر . » وفى لحظة كنت أبعد الحاجز وكنت أطير
الرؤوس تحت ضربات السيف ، كنت أولد فى بحر من دم . إنها سعادة
من الصلب ! لقد كنت فى مكانى .

كنت أولد لأموت : وكانت الطفلة بعد انقاذها ترتعى فى أحضان

(١) أسماء أبطال قصص الأطفال التى كان المؤلف يقرأها فى مجلات الأطفال وكتبهم
(المترجم)

أيها الأمير الألماني ، وكنت أبتعد ، فكان لابد أن أصبح بلا فائدة من
 جديد أو أن أبحث عن سفاحين جدد . وكنت أجدد . ولما كنت بطل
 النظام القائم ، فقد وضعت سبب وجودي في فوضى دأمة ؛ كنت أخفق
 الشر في ذراعي ، كنت أموت موته وأبعث بعثه ، لقد كنت فوضوايمينا .
 ولم يتسرب شيء من هذه الأعمال العنيفة الطيبة ، فقد ظلمت خدمي وذا
 غيره : فالمرء لا يفقد بسهولة عادة الفضيلة ؛ ولكن ، كنت أنتظر كل
 مساء ، بفارغ صبر نهاية المزاج اليومي ، كنت أجرى إلى سريري ، وأتلو
 صلاتي بسرعة وأدخل بين أعطيتي ، فقد كنت متشوقا للقاء جراتي
 الجنونية . وكنت أشيخ في الظلمات ، وأصبحت بالغا وحيدا ، بدون أب
 وبدون أم ، بلا نار ولا مكان ، وأكاد أكون بلا اسم . كنت أمشي على
 سطح مشتعل ، حاملا على ذراعي امرأة مغنى عليها ؛ ومن تحتي كان
 الجمهور يصرخ : كان واضحاً أن العبارة ستتهار . وفي هذه اللحظة أنطق
 الكلمات القدرية : — البقية في العدد القادم ، — وكانت أمي تسألني
 : ماذا تقول ؟ ، وكنت أجيبها بحذر : « إني أترك نفسي معلقا . » والواقع
 أنني كنت أناام وسط الأخطار في لا أمان لذيذ . ومساء الغد ، أمينا على
 الموعد ، كنت أجد سطحي واليران وموتاً أكيدا . وجأة كنت الملح
 مزرابا لم أكن قد لاحظته البارحة . لقد أفتقدنا يا إلهي ! ولكن كيف
 أعلق فيه دون أن أترك حملي العالي ؟ ولحسن الحظ تسترجع المرأة الشابة
 حواسها وأحملها على ظهري وتشبك ذراعيها حول عنقي . ولكن كلا ،
 فبعد تفكير أقفدتها وعيها من جديد : فمهما يضال نصيبها في عملية إقازها
 فإن ذلك سوف يقلل من فضلي . ولحسن الحظ ، كان هناك هذا الجبل

عند قدمي : فربطت الضحية بمنقذها ربطاً محكمًا ، ولم يكن الباقي شيئاً يذكر . واحتضني السادة — العدة ورئيس الشرطة ورئيس المطافي — وقبلوني وأعطوني نيشانا وفقدت ثقتي بنفسي ، فلم أعد أعرف ما أفعله . بنفسي : إن عناق هذه الشخصيات الكبيرة كان يشبه كثيراً عناق جدي . ومسحت كل شيء وبدأت من جديد : كان الوقت ليلاً وقتاً تطلب النجدة وألقيت بنفسي في المعركة . . « البقية في العدد القادم » . كنت أخطر بحياتي للخطبة السامية التي تحول حيواناً أوجده الحظ إلى مار بعته العناية الإلهية ، ولكن كنت أشعر بأنني لن أعيش بعد انتصاري وكنت سعيداً كل السعادة بأن أوصل هذا الانتصار إلى القدر .

ومن الغريب أن يجد المرء أحلام المغامرة هذه عند تلميذ صغير معد لوظيفة كتابية ؟ إن قلق الطفولة هو قلق ميتافيزيقي ، ولتهدئته لا حاجة أبداً لإسالة الدماء . وهل لا غمنت في يوم من الأيام أن أكون طبيباً بطلاً وأن أنقذ مواطناً من الطاعون الدملي أو من الكوليرا ؟ إنني اعترف بأن ذلك لم يحدث قط . ومع ذلك فلم أكن لا مقترناً ولا حرياً ، وليس ذنباً أن يجعلني هذا القرن الطالع ملحقاً . إن فرنسا المهزومة كانت ممتلئة بأبطال خياليين تضمد مفاخرهم عزة نفسها . وقبل مولدي بثلاثين سنة انفجر سيرانو دي براجيراك^(١) كوسيقى السراويل الحمراء النحاسية ، وبعد ذلك بقليل لم يكن على مسرحية « الذئب الصغير^(٢) » ، الفخور ، الجريح إلا أن

(١) مسرحية شعرية من خمسة فصول لأدمون روستان . نزلت في سنة ١٨٩٧ (الترجمة)

(٢) دراما شعرية من ستة فصول لأدمون روستان . قدمت سنة ١٩٠٠

تظهر لتمحو عار فاشوده^(١) . وفي سنة ١٩١٢ كنت أجهل كل شيء عن هذه الشخصيات الكبيرة ، ولكنى كنت على علاقة دائمة مع خلفائهم : كنت أعبد سيرانو دى لاجر وأرسين لوبان^(٢) ، دون أن أعرف أنه مدين بقوته الحارقة وشجاعته الحبيثة وذكائه الفرنسى الأصيل لهزيمة فى سنة ١٨٧٠ . إن الاعتدائية القومية وروح الأخذ بالثأر حولت جميع الأطفال إلى متقممين . وأصبحت متقما كالكل : ولما كانت السخرية والمجد ، هذان العيان غير المحتملين عند المهزومين قد أغريانى ، فكنت أسخر من رجال السوء قبل أن أحطمهم . ولكن الحروب كانت تضايقتى ، فقد كنت أحب الألمان اللطاف الذين كانوا يترددون على منزل جدى ، ولم أكن أهتم إلا بالظلم الخاص ، وفى قلبى المجرد من الكراهية تحولت القوي الجماعية : فقد كنت استخدمها فى تغذية بطولتى الفردية . ولكن هذا لا يهم ، لقد وسمت ، وإن كنت قد أترفت فى قرن من حديد الغلطة الجنونية بأن آخذ الحياة على أنها ملحمة فذلك لأنى حفيد الهزيمة . ولما كنت ماديا عن اقتناع ، فإن مثالىتى الملحمية سوف تموض حتى موتى إهانة لم تتلى وعارا لم أتألم منه ، ألا وهو فقد مقاطعتين عادتا إلينا منذ زمن طويل .

إن بورجوازيى القرن الماضى لم يفسوا قط أمسياتهم الأولى التى قضوها

(١) مدينة فى السودان واقعة على النيل بالقرب من بحر الغزال. احتلتها حملة فرنسية بقيادة مرشان ١٨٩٨ ولكنه اضطر إلى تركها للانجليز بقيادة كتشنر (الترجم)

(٢) بطل القصة البوليسية .

في المسرح وقد تولى كتابهم رواية ظروفها . وعندما ارتفع الستار خال الأطفال أنفسهم في البلاط . فإن الذهب والأقمشة الأرجوانية والأضواء والساحيق والفخخة والحيل كانت تضع القداسة حتى في الجريمة ؛ وعلى المسرح رأوا طبقة النبلاء التي أكلتها أجدادهم تبعث حية ، وفي الاستراحات كان وضع النظارة بعضهم فوق بعض يقدم لهم صورة المجتمع ، لقد أروهم في المقاصير أكتافا عارية ونبلاء على قيد الحياة . وعادوا إلى بيوتهم مشدوهين متخاذلين ، وقد أعدوا عكر لأقذار عظيمة ، لأن يصبحوا جول فافر^(١) وجول فرى^(٢) وجول جريني^(٣) . إني أتحدى معاصري أن يذكروا لي تاريخ التقائهم الأول بالسينما . كنا ندخل تخسافى قرن بلا تقاليد كان سيختلف اختلافا كبيرا عن القرون الأخرى بسوء سلوكه وبالفن الجديد ، الفن العامي الذي صور لنا بربريتنا مقدما . لقد ولد في مغارة لصوص ووضعت الإدارة الحكومية في عداد ملاهي الموالد وهو يتوسل بطرق سوقية كانت تؤلم شعور الأشخاص الوقورين ، كان تسلية النساء والأطفال ، كنا نعبه أنا وأمي ، ولكننا قلما تفكر فيه ولم نكن

(١) عماد وسياسي فرنسي ، ولد في ليون ١٨٠٩ وتوفي في سنة ١٨٨٨ . اقترح في سنة ١٨٧٠ خلق نابليون الثالث عن العرش . كان عضوا في حكومة الدفاع الوطني واشترك في المفاوضات التي سبقت معاهدة فرانكفورت (الترجم) .

(٢) أحد رجال لدولة الفرنسيين . ولد سنة ١٨٣٢ وتوفي سنة ١٨٩٣ . اشترك في إعادة تنظيم التعليم الابتدائي وتوسع فرنسا الاستعماري باحتلال تونس وتونكين وإقامة القوات الفرنسية في الكونغو (برازافيل) . (المترجم) .

(٣) عماد وسياسي فرنسي ولد في ١٨٠٧ وتوفي في ١٨٩١ . رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٨٧٩ إلى ١٨٨٧ . (المترجم) .

شكلم عنه قط : فهل يتكلم الناس عن الحزن إن كان غير ناقص ؟ وعندما لاحظنا وجوده كان قد أصبح حاجتنا الأساسية منذ وقت طويل .

وفي الأيام المطرة ، كانت آن ماري تسألني عما أعنى عمله ، وكنا نتردد طويلاً بين السرك والشاطيه^(١) والبيت الكهربائي ومتحف جريفان^(٢) . وفي آخر لحظة وبإهمال محسوب تقرر دخول قاعة عرض سينمائي . وكان جدى يظهر بياب مكتبه حينما تفتح باب الشقة ؛ وكان يسأل : إلى أين أنتم ذاهبون يا أولاد ؟ — وكانت أمى تجيب : إلى السينما . فيقطب حاجبيه ويتسرع أمى بالاضافة : إلى سينما الباتيون ، إنها قرية جداً ليس أمامنا إلا عبور شارع سوفلو . ، وكان يتركنا نذهب وهو يرفع كتفيه ؛ وفي الخميس التالي كان يقول للسيد سيمونو : قل لى ياسيمونو ، أنت الرجل الرزين ، هل تفهم هذا ؟ إن ابنتى تصعب حفيدى إلى السينما ، وكان السيد سيمونو يقول بلهجة المتساهل : إني لم أذهب قط إلى السينما ولكن زوجتى تذهب أحيانا .

وكان العرض قد بدأ . كنا نتبع العاملة المكلفة باجلاس النظارة فى أماكنهم ونحن نتمتع ، كنت أشعر بأنى أعمل فى الحفاء ؛ وفوق رؤوسنا كانت حزمة من الضوء الأبيض تحتاز القاعة ، وكان يتراقص فيها الغبار والدخان ؛ وكان يبانو محمحم وكثرى بنفسجية تلمع على الحائط ، وكانت رائحة مطهر مطلية تمسك بخناقى . وكانت رائحة هذه الليلة

(١) يقصد مسرح الشاطيه (المترجم) .

(٢) متحف الشمع (المترجم) .

المسكونة وعمارها تختلط في : كنت آكل مصاييح النجدة وأملاً نفسي بطعمها الحضي . كنت أحك ظهرى على ركب ، وكنت أجلس على مقعد ذى صرير وكانت أمى تضع غطاء مطويًا تحت التي لترفعنى ، وأخيراً كنت أنظر إلى الشاشة ، وكنت اكتشف طباشيراً مشعاً بالضوء ، ومناظر متواترة الطرف ، بخططة بوابل من الأمطار ؛ كان المطر يهطل دائماً حتى فى الشمس الواضحة وحتى فى الشفق ؛ ويحدث أن نيزكاً مشتملاً يجتاز خجرة استقبال بارونة دون أن تبدى تعجبها . كنت أحب هذا المطر ، هذا القلق الدائب الذى كان يشكل الحائط . وكان عازف البيانو يستهل افتتاحية « كهوف فانبجال » وكان الجميع يفهم أن المجرم سيظهر : وجنت البارونة خوفاً . ولكن وجهها الجميل الفاحم كان يترك مكانه لإعلان بنفسجى مكتوب عليه : « نهاية الجزء الأول » . كان الضوء هو التطهير الفجائى . أين كنت ؟ هل كنت فى مدرسة ؟ هل كنت فى إدارة حكومية لم يكن هناك أية زخرفة : صفوف من الكراسى ذات القواعد المتحركة يظهر لولبها من تحتها ، وجدران مدهونة كما اتفق باللون الأصفر الباهت ، وأرضية من الحشب مغطاة بأعقاب السجائر والبصاق . ويملاً القاعة فنيجج كشيء ، إنهم يحترعون اللغة من جديد ، وكانت العاملة المكلفة بإجلاس النظارة تنادى على الملبس الإنجليزى وكانت أمى تشتري لى منه ، وكنت أضغه فى فمى وأمص مصاييح النجدة . وكان الناس يفركون عيونهم وكان كل واحد يكتشف جيرانه . فكان هناك جنود وخادmates الحى ؛ وعجوز تبرز عظامه يمضغ التبغ وعاملات بشعورهن المكشوفة يضحكن بأعلى صوت : إن هذا العالم كله لم يكن من عالمنا ؛ ولحسن الحظ

كانت قبمات كبيرة خائفة موضوعة هنا وهناك على هذه الأرضية من الرؤوس.
تطمئن النفس .

إن التدرج الاجتماعى للمسرح غرس فى المرحوم والذى وجدى ،
معتادى الجالوس فى الشرفة الثانية ، حب الاحتفالات : وعندما يكون
عدد كبير من الناس معا ، يجب فصلهم بعضهم عن بعض بطقوس وإلا
ذبحوا بعضهم بعضا وأثبتت السينما العكس : فإن هذا الجمهور المختلط يبدو
أن كارثة جمعه بدلا من عيد ؛ ويموت قواعد الآداب انكشف أخيرا رباط
الناس الحقيقى ، ألا وهو الالتعام . وكرهت الاحتفالات وعبدت الجماهير ؛
لقد رأيت جميع أشكالها ولكنى لم أعد إلى الالتقاء بهذا العرى . . . هذا
الحضور دون تراجع ، من كل فرد نحو الجميع . . هذا الحلم اليقظ . . .
هذا الوعى العامض لخطر كوننا أناساً - إلا فى سنة ١٩٤٠ فى ستالاج^(١)

١٢ د .

وتجاسرت أسمى إلى حد مصاحبى إلى دور السينما فى الشوارع الرئيسية
إلى الكينيراما ، والفولى دراماتيك ، والفودفيل والجومون بالاس، وكان
يسمى آتشد بالهيو دروم ورأيت زيجومار وفانتوماس ، ومغامرات ماست
وأسرار نيويورك : ولكن طلاءات الذهب كانت تفسد لذتى . ولم يكن
الفودفيل - ذلك المسرح الذى تحول إلى سينما - يريد أن يتنازل عن
عظمته السالفة . وحتى آخر دقيقة كانت ستارة حمراء بطرر ذهبية تغطى.

(١) معسكر خصصه الألمان فى الحرب العالمية الثانية لصف الضباط والجنود .

(المترجم) .

الشاشة ، وكانوا يدقون ثلاث دقات ليعلنوا بداية العرض ، وكانت الفرقة الموسيقية تعزف افتتاحية ، وكان الستار يرتفع والمصاييح تنطفئ . وكنت أتضيق من هذا الاحتفال غير اللائق ، وهذه الأبهة المغيرة ، اللذين لم يكن لهما من نتيجة إلا إبعاد الأشخاص ؛ ففي الشرفة وفي أعلى السرح ، كان آباؤنا الندهشون بالثريات وبصور السقف ، لا يستطيعون ولا يريدون أن يصدقوا أن السرح ملكهم ، وإنما كانوا يقبلون فيه . أما أنا ، فكنت أريد أن أرى الفيلم من أقرب ما يمكن . ففي قلة الراحة التي تسوى بين الجميع في دور السينما التي في الأحياء ، علمت أن هذا الفن الجديد لي كما هو للجميع . كنا في السن العقلي نفسه : كنت في السابعة وأعرف القراءة وكان في الثانية عشرة ولا يعرف الكلام . وكانوا يقولون إنه في أوائل وأن هناك تقدما سوف يحققه ؛ وكنت أعتقد أنا سنكبر معا . لم أنس طفولتنا المشتركة : حين يقدمون لي ملبسة ، إنجليزية وحين تقوم امرأة بالقرب مني بتلميع أظافرها ، وعندما استنشق — في مراحيض فندق من فنادق الأقاليم — رائحة مطهر ، وفي قطار من قطارات الليل حين أنظر في السقف إلى السهارة النفسجية — فإنني أجده في عيني وفي خياشيمي وعلى لساني أضواء ورائحة هذه القاعات التي اختفت . ومنذ أربع سنوات سمعت وأنا في البحر عند كهوف « فنجال » صوت ييانو يعلو وسط الريح ، في جو عاصف .

ولما كانت القداسة لا تجذب إلى سبيلها إلى فقد عبدة السحر : فالسينما كانت ظاهرة مزية كنت أحبا حبا فاسداً بسبب ما كان لا يزال ينقصها . إن هذا السيلان كان كل شيء .. ولم يكن شيئاً . . كان كل شيء محولا

إلى عدم . كنت أحضر هذيان حائط كبير ؛ لقد خلصوا الجوامد من ضخامة كانت تزحمني حتى في جسمي ، وكانت مثاليق الشابة تفرح بهذا التقلص اللانهائي ؛ وفيما بعد ، فإن ثقلات الثلثات ودورانها ذكراني إنزلاق الأشكال على الشاشة . لقد أحيت السينما حتى في الهندسة المسطحة . ومن الأسود والأبيض كنت أصنع ألوانا سامية كانت تختصر في داخلها سائر الألوان الأخرى ، ولم تكن تكشف عنها إلا للتصل . كنت سعيداً برؤية اللامرئي . وفوق كل ذلك كنت أحب بكم أبطالي الذي لا علاج له . ولكن لا : لم يكونوا بكما لأنهم كانوا يعرفون كيف يحملون الناس يفهمونهم . كنا نتصل عن طريق الموسيقى ، صوت حياتهم الداخلية . إن البراءة المضطهدة كانت تفعل خيرا مما تقول أو مما تظهر من ألم . إنها كانت تشبعني به بواسطة تلك الأتغام التي تبعث منها . كنت أقرأ الأحاديث ، ولكنني كنت أصنع الأمل والمرارة . كنت أفاجئ ، بأذني الألم المتكبر الذي لا ينكشف . كنت محرجا ؛ لم أكن أنا ، تلك الأرملة الشابة التي كانت تبكي على الشاشة — ومع ذلك لم يكن لدينا أنا وهي إلا روح واحدة ، هي اللحن الجنازى لشوبان . لم تكن ثمة حاجة إلى أكثر من ذلك كي يبلل بكاؤها عيني . كنت أشعر بأني نبي دون أن أستطيع التنبؤ بشيء ؛ وحتى قبل أن يخون الحائن ، كان جرمه يدخل في ؛ وحين كان يبدو كل شيء هادئا في القصر ، كانت أنغام مشثومة تملن عن وجود القاتل . وكما كانوا سعداء رعاة البقر هؤلاء ، وأوثك الفرسان . والشرطي : إن مستقبلهم كان هناك ، في هذه الموسيقى المخذرة وكان هذا المستقبل يحكم الحاضر . إن غناء غير منقطع كان يختلط بحياتهم .

ويجرحهم نحو النصر أو نحو الموت كلما تقدم نحو نهايته . وكان في انتظارهم
 الفتاة التي في خطر ، واللواء ، والحاتن الذي يترصد في الغابة ، والزميل
 المقيد بالقرب من برميل بارود وهو ينظر بحزن إلى اللهب الذي يمدو
 في القتل . إن عدو هذا اللهب ، وكفاح العذراء المستميت ضد غنطلفها ،
 وركض البطل وسط الأحرار ، وتقابل كل هذه الصور وكل هذه
 السرعات ، وفوق كل ذلك الحركة الجهنمية « للسباق إلى الهاوية »
 وهو تلك القطعة الأوركستالية المأخوذة من أوبرا « لئنة فوست » والمقتبسة
 لليانو . — كل ذلك لم يكن إلا واحداً : ألا وهو « القدر » . كان البطل
 يترجل ويطلق القتيلة ، ويلقى الحائن بنفسه عليه وتبدأ مبارزة بالسكاكين ،
 ولكن مصادفات هذه المبارزة كانت تشترك بنفسها في شدة التطور الموسيقي :
 كانت مصادفات مزورة لا تكاد تخفى النظام الكوني ، ويا للفرح حين
 توافق آخر طعنة سكين آخر نقطة في اللحن ! كنت أسعد ما يكون ، لقد
 وجدت العالم الذي أريد أن أعيش فيه ، ولست المطلق . ويا للضائقة
 كذلك حين يعاد إضاعة المصايح : لقد تحرقت جبال هؤلاء الأشخاص وقد
 اختفوا حاملين عالمهم معهم ؛ لقد شعرت بانتصارهم في عظامي ، ومع ذلك
 فقد كان انتصارهم هم لا انتصاري . وفي الشارع ، كنت أجد نفسي رائداً
 عن العدد .

وقررت أن أقصد القدرة على الكلام . وأن أعيش في الموسيقى .
 وكانت لدى هذه الفرصة في كل مساء حوالي الساعة الخامسة . كان
 جدي يعطى دروسه في معهد اللغات الحية ؛ وكانت جدتي تنسحب إلى

حجرتها وتقرأ شيئا من (جيب)^(١)؛ وكانت أحيى قد أعطتني أكلة العصر وأخذت في إعداد العشاء وإعطاء الخادمة آخر النصائح؛ فكانت تجلس إلى البيانو وتعزف قصائد شوبان وسوناتا شومان والمنوعات السيمفونية لفرانك وأحيانا — بناء على طلبي — كانت تعزف افتتاحية د. كهوف فنجال. كنت أنساب إلى المكتب؛ وكان الظلام قد ساد، وعلى البيانو شمعتان تحترقان. وكان الضوء الخافت يخدمني، كنت أمسك بمسطرة جدي. وكانت سيفي الطويل، وقاطعة ورقة وكانت خنجرى. وكنت أنحول في الحال إلى صورة مسطحة لفارس. وكان الوحي يتأخر أحيانا وكسبا للوقت كنت أقرر — أنا الذى اشتهرت مبارزا بالسيف — أن مسألة هامة تضطرنى إلى إخفاء شخصيتى؛ وكان يجب على أن أتلقي الطمنات دون أن أردّها، وأن أضع شعاعى فى التظاهر بالجنون. كنت أدور فى الحجرة مهدداً بعينى، خافضا رأسى، جارا قدمى؛ كنت أعبر برجفة بين آن وآخر بأثني صفعت أو أثني رككت فى مؤخرتى، ولكنى كنت حريصا على عدم الرد. كنت أسجل اسم من يهيننى. وأخيراً كانت تعمل الموسيقى التى أتناولها بجرعات كبيرة، وكطبلة زنجية، كان البيانو يمرض على إيقاعه. وكان الخيال المرتجل يحل محل روحى، كان يسكننى ويمطئنى ماضيا مجهولا، ومستقبلا لامعا ومميتا. كنت محسوسا... كان الشيطان قد أمسك بى وهزنى كشجرة البرقوق. وعلى جوادى كنت أجتاز بسرعة عظيمة أراض بور وأراض محروثة،

(١) اسم أدبى مستعار للكاتبة الفرنسية سيبيل جابريل مارى أوتوانيت خفيدة

والمكتب من الباب إلى النافذة !! وكانت أمى تقول لى دون أن تكف
 عن العزف « إنك كثير الصوضاء ، إن الجيران سوف يشتكون ، .
 ولم أكن أحييها بما أننى كنت أبكا . وألح الدوق وأرجل وأعلمه بحركات
 صامتة من شفتى أننى اعتبره هينا . فيثير على جنوده المرتزة ، ولكن
 ضربات سيفى تقف سداً من الصلب أمامى . ومن وقت لآخر كنت
 أظن صدرا طمئة نافذة . وفى الحال كنت أدور على عقيبى وأصبح المساييف
 الطعون ، وكنت أسقط وأموت على السجادة ، ثم أنسحب فى الحفاء من
 الجثة وأنفض واقفا وأستعيد دور الفارس الجوال ، وكنت أحرك كل
 الأشخاص : فارساً ، كنت أصفع الدوق وأدور على تقسى ؛ ودوقا كنت
 أتلقي الصفة . ولكنى لم أكن أتجسد الأشرار طويلا ، فقد كنت
 دائماً أتعجل العودة إلى الدور الأول الكبير ... إلى تقسى . ولما كنت
 لا أقهر ، فقد كنت انتصر على الجميع . ولكن ، كما فى حكاياتى الليلية كنت
 أوجل انتصارى إلى ما لانهاية ، لأننى كنت أخاف من الركود الذى سوف
 يتبعه .

إنى أحمى كونييسة شابة من شقيق الملك : يا لها من مجزرة ولكن
 أمى أدارت الصفحة ؛ وها هو ذا اللحن السريع الفرح يترك مكانه للحن
 بطيء خنوع ؛ فأنهى المذبحة بسرعة ، وأبتسم للسيدة التى فى حمايتى .
 هى تحببى ؛ إن الموسيقى هى التى تقول ذلك . وأنا أيضا قد أكون أحييتها ؛
 إن قلبا محبا وبطيئا يستقر فى . ما الذى يفعله الإنسان حين يحب ؟ لقد
 أخذتها من ذراعها وزهتها فى مرج : ولكن هذا لا يمكن أن يكفى .
 ودعا قطاع الطرق والمرتزة على عجل فأخرجونى من ورطتى : لقد

هجموا علينا ، مائة ضد واحد ؛ قتلنا تسعين واختطف العشرة الباقون
السكوتية .

حان وقت دخولي في سنوأتى التمس : إن المرأة التى تحبب أسيرة ،
وجميع شرطة المملكة يجدون فى أثرى ، فأنا خارج على القانون ، ومطاردة
وتعس . لم يبق لى سوى ضميرى وسيفى . كنت أذرع المكتب وقد بدا على
الإنهاك ، كنت أملاً نفسى بحزن شويان الحار . وأحياناً كنت أقلب
صفحات حياتى ، وكنت أتجاوز سنتين أو ثلاث سنوات لا تأكد من أن
كل شئ سينتهى على خير وجه ، وأن ألقابى وأراضى ستعاد لى . وكذلك
خطيئى التى لم يلمسها أحد تقريباً ، وأن الملك سوف يطلب منى اندفع .
ولكنى كنت أتفرز فى الحال إلى الحلف وأعود لأستقر — قبل ذلك
بسنتين أو ثلاث سنوات — فى التمس . كانت هذه اللحظة تسحرنى ،
كان الخيال يحتل بالحقيقة . وفى تشردى وحزنى الشديد ، سعى وراء
العدالة ، كنت أشبه شها حمية طفلاً متمسكاً لا يدرى ماذا يصنع بنفسه ،
يبحث عن سبب لحياته ، وينطوف على تقعات الموسيقى فى مكتب جده .
ودون أن أترك الدور ، كنت أستفيد من الشبه لأمزج بين مصرينا . ولما
كنت متأكداً من النصر الأخير فقد كنت أرى فى هذه الضجة طريقي
المأمون للوصول إليه . وخلال زلتي كنت ألح مجد المستقبل الذى كان سببها
الحقيقى . إن سوناتا شومان تنتهى باقتناعى بأنى كنت الخلق الذى يأس ،
وكنتم الله الذى أنهذه منذ بداية العالم . يا للفرح أن نستطيع أن نأسف
صورياً ! كان من حقى أن أظهر استيائى للكون . ولما كنت تعباً من
النجاح البالغ السهولة ، فقد كنت أستطيع لذة الحزن ، ومرارة سرور

الحقد . ولما كنت هدفا لأحبي الأنايات وكنت متخما وبلا رغبات ، كنت اندفع في إملاق خيالي . إن ثمانى سنوات من السعادة لم تؤد إلا لأن تفت في نفسي حب الاستشهاد . كنت أحل محل قضائي العاديين الميالين كلهم لمحاباتي . محكمة عبوسة مستعدة لإدائتي دون أن تسمعي . لسوف أترزع منها البراءة والتهانى ومكافأة مثالية . كنت قرأت عشرين مرة بشغف قصة جريليديس^(١) ، ولكنى لم أكن أحب التألم ، ورغباتى الأولى كانت قاسية إن المدافع عن هذا العدد من الأميرات لم يكن يتضابق من أن يضرب على الاليتين في الخيال جارتها الصغيرة التى تسكن في الطابق نفسه . إن ما كان يعجبنى في هذه القصة التى لا تستحق الكثير من الاهتمام ، هو سادية الضحية وهذه الفضيلة الزائدة التى تؤدى إلى أن تلقى بالزوج الجلاذ جاثيا . ذلك ما كنت أريده لفسى : أن أقسر القضاة على الركوع وأن أجبرهم على احتراي لأعاقبهم على موقفهم السابق منى . ولكنى كنت أؤجل البراءة كل يوم إلى الغد ؛ ولما كنت دائما بطل المستقبل ، فقد كنت أتحرق شوقا لتثبيت كنت أؤجله باستمرار .

إن هذا الحزن المزدوج ، الذى كنت أحس به وألعبه ، أعتقد أنه كان يترجم خيبة أملى . إن ما أثرى الموضوعه ، الواحدة في طرف الأخرى ، لم تسكن إلا مسبحة من الصدق ؛ وحين كانت أرى تضرب آخر نغمات والخيال المرتجل ، كنت أعود إلى الزمن ، بدون ذاكرة اليتامى المحرومين من

(١) بطله أسطورة مؤثرة هي نموذج الفضائل الزوجية . ويقال إن هذه السيدة عاشت في القرن الحادى عشر . وقد استوحى قصتها بزارك وبوكاشيويرو . (الترجم) .

الآب ، والفرسان الهائمين المحرومين من اليتامى ؛ سواء كنت بطلا أو تلميذا ، كاتباً ومعيداً نفس تمرينات الاملاء ، ووقفس المآثر ، كنت أظل محبوساً في هذه الزنزانة : ألا وهي التكرار . ولكن المستقبل كان موجوداً ، لقد كشفتُه السينما لي ؛ كنت أحلم بأن لي مصيراً . إن استياءات جريزيلديس أضجرتني آخر الأمر : عشنا بذلك جهدي في تاجيل لحظة تمجيدى التاريخية إلى ما لا نهاية ، إنى لم أكن أجمل منها مستقبلاً حقيقياً ... لم تكن إلا حاضراً مؤجلاً .

وفي حوالى تلك الفترة - ١٩١٢ أو ١٩١٣ - قرأت رواية « ميشيل ستروجوف » . لقد بكيت من الفرح : يالها من حياة مثالية ؛ ولكي يظهر هذا الضابط شجاعته لم يكن في حاجة لأن ينتظر إرادة قطاع الطرق المطلقة . إن أمراً من أعلى قد استله من الظلام . لقد كان يعيش ليطيع ويموت من نصره ؛ ذلك أن هذا المجد كان موتاً . وعند إدارة آخر صفحة من الكتاب ، كان ميشيل يحبس نفسه حياً في تابوته الصغير المذهب الأطراف . لا وجود لأدنى قلق ... لقد كان مبرراً منذ أول ظهوره ، ولا لأقل صدفة . حقيقة إنه كان يتنقل باستمرار ، ولكن مصالح عظيمة ، وشجاعته ، وتيقظ العدو وطبيعة الأرض ، ووسائل الاتصال ، وعشرين عاملاً آخر أعطيت كلها مقدماً ... كانت تتيح في كل لحظة أن يتعدد مكانه على الخريطة . ليس هناك تكرار : كل شيء كان يتغير ، وكان لا بد أن يتغير بلا انقطاع . إن مستقبله كان يضيئه ، وكان يستدل بنجم . وبعد ذلك بثلاثة أشهر قرأت هذه الرواية بالشعور نفسه ؛ غير أنى لم أكن أحب ميشيل ، كنت أجده مسرفاً في التعتل ... كنت أحده على

مصيره . كنت أعبد فيه المسيحى الذى حالوا بينى وبين أن أكونه . إن
قيصر روسيا كله ، كان الله الأب ؛ ولما كان ميشيل قد خلق من العدم
بمرسوم غريب ، ولما كان مكلفا مثل كل المخلوقات برسالة وحيدة ورئيسية ،
فقد عبر وأديننا الله بالدموع مبعدا الغريات ومجتازا العوائق ، وأحب
الاستشهاد واستفاد من إحدى المعجزات ^(١) ، ومجد خالقه ، ثم فى نهاية عمله
دخل الخلود . كان هذا الكتاب سما بالنسبة لى : يوجد إذن مختارون ؟
إن أعلى المطالب ترسم لهم الطريق ؟ كنت أكره القساسة ، ولكنها
سحرتنى عند ميشيل ستروجوف لأنها اتخذت مظاهر البطولة .

ومع ذلك فإنى لم أغير شيئا من إيماءاتى ، وفكرة الرسالة ظلت فى
الهواء كالنبيح المانع الذى لا يتمكن من أن يتجسد ، والذى لا أستطيع
التخلص منه . يبدو أن الشخصيات الثانوية وملوك فرنسا كانوا تحت
أوامرى ، وكانوا ينتظرون الإشارة ليعطونى أوامرهم . ولم أعطهم إياها .
فإن كانت المخاطرة بالحياة عن طاعة فماذا يصبح الكرم ؟ وكان مارسيل دونو
الملاك ذو القبضتين الحديديتين يدهشنى كل أسبوع بأدائه فى سماحة .
ما هو أكثر من واجبه ؛ وأما ميشيل ستروجوف الكفيف البغى
بالقروح الجلدية ، فبالكاد كان يستطيع أن يقول إنه أذى واجبه كنت
أعجب بشجاعته وأنكر خشوعه . إن هذا الشجاع لم يكن فوق رأسه إلا
السماء ؛ فلم كان ينحنى أما القيصر ، بينما كان على القيصر أن يقبل
قدميه ؛ ولكن ، ما لم ننحن ، فمن أين يمكن أن نأخذ التصريح بالحياة ؟
إن هذا التناقض أوقعنى فى جيرة عميقة . حاولت أحيانا أن ألفت حول

الصبوبة : ولما كنت طفلاً مجهولاً فقد كنت أضعهم يتكلمون عن رسالة خطيرة ، فذهبت لألقى بنفسى عند قدمى الملك ، ورجوته أن يمد لى بها ، ولكنه رفض . لقد كنت صغيراً جداً ، والسألة غاية فى الخطورة . ونهضت وتحديت للبارزة وهزمت بسرعة كل ضباطه . وسلم الملك بالواقع : « إذهب إذن ، ما دامت هذه ارادتك ! ، ولكنى لم أكن لأخضع بحيلتى ، ولا حظت جيداً أننى فرضت نفسى . ثم إنى كنت أتقرز من هؤلاء القروء جميعاً : كنت ثائراً وقتلاً للملك ، لقد حذرنى جدى من الطغاة سواء دعوا لوليس السادس عشر أو بادانجيه . خاصة وأننى كنت أقرأ كل يوم فى صحيفة اللاتان سلسلة ميشيل زيفا كو : هذا المؤلف العبقري ابتكر — بتأثير هوجو — رواية المغامرات الجمهورية . إن أبطاله يمثلون الشعب ، إنهم يصنعون الامبراطوريات ويحطمونها ، ويتنبأون منذ القرن الرابع عشر بالثورة الفرنسية . ويحمون بطيعة قلوبهم ملوكاً أطفالاً أو ملوكاً مجانين من وزراءهم ، ويصفون الملوك الأشرار . وأعظمهم جميعاً ، باردايان ، كان معلمى ! ولأقلده ، كنت أرتكز بتكبر على ساقى النحيلتين وقد صفعت مائة مرة هنرى الثالث ولويس الثالث عشر . هل أذهب بعد ذلك لأضع نفسى تحت إمرتهم ؟ وبكلمة واحدة خافى لم أكن أستطيع أن أسحب من نفسى الأمر الذى يرر وجودى على هذه الأرض ، ولا أن أعترف لأحد بحق تسليمه لى . واستأنفت جولاتى بتراخ على ظهر جوادى وضعت فى المعرك . ولما كنت ذابحاً ذاهلاً ، وشهيداً بليداً ، فقد ظلت جريزليديس لعدم وجود قيصر أو إله أو أب على الأقل .

كنت أعيش حياتين كلاهما كاذبتان : كنت مخادعا أمام الناس . الحفيد المعروف شارل شفايتزر المشهور ، وكنت أغوص وحدي في عبوس خيالي . لقد صممت مجدي الكاذب بتخف كاذب . ولم يكن يصعب على قط أن انتقل من دور إلى آخر . وفي اللحظة التي كنت سأندفع بمخدائي السري ، دار المفتاح في القفل ، وشلت فجأة يداي ووجدت على مفاتيح البيانو ، ووضعت المسطرة في المكتبة ، وذهبت لألقي بنفسي بين ذراعي جدي ، ودفعت كرسيه إلى الأمام وأحضرت له خفه المبطن بالفراء ، وسألته عن يومه ، ذاكرًا تلاميذه بأسمائهم . ومها يكن عمق حلمي فأني لم أتعرض قط لخطر التيه فيه . ومع ذلك ، فقد كنت مهتدا : إن حقيقتي كانت بخاطر كثيرا بتبادلها حتى النهاية مع أ كاذبي .

وكانت هناك حقيقة أخرى . فعلى شرفات حديقة اللوكسمبورج ، كان أطفال ياعبون ، وكنت أقرب منهم ، وكانوا يحفون بي دون أن ينظروا إلي ، كنت أنظر إليهم بعيون الفقير : كم كانوا أقوياء وسريعين ! كم كانوا ملاحا ! وأمام هؤلاء الأبطال من لحم وعظم ، كنت أفقد ذكائي العجيب وعلى الواسع ومجموع عضلاتي القوية ومهارتي في استخدام السيف . كنت أستند إلى شجرة وانتظر . ولو أن رئيس الجماعة وجه إلى مرة في وحية الكلام قائلا : « تقدم يا بردايان ، ستأخذ أنت دور الأسير ، — لكنك تخليت عن امتيازاتي . إن مجرد دور أبكم كان يملأني سعادة ؛ ولكنك قبلت في وسط الحماس أن آخذ دور جريح على قنالة ، أو دور ميت . لكن الفرصة لم تعط لي : لقد قايلت قضاتي الحقيقيين ، معاصري

أندادى ، وإن عدم مبالاهم كانت تدينى . كنت فى دهشة من اكتشافى
نقى عن طريقهم : لم أكن لا أعجوبة ولا سمكة هيويلة ، بل وزما هزيلا
لا يثير اهتمام أحد . كانت أمى لا تحسن إخفاء غضبها : إن هذه المرأة
الطويلة الجميلة كانت راضية كل الرضى عن قصر قامتى ، إنها لم تكن ترى
فيها إلا كل ما هو طبعى . إن عائلة شفايتزر طويلة القامة وعائلة سارتر
قصيرتها ، وكنت كوالدى ، ذلك كل ما فى الأمر . كانت تحب ، وأنا فى
سن الثامنة ، أن أظل سهل الحمل والتحريك ، وكان قطعى الصغير يبدو
فى عينيها أنه مرحلة أولى ممتدة . ولكن ، عندما ترى أن لأحد يدعونى
للعب ، كان جها يدفعها إلى الظن بأننى معرض لأن يرانى الناس قزما
— الأمر الذى لم أكنه عاما — وكنت أنا أنا لم لذلك . ولكى تنقذنى
من اليأس كانت تصطنع الضجر : « ماذا تنتظر أيها الغبي الكبير ؟ إسألهم
إذا كانوا يريدون أن يلعبوا معك ! » كنت أهنر رأسى فقد كنت أفضل
على ذلك أحقر الأعمال . وكانت كبريائى تمنعنى من أن أرجوهم . وكانت
تشير إلى سيدات يجلسن على كراسى من حديد ويصنمن التريكو ، وتقول
لى : « هل تريد أن أكلم أمهاتهن ؟ » كنت أنوسل إليها ألا تفعل شيئا ،
فكانت تأخذ يدي وتزحل . كنا نذهب من شجرة إلى أخرى ومن
جماعة إلى جماعة متوسلين دائما ومبعدين دائما وعند العسق ، كنت
أجد جشمى تلك الأماكن العالية التى تهب عليها الروح ، أى أحلاى .
كنت أثار لحية أملى بست كلمات من كلام الأطفال وبذبح مائة من
المرزقة ! ولكن الأمور لم تكن على ما يرام .

وأتهذنى جدى : لقد ألقى بى دون أن يريد فى خدعة جديدة غيرت حياتى .

الجزء الثاني
الكتابة

لم يعتقد شارل شفايتزر قط أنه كاتب ولكن اللغة الفرنسية كانت لا تزال تدهشه وهو في السبعين من عمره ، لأنه تعلمها بصعوبة ، ولأنه لم يتلها تماماً ؛ كان يلعب معها وكان يسر بالكلمات ، وكان يحب أن ينطق بها ، ولم يكن إلقاءه القاسى يتساهل في مقطع واحد ، وعندما كان يجد لديه الوقت ، كانت ريشته تنظمها في باقات . كان يسجل بمرور أحداث عائلتنا وأحداث الجامعة بكتابات في المناسبات . تمنيات بمناسبة السنة الجديدة وعيد الميلاد ، كلمات في ولائم الأفراح ، وخطب بالشعر في عيد القديس شارلمان ، وهزليات صغيرة وألغاز وقواف ، وكلمات لطيفة عادية . وفي المؤتمرات كان يرتجل رباعيات بالألمانية والفرنسية .

وفي بدايه الصيف كنا نرحل إلى أركشون أنا والمرأتان قبل أن ينهى جدى دروسه . كان يكتب لنا ثلاث مرات في الأسبوع : صفحتين للوزير وحاشية لأن ماري وخطاباً شعرياً بكامله لى . وكى تزيدنى أسمى تذوقاً لسمادنى تعلمت قواعد العروض وعلمتها لى . وفاجأنى أحدهم وأنا أدبج إجابة بالشعر ، خفنى على إنجازها وساعدنى فيها . وعندما بعثت المرأتان بالخطاب ضحكنا حتى دمعت أعينهما وهما تفكران فى دهشة المرسل إليه . وبعودة البريد تسلمت قصيدة تمجدى ، فأجبت عليها بقصيدة . وصارت عادة . إن الجد وحفيده قد ارتبطا برباط جديد ، فقد كانا يتحدثان بعضهما إلى بعض ، كالمثود وقوادى مون مارتر ، فى لغة محظورة على النساء . وأهديت قاموساً للقوافى ، وجعلت من نفسى شاعراً : ونظمت قصيدة غزلية رقيقة .

اللفيف ، وهى بنت صغيرة شقراء كانت لا تغادر كرسىها الطويل ، وقد ماتت بعد ذلك بضع سنوات . ولم تكن البنت الصغيرة تبالي بهذه القصيدة . لقد كانت ملاكاً ! ولكن كان يعزى عن هذه اللامبالاة إعجاب جمهور كبير بها . لقد وجدت بعض هذه القصائد . وقال كوكتو فى سنة ١٩٥٥ لى كل الأطفال عبقرية سوى مينو درويه . وفى سنة ١٩١٢ كان جميع الأطفال عابرة ماعدى : كنت أكتب للتقليد وللهرجة وكى أبدو كبيراً كنت أكتب على الخصوص لأنى كنت حفيد شارل شفايتزر . وأعطيت لى أمثال لا فوتين ، ولم تعجبنى : وكان المؤلف يأخذ منها ما يحول له ! وقررت أن أكتبها فى أشعار ذات أثنى عشر مقطعا . وكان المشروع فوق طاقتى ، وبدا لى أنه يثير الابتسام : كان ذلك آخر تجربة شعرية لى . ولكن كنت قد تقدمت وانتقلت من الشعر إلى النثر ولم أجد أية صعوبة فى أن اخترع من جديد كتابة المغامرات الشيقة التى كنت أقرأها فى مجلة كرى كرى ،^(١) . لقد حان الوقت الذى سأكتشف فيه عبث أحلامى . فخلال جولانى الخيالية كنت أريد الوصول إلى الواقع . وحين كانت أرى تسألنى ، دون أن تحول نظرها عن نوتة الموسيقى : « ماذا تفعل يا بولو ؟ » كان يحدث لى أحيانا أن أقطع نذر الصمت الذى قطعه على نفسى وأن أجيها : « أمثل للسينما » وبالفعل ، كنت أحاول أن انتزع الصور من رأسى وأن أحققها خارج نفسى ، بين قطع أثاث حقيقية وجدران حقيقية ، ساطعة ومرئية ، مثل الصور التى كانت تلبس على الشاشات الفضية ، عبثاً ؛ فلم أكن أستطيع بعد أن أجعل خداعى : فكنت أظهار بأنى ممثل يتظاهر بأنه بطل .

وبمجرد أن أبدأ الكتابة كنت أضع ريشتي لأبدي فرحي العظيم ..
كان الحداد واحداً ، ولكنني قلت إنني كنت أعتبر الكلمات لباب
الأشياء . ولم يكن هناك شيء يثير اضطرابي أكثر من أن أرى خطي
الردىء يستبدل شيئاً فشيئاً بهاء الزائل بالصلافة المعتمة للمادة : كان ذلك
تحقيقاً للعالم الخيالي ، وإذا وقع أسد أو ضابط من ضباط الإمبراطورية
الثانية أو بدوى في فخ الدور - فإنهم كانوا يدخلون إلى غرفة الطعام ،
ويظلون فيها أسرى إلى الأبد وقد جندتهم شارات مناصبهم . لقد اعتقدت
أنني أرسيت احلامى في العالم « مخريشات » من قلم من صلب . وطلبت
كراسة وزجاجة حبر بنفسجى وكتبت على الغلاف : « كراسة روايات »
وأول رواية كتبتها حتى النهاية أسميتها : « من أجل فراشة » . إن عالماً
وابنته وأحد المستكشفين الشبان كانوا يصعدون مجرى نهر الأمازون
بحثاً عن فراشة ثمينة . وكنت قد استعرت المخلص والشخصيات وتفاصيل
المغامرات وحتى العنوان من قصة بالصور كانت قد ظهرت في الثلاثة أشهر
السابقة . إن هذه السرقة الأدبية المتعمدة كانت تخلصنى من قلقى الأخير
كان طبعياً أن يكون كل شيء حقيقياً بما أننى لم أكن أخترع شيئاً . لم أكن
أطمع أن تنشر روايتى ، ولكنني كنت رتبت أمرى على أن تطبع مقدما
وكنت لا أخط سطرأ لا يكفله نموذجى . هل كنت أعتبر نفسى ناسخاً ؟
لا . ولكنني كنت أعتبر نفسى مؤلفاً أصيلاً : كنت أتفح وأجدد ، فعلى
سبيل المثال كنت قد عنيت بتغيير أسماء الشخصيات . إن هذه التغيرات
الطفيفة كانت تسمح لى بمزج الذاكرة بالخيال . كانت جمل جديدة
ومكتوبة كلها يعاد تكوينها فى رأسى بذلك الثبات الذى يدعو على ما تلقاه
بإلهام . كنت ألقها وكانت تأخذ تحت نظرى كثافة الأشياء . وإن كان

للمؤلف اللهم ، كما يعتمد في الغالب ، هو غير نفسه في أعماق داخله ، فاني
أكون قد عرفت الالهام بين السابعة والثامنة .

أن هذه ، الكتابة الآلية ، لم تخدعني قط تماما . ولكن اللعبة كانت
تسرني أيضا لذاتها : ولما كنت ولدا وجيدا ، فكنت أستطيع أن ألعبها
وحدى . وبين لحظة وأخرى ، كنت أوقف يدي ، وكنت أظهار بالتردد
لأشعر بنفسى ، وقد تقطع جيني ، وشرد نظري — إنني كاتب . كنت أعبد
السركة الأدبية تظاهراً وكنت أذهب بها متعمداً إلى أقصى حدودها ،
كما سئرى .

إن بوسنار وحول قرن لم يترك فرصة واحدة ليعلم الأطفال : ففي
أحرج اللحظات يقطعان جبل القصة ويلقيان بأنفسهما في وصف نبات سام
أو مسكن من مساكن الوطنيين . وكقارىء كنت أترك هذه الفقرات
التعليمية ؛ وعندما أصبحت مؤلفاً حشوت رواياتي بها . لقد عازمت على أن
أعلم معاصري كل ما كنت أجهله : عادات أهل أرض النار ^(١) ،
والنباتات الأفريقية ومناخ الصحراء . إن هاوى جمع الفراشات وابنته
كان الحظ يتدخل فيفصلهما ثم يركبان دون أن يعرفا على ظهر سفينة
واحدة ، ويقعان ضحية حادث غرق واحد فيتعلقان بطاقة النجاة نفسها
ويرفعان رأسيهما ويصرخ كلاهما : « ديزى ! » ، « بابا ! » . غير أن سمكة
قرش كانت تجوس مع الأسف بحثاً عن لحم طازج ، وكانت تقترب وكان

(١) مجموعة جزر جنوب أمريكا الجنوبية يفصلها عن القارة مضيق ماجلان
(الترجم)

بطنها يلع بين الأمواج . هل سيفلت هذان التمساحان من الموت ؟ وكنت أذهب لأحضر المجلد هـ ق ، من قاموس لاروس الكبير ، وكنت أحمله بصعوبة حتى قطري وأفتح في الصفحة المطلوبة وأنقل حرفياً مبتدئاً بسطر جديد : هـ إن سمك القرش مألوف في المحيط الأطلسي الواقع بين المدارين . إن أسماك البحر هذه الكبيرة النهمة جدا يصل طولها إلى ثلاثة عشر متراً وتزن إلى ثمانية أطنان .. ، كنت أقل المقال على مهل . كنت ألتذذ في شعوري بأنني ممل وبأنني في مثل امتياز بوسنار . ولأنني لم أكن قد وجدت وسيلة أتعذبها بطل ، فإنني أغلى يبطء في رعدة لذينة .

كل شيء كان يؤدي بهذا النشاط الجديد لأن يكون تقليداً مضحكاً جديداً . وكانت أمي تعمرني بتشجيعها ، وكانت تدخل الزائرين إلى غرفة الطعام ليفاجئوا المبدع الجديد وهو جالس إلى قطره ؛ وكنت أظهار بانشغالي التام كي أشعر بوجود المعجيين بي ؛ فكانوا ينسحبون على أطراف أصابعهم وهم يهيمسون بأنني غاية في اللطف وأن ذلك لجيئ لل غاية . وأهداني خالي إميل آلة كتابة صغيرة لم استعملها ، واشترت لي السيدة بيكار خريطة العالم لكي أتمكن من أن أحدد ، دون أن أتعرض للخطأ طريق أبطالي الذين يدورون حول العالم على أقدامهم . ونسخت آن ماري من جديد روايتي الثانية ، بائع الموز ، على ورق لامع وانتقلت من يد إلى يد . وكانت مامي نفسها تشجعتني وكانت تقول : إنه عاقل على الأقل ولا يحدث ضيغاً ، ولحسن الحظ تأجل الاحتفال بتمجيدي بسبب عدم رضى جدي .

إن كارل لم يقبل أبدا ما كان يسميه « مطالعاتي الضارة » . وحين أعلنت له أمي أنني بدأت الكتابة ، سر في البداية كل السرور ، آملا على ما أعتقد — أن يرى تسجيلا لحياة أسرتنا اليومية وملاحظات لاذعة وسذاجات طريفة . وأخذ كراسي وقلب صفحاتها ولوى شفتيه . وغادر غرفة الطعام ، وقد أغضبه أن يجد بقلبي « بلاهات » ، صحتي المفضلة . ولم يهتم بعد ذلك بعمل . وحاولت أمي مرارا ، وقد آلمها موقف جدي ، أن تحايل عليه لكي يقرأ « بائع الموز » . فكانت تنتظر حتى يلبس شبيه ويجلس على كرسيه الوثير . وبينما كان يستريح صامتا ، بعين ثابتة قاسية ويدها على ركبتيه ، كانت تستولى على مخطوطي وتقلب صفحاته دون أي انتباه ، ثم تأخذ في الضحك وحدها وقد أخذت فجأة . وكانت تقدمه أخيرا إلى جدي في تأثر لا يقاوم ، وتقول له : « إقرأ يا بابا ! إنه لمضحك للغاية . » ولكنه كان يبعد الكرسي يده أو — إن ألقى عليها نظرة — فليشير إلى أخطائي الإملائية في غضب . و انتهى الأمر بأمي إلى الخوف : فلما كانت لا تجرؤ على تهنتي ولما كانت تخشى أن تؤلني فقد كفت عن قراءة كتاباتي حتى لا تجد ما تقوله لي .

ولما كان نشاطي الأدبي مسموحا به بصعوبة ومتجاهلا ، فقد انحدر إلى ما يشبه السرية ، ومع ذلك فقد تابته بمثابة عثابة : في أوقات الفسخ ، وفي يومي الخميس والأحد^(١) وفي العطلة الصيفية ، وعندما يسعدني الحظ وأمرض في سريري . وإني أتذكر نقاهة سعيدة ، كراسة سوداء بأطراف

(١) العطلة الأسبوعية لتلاميذ المدارس في فرنسا (المترجم)

حراء كنت آخذها وأتركها كأنها نسيج مطرز . وقل عملي في السينما إذ أن رواياتي حلت عندي محل كل شيء . وبالاختصار كنت أكتب لسرورى .

وتمددت عقد رواياتي، فأدخلت فيها الحوادث المختلفة أشد الاختلاف . وصيبت كل مطالعائي ، الجيدة والرديئة ، بلا نظام في هذه التجربة . لقد تأثرت القصص من هذا الحشو ؛ ومع ذلك فقد كان كسبا : إذ كان لابد من إيجاد وصلات وكان أن قلت سرقتي الأدبية . ثم قسمت نفسي قسمين . ففي العام الماضي حين كنت « أعمل في السينما » كنت أؤدى دورى وكنت أنعمس تماما في عالم الخيال وفكرت أكثر من مرة في أن أنعمق فيه بكليتي . ولما كنت مؤلما ، كنت لا أزال البطل ، وكنت أعكس عليه أحلامي للحمية . ومع ذلك فقد كنا اثنين : لم يكن يحمل اسمى وكنت لا أتكلم عنه إلا بضمير الغائب . وبدلا من أن أعيده حركاتى ، كنت أصنع له بكلمات جما كنت أزعج أنى أراه . إن هذا « البعد » المفاجئ كان في استطاعته أن يخيفنى : ولكنه سحرنى ؛ فقد فرحت بأن أكون « هو » دون أن يكوننى تماما . كان دميقي ، وكنت أطوعه حسب أهوائى ، كان في استطاعتي أن أعجم عوده ، أن أطعن جنبه بحربة ثم أعالجه ، كما كانت أى تمالجنى ، وأشفيه كما كانت تشفىنى . وكان المؤلفون الذين أفضلهم ، بما تبقى لهم من حياة ، يتوقفون في منتصف الطريق إلى السمى : وحتى عند زيارتنا لم يحدث قط أن تمدى شجاع أكثر من عشرين قاطع طريق في وقت مما أردت تطوير روايات للغامرات ، خفصتها من كل ما هو محتمل ، وضاعفت عدد الأعداء والمخاطر : فكى يتخذ المكتشف الشاب

خطيته وأبأها في رواية « من أجل فراشة » صارع ثلاثة أيام وثلاث ليال سلك القرش؛ وأصبح البحر أحمر في نهاية الأمر؛ وهرب المكتشف نفسه وقد أصيب بجراح من العزبة المحاصرة بقبيلة الأباش واجتاز الصحراء ماسكا أمعاء يديه ورفض أن يخاط بطنه قبل أن يتحدث إلى اللواء . وبعد ذلك بقليل قام المكتشف نفسه تحت اسم جوتز فون برلينجن بدحر جيش . كانت قاعدتي : واحد ضد الجميع ؛ وليحث عن مصدر هذا الحلم الحزين والعظيم في الفردية البورجوازية والبيوريتانية اللتين كانت تتميز بهما يثنى .

بطلا ، كنت أ كافع الطغيان ؛ وخالقا ، كنت أجعل من نفسي طاعة وعرفت كل إغراءات السلطة : كنت غير مؤذ فأصبحت شريرا . ما الذي ينمى من أن ألقا عيني ديزى ؟ كنت أجب نفسي ، وقد مت خوفا : لا شيء . وكنت أقتأها لها كما لو كنت انزع جناحي ذنابة . وكنت أكتب وقلبي يخفق : « وضعت ديزى يدها على عينيها : لقد أصبحت كفيفة ، وكنت أظل مرعوبا وقلبي في الهواء . لقد انتجت في المطلق حدثا صغيرا كان يخرجني بلذة . لم أكن ساديا حقيقة : إن فرحي الفاسد كان يتحول بسرعة إلى رعب ، وكنت ألقى كل مراسمي وكنت أملاها شطبا كي أجعلها غير مقروءة . كانت الفتاة تستعيد بصرها أو بالأحرى إنها لم تفقده قط . ولكن ذكرى نزواتي كانت تهذبني طويلا : فقد كنت ألق نفسي فلما خطيرا .

إن العالم المكتوب كان يقلقني أيضا : وحين كنت أمل المذابح الرقيقة

للأطفال ، كنت أترك نفسي تفرق ، وكنت اكتشف في القلق إمكانيات
مرعبة وعالمًا بشعًا لم يكن إلا الوجه الآخر لقدرتي الفائقة . وكنت أقول
في نفسي : كل شيء يمكن أن يحدث ! وهذا كان يعني أنني أستطيع أن
أتحيل كل شيء . ودائمًا وأنا على وشك تمزيق ورقتي كنت أقص وأنا
أرتعد فظائع تفوق الطبيعة . وحين يتفق لأحى أن تقرأ من فوق كتفي
كانت تصبح صيحة الانتصار والخطر : « يا له من خيال ! » كانت تغض
شفيتها وكانت تريد أن تتكلم ولا تجد ما تقوله فتهرب بخافة ، وكانت
هزيمتها تملأني قلقًا . ولكن الخيال لم يكن السبب . لم أكن أخترع
هذه البشاعات ، بل كنت أجدها مثل غيرها في ذاكرتي .

وفي ذلك المهد كان الغرب يموت اختناقًا : وكان ذلك ما أسموه
« عدوبة الحياة » ! ولعدم وجود أعداء مرثيين ، كانت البورجوازية
تتلذذ بإخافة نفسها بأشباحها . كانت تبادل مللها بقلق موجه . وكان
الناس يتحدثون عن مناجاة الأرواح والأشباح . وفي شارع لوجوف رقم ٢
في مواجهة تمارتنا كانوا يعملون الموائد تدور . كان ذلك يحدث في
الطابق الرابع : « عند المجوسى » ، كما كانت تقول جدتي . وكانت
أحيانًا تدعونا ، وكنا نصل في الموعد لنرى أزواجًا من الأيدي على مائدة
مستديرة قائمة على عمود واحد . ولكن أحدهم كان يقترب من النافذة
وكان يسدل الستائر . وكانت لويز تدعى أن هذا المجوسى كان يستقبل
أطفالًا في سنى تصحبهم أمهاتهم . وكانت تقول « إنى أراه : إنه يضع يديه
على رؤوسهم . » وكان جدى يهز رأسه منكرًا ، ولكن على الرغم من
إنكاره لهذه العادات فإنه لم يكن يجرؤ على السخرية منها ؛ كانت أمى

تخافها ، ولأول مرة كان يبدو القلق على جدتي أكثر مما يبدو عليها الشك . وأخيرا اتفقوا على أنه : « يجب على الخصوص عدم الاهتمام بذلك لأنه يؤدي إلى الجنون ! » وكانت القصص الغريبة شائعة ، وكانت الصحف ذات الاتجاه الديني تنشر قصتين أو ثلاث قصص منها في الأسبوع لهذا الجمهور الذي تجرد من مسيحيته والذي كان يندم على فقدته أهبة الإيمان . وكان القصص ينقل بكل موضوعية حلما مقلقا ، كان يترك نصيبا للوضعية ، وكان لابد للحدث على الرغم من غرابته ، أن يقتضي تفسيراً عقليا . وهذا التفسير كان المؤلف يبحث عنه ويحمده ويقدمه بأمانة . ولكن لا يلبث أن يتفنن في إقناعنا بعدم كفايته وبحقته . وكانت القصة تنتهي بعلامة استفهام ولا شيء غير ذلك ولكن هذه العلامة كانت كافية : كان العالم الآخر موجودا ، وكان رهيبا إلى حد عدم ذكره باسمه .

وحين كنت أفتح جريدة « الماتان » كان الرعب يجمدني . وأثرت في قصة من هذه القصص جميعا . ومازلت أتذكر عنوانها : « ريح في الأشجار » . في أمسية صيف كانت امرأة مريضة وحدها في الطابق الأول من منزل ريفي تقلب في سريرها ؛ ومن النافذة المفتوحة ، تدخل شجرة كستناء أغصانها في الغرفة : وفي الطابق الأرضي كان يجتمع عدد كبير من الأشخاص وكانوا يتحدثون وينظرون إلى الليل وهو يهبط على الحديقة . وجفاة أشار أحدهم إلى شجرة الكستناء : « أنظروا ! أنظروا ! توجد ريح إذن ؟ » . ويتمعجب القوم ويخرجون إلى الشرفة فلا يشعرون بنسمة واحدة ؛ ومع ذلك فأوراق الشجر تتحرك . وفي هذه اللحظة تسمع صرخة ! ويصعد زوج المريضة درجات السلم بسرعة ويرى زوجته الشابة .

واقفة على سريرها مشيرة إلى الشجرة باصبعها وتسقط ميتة. وعاد إلى شجرة
الكستناء جمودها الطبيعي. ما الذى رأته؟ مجنون فر من الملجأ: وهو
الذى أظهر وجهه المكسر وهو مختبئ في الشجرة. إنه هو، يجب أن
يكون هو بالمثل الذى لا يمكن لأى تفسير آخر أن يرضيه. ومع ذلك...
كيف لم يره أحد وهو يصعد؟ ولا وهو ينزل؟ كيف لم تنج الكلاب؟
كيف أمكن إلقاء القبض عليه بعد ست ساعات على بعد مائة كيلو متر من
المنزل؟ أسئلة بدون إجابة. وبدأ القصاص ققرة جديدة واختتم القصة في
عدم اكتمال بقوله: «إن كان لابد من تصديق سكان القرية فإن الموت
هو الذى كان يهز أغصان شجرة الكستناء.» وألقيت بالجريدة وضربت
الأرض بقدمي وقلت بصوت عال: «كلا كلا!» كان قلبي يخفق بشدة
واعتقدت ذات يوم أنه سيغمي علي وأنا في قطار ليروج أتصفح تقويم
هاشيت^(١)؛ فقد وقع نظري على صورة يقشعر لها البدن: رصيف تحت
ضوء القمر وملقط طويل خشن يخرج من الماء وينشب في رجل سكران
ويسحبه إلى قاع البركة. والصورة توضح نصا قرأته بشغف وينتهي
— أويكاد — بهذه الكلمات: «هل كانت تهيئات سكير؟ هل انفتحت
جهنم؟» وخفت من الماء والسرطابين والأشجار. وخفت من الكتب
على الخصوص: ولنت الجلادين الذين يحشون قصصهم بهذه الأشكال
الزهرية. ومع ذلك فقد قلبتهم.

كان لا بد طبعاً من مناسبة . عند جنوح النهار مثلاً : كان الظلام يغطي
غرفة الطعام ، كنت أدفع مكتبي الصغير إلى النافذة ، وكان القلق يبدو من
جديد . وإن وداعة أبطالي الذين لا يفارقهم السمو ، هؤلاء الذين
أنكروا وأعيد لهم اعتبارهم — قد انكشف ثقلهم . وكان الإلهام يأتي
حينئذ في هيئة كائن يترنح غير مرئي يسلب لبي ؛ وكى أراه كان لا بد من
وصفه . كنت أختم المغامرة الجارية بسرعة ، وأذهب بشخصياتي إلى
منطقة أخرى من الكرة الأرضية ، تحت البحر أو تحت الأرض عموماً ،
وكنت أسرع بتمريضهم لأخطار جديدة . وسواء كانوا غطاسين أو علماء
جيولوجيين مرتجلين ، فقد كانوا يعثرون على أثر الكائن ويقتفونه ويلتقون
به فجأة . وإن ما كان يظهر عندئذ تحت قلبي — أخطبوط بعينين من
نار ، وقواقع زن عشرين طناً وعنكبوت ضخم يتكلم — كان أنا نفسي ،
المسخ الطفلي . كان ملئ من الحياة وخوف من الموت ، كان تقاهق وفسادى .
كنت لا أعرف على نفسي : فبجرد ولادته كان المخلوق الدنس ينقلب على
وعلى علماء المياه الجوفية الشجعان . كنت أخاف على حياتهم ، كان قلبي
يتجسس... كنت أنسى يدى وأنا أخطأ الكلمات . كنت أتخيل أنى أقرأها .
وغالباً ما كانت تنف الأشياء عند هذا الحد : لم أكن أسلم الناس للوحش ،
ولكنى لم أكن أخلصهم من ورطتهم أيضاً ؛ وكان يكفي بالاختصار أن أصلهم
بعضهم ببعض : كنت أنهض وأذهب إلى المطبخ أو إلى المكتبة ؛ وفي الغد
كنت أترك صفحة أو صفحتين يضاوين وألقى بشخصياتي في مشروع جديد .
دروايات ، غريبة ، دائماً بلا نهاية ، ومعادة ، أو مكملّة دائماً كما اتفق
تحت عناوين أخرى . نفايات من قصص سوداء ومغامرات يضاء وأحداث

غريبة ومقالات مأخوذة من القاموس. لقد فقدتها وأقول في نفسي أحيانا:
يا للخسارة لو أنى فكرت في تحببها لأسلمتى اليوم كل طفولتى .

وقد بدأت أكتشف نفسى . لم أكن شيئا يذكر ، كنت على الأكثر نشاطا بلا محتوى ، ولكن لم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك . كنت أهرب من الهزل : لم أكن أعمل بعد ولكن كنت توقفت عن اللعب ، وكان الكذاب يحيد حقيقته في إعداد أكاذيبه . لقد ولدت من الكتابة وقبل ذلك لم يكن هناك سوى حركة مرايا ؛ ومنذ روايتى الأولى ، عرفت أن طفلا دخل في قصر المرايا . كان وجودى في الكتابة ، وكنت أهرب بها من الأشخاص الكبار ؛ ولكنى لم أكن أوجد إلا لأكتب . وإذا قلت : أنا ، فذلك يعنى : أنا الذى أكتب . ومهما يكن الأمر ، فقد عرفت السرور ؛ إن « الطفل العام » ضرب لنفسه مواعيد خاصة .

كان هذا أجمل من أن يستمر : ولو كنت حافظت على سرى لظلمت صادقا . لقد انتزعت منها . وكنت قد وصلت إلى السن التى اتفق الناس عندها على القول بأن الأطفال البورجوازيين يظهرون أولى علامات ميولهم . لقد أعلمونا منذ زمن أن أولاد خالى من أسرى شفايتزر ودى جيريني سوف يصبحون مهندسين كأيهم . لم تكن هناك دقيقة واحدة يمكن إضاعتها . وأرادت السيدة بىكار أن تكون أول من يكتشف العلامة التى كنت أحملها على جبهتى . قالت مقتنعة : إن هذا الصغير سوف يكتب ! . . . وانزعجت لوز وابتسمت ابتسامتها الصغيرة الجافة ؛ والتفتت بلانش بىكار نحوها وأعدت بقسوة : « لسوف يكتب ! لقد خلق ليكتب : » . وكانت أمى تعلم أن شارل لم يكن يشجعنى أبدا :

لقد خشيت أن تعمق الأمور وخفصتى بعين حسيرة وقالت : هل تعتقدين
 يا بلانش ؟ هل تعتقدين ؟ ، ولكن فى المساء بينما كنت أثب على سرىرى
 لا بساقمىسى ، ضغطت بقوة على كفى وقالت لى وهى تبسم : « إن رجلي
 الصغير سوف يكتب ! » وأخبر جدى فى حذر خشية إغضابه . واكتفى
 بهز رأسه منكرا ، وسمته يسر للسيد سيمونو ، الخميس التالى ، أن
 لا أحد ، فى خريف الحياة ، يستطيع أن يشاهد يقظة عبقرية دون أن
 يتأثر . واستمر يتجاهل خربشائى ، ولكن حين كان التلاميذ الألمان
 يأتون لتناول العشاء فى المنزل ، كان يضع يده على رأسى ويبعد وهو
 يفصل المقاطع الصوتية كى لا يفوت فرصة دون أن يعلمهم تعبيرات فرنسية
 بالطريقة المباشرة : « إنه مبال للأدب . »

لم يكن يؤمن بكلمة واحدة مما يقول ، ولكن ما العمل ؟ لقد حدث
 الضرر ؟ وقد يستفحل بمقاومتى : ولربما أعاند . لقد أعلن كارل ميلى
 ليحفظ بفرصة إثنائى عنه . كان لا يحقر ما توافق عليه المجتمع ،
 ولكنه كان يتقدم فى السن . وكان حماسه يتعبه ، ففى داخل فكره ،
 وفى صحراء باردة لا ترتاد إلا قليلا ، أنا واثق أنهم كانوا يعرفون جيداً
 ما يريدونه منى ومن العائلة ومنه . وذات يوم بينما كنت أقرأ مستقيا
 بين قدميه ، فى وسط هذا الصمت المتحجر الذى لا ينتهى والذى كان
 يفرضه علينا — خطرت له فكرة أنسته وجودى ؟ ونظر إلى أمى مؤاخذاً :
 « وإذا صمم على أن يعيش من قلبه ؟ ، إن جدى كان يقدر فرلين وكان
 لديه نخبة من قصائده . ولكنه يذكر أنه رآه ، فى سنة ١٨٩٤ ، داخلا
 « وهو يترشح كالحزير ، — حانوت بيع نبيذ فى شارع سان جاك . لقد

غرست فيه هذه المصادفة احتقاره للكتاب المحترفين ، صانعي المعجزات الهزأة الذين يطلبون جنبها ذهبيا ليروا لنا القمر ، وينتهي بهم الأمر بأن يروا لنا عجزهم لقاء مائة صولدي ^(١) . وبدأ على أمي الخوف ولكنها لم تجب . لقد كانت تعلم أن لشارل أهدافا أخرى لي . ففي أغلب مدارس الليسيه كانت كراسي اللغة الألمانية مشغولة بأستاذة أتراسيين اختاروا فرنسا ^(٢) فكوثفوا على وطنيتهم . ولما كانوا بين أمتين وبين لغتين ، فقد كانت دراساتهم غير منتظمة وكانت ثقافتهم ناقصة ؛ وكانوا يتألمون من ذلك ؛ كما كانوا يشكون من أن عداء زملائهم كان يحول بينهم وبين مجتمع المعلمين . سائئرا لهم ، سائئرا لجدى : كنت حفيذا لآتراسي وفرنسا من فرنسا في وقت معا . سوف يجعلني كارل أحصل على معرفة عالية . سأسير في الطريق الملكي : إن الأتراس الشهيدة ستدخل في شخصي مدرسة المعلمين العليا وتتجج نجاحا باهرا في مسابقة الأجر يجاسيون ^(٣) وتصبح هذا الأمير : أستاذ آداب . وذات مساء ، أعلن أنه يريد أن يكلمني كلام رجال ، فانسحبت المرأتان ووضعني على مركبتي وحدثنى بوقار ، إني سوف أكتب وهذا أمر مفروغ منه ، وكنت أعرفه معرفة كافية بحيث لا أخشى أن يقاوم رغباتي ، ولكن كان يجب

(١) عملة فرنسية قديمة كانت تساوي ١/٢ من الفرنك (المترجم)

(٢) بعد هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية ساحت منها مقاطعتا الأتراس

واللورين وضمتا إلى ألمانيا

(٣) مسابقة لاختيار مدرسين لمدارس الليسيه ولبعض الكليات .

أن نواجه الأشياء بجلاء .. إن الأدب لا يعول صاحبه . هلا أعلم أن كتابا مشهورين ماتوا جوعا ؟ وأن آخرين اضطروا أن يبيعوا أنفسهم لياكلوا ؟ فإن كنت أريد أن أحفظ باستقلالي كان من الأنسب أن أختار مهنة ثانية . إن التعليم يترك أوقات فراغ ؛ إن شواغل الجامعيين قرية من شواغل الأدباء وسوف أمر كثيرا من كهنوت إلى آخر ؛ سوف أعيش في حجة كبار المؤلفين ؛ وبجهد واحد سوف أكشف لتلاميذي عن مؤلفاتهم واتهم منها وحي . سوف أسلي وحدتي الريفية بنظم القصائد وبترجمة هوراس بأشعار غير مقفاة ، وسوف أبث للصحف المحلية أعمدة أدبية قصيرة ، وللمجلة التربوية مقالا رائعا عن تعليم اللغة اليونانية ، وآخر عن سيكولوجية المراهقين . وبعد موتى سوف يحدون في أدراجي مؤلفات لم تنشر ، وتأملا في البحر ، وملهاة من فصل واحد ، وبخنا عميقا ومؤثرا في بضع صفحات عن آثار أورياك تصلح أن تكون كتبيا يعنى بنشره تلاميذي القداماء .

ومنذ بعض الوقت ، حين كان جدى يبدى دهشته أمام فضائلى ، كنت أظن جامدا ؛ إن الصوت الذى كان يرتجف حبا وهو ينادىنى « هبة السماء » ، كنت أظن بالإنصاف إليه ، ولكن انتهى بي الأمر بعدم سماعه . لم أصغيت إليه فى ذلك اليوم ، فى الوقت الذى كانت فيه أذنى تكذب عن عمد تام ؟ وبأى سوء فهم جعلته يقول عكس ما كانت تزعم أن تعلمنى ؟ ذلك أنها تغيرت : لقد جفت وتصلبت ، فخلتها أذن الغائب الذى جعلنى أرى النور . كان لشارل وجهان : فحين كان يلعب دور الجدة ، كنت أعتبره مهرجا من نوعى فلا أحترمه . ولكن إذا تحدث إلى السيد

سيمونو وإلى أبنائه ، وإذا جعل امرأته تخدمته على المائدة وهو يشير
باصبعه — دون أن ينبس بكلمة — إلى وعاء الزيت أو سلة الخبز ،
كنت أعجب بسلطته . إن حركة سباته على الحصوص كانت تجعلني أهابه .
كان يحرص على عدم مدها وعلى تحريكها في الهواء بغموض ، وهي نصف
مثانة ، كي يكون المشار إليه غير محدود وكي تخمن خادمته أو امره .
وكانت جدتي تخطيء وقد عيل صبرها ، فتقدم له وعاء الفاكهة المطبوخة
بالسكر ، بينما كان يطلب ماء . كنت ألوم جدتي ، وأنحني أمام رغباته
الملكية التي تريد أن تسبق أكثر من أن تلبى . ولو أن شارل صاح من
بيد وهو يفتح ذراعيه : « ها هو ذا هوجو الجديد ، هذا شكسير
الصغير ! » ، لكنت اليوم رساما صناعيا أو معلم آداب . ولكنه حرص
على تجنب ذلك . ولأول مرة توجهت فيها للبطريك ؛ كان يبدو حزينا
ووقورا إلى الحد الذي جعله ينسى أن يعبدني ! كان موسى وهو عملي
الشريفة الجديدة ، شريعتي ! إنه لم يذكر ميلي إلا لينبهي إلى أضراره ،
فاستتجت أنه اعتبره أمرا مفروغا منه لو تنبأ لي بأنني سأبطل ورقتي
بدموعي أو أنني سأعمرغ على السجادة ، لأجفل اعتدالي البورجوازي .
لقد اقنعتي بموهبتي بأن جعلني أفهم أن هذه القوضى الفخمة لم تكن
عنصنة لي . فللبحث في أوريك أو في الترية ليست هناك حاجة إلى حمى
مع الأسف ولا إلى ضوضاء . إن نحيب القرن العشرين الخالد سوف يتكفل
به آخرون . ورضيت بالألا أكون زوبة أبدا ولا صاعقة ، وأن ألع في
الأدب بصفات بيتية ... بظرفي واجتهادي . وبدأت لي مهنة الكتابة نشاطا
لل كبار .. إنها غاية في الجدية وثاقفة ، وفي الحقيقة غير ذات أهمية إلى الحد

الذى جعلنى لا أشك لحظة أنها خصصت لى . قلت فى نفسى فى آن واحد :
 « ليس منى ذلك ، و « أنا موهوب ، . وككل الذين يعيشون على
 أوهام كاذبة خلطت زوال الوهم بالحقيقة .

لقد سلخنى كارل كما يسليخ جلد الأرنب : كنت أعتقد أتنى لن
 أكتب إلا لأثبت أحلامى ، بينما — لو صدقته — لا أحلم إلا لأدرب
 قلبى ! إن قلبى وأهوائى الخيالية لم تكن إلا جيل ملكتى ، ولم يكن لديها
 عمل سوى أن تعيدنى كل يوم إلى قمتى وأن تقدم لى الموضوعات القصصية
 التى تناسب سنى فى انتظار الاملاءات الكبيرة التى سألتقاها عن التجربة
 والنضوج . لقد فقدت أوهامى الخرافية . وكان جدى يقول : « لا يكفى
 أن تكون لنا عينان ، يجب أن تعلم كيف نستخدمها . هل تعلم ماذا
 كان يفعل فلوير حين كان موباسان صغيراً ؟ كان يجلسه أمام شجرة
 ويمطيه ساعتين ليصفها . ، فعملت إذن أن أرى . ولما كنت المنشد
 الموعود بصروح أوريلاك ، فقد نظرت بحزن إلى هذه الآثار الأخرى :
 كارتونة المكتب والبيانو والساعة التى سوف تحلدها هى أيضاً — ولم
 لا ؟ — أعمالى المستقبل . وجعلت ألاحظ . كانت لعبة محزنة ومحبة
 للأمل ، كان لا بد من الوقوف أمام الكرسي ذى المساند المنجد بالخمير
 الجيد وخصه . ما الذى يمكن أن يقال عنه ؟ إنه مغطى بقماش أخضر ،
 وخشن وإن له ذراعين وأربع أرجل ومسنداً حلى أعلاه بجوزتى صنوبر
 من خشب . كان ذلك كل شيء حتى تلك اللحظة ، ولكنى سأعود إليه
 وسأكون أحسن فى المرة القادمة ، وسوف ينتهى الأمر بى إلى معرفة
 معرفة دقيقة مفصلة . وبعد ذلك سوف أصفه ، وسوف يقول القراء :

« يا لها من ملاحظة دقيقة ، إننا نراه ، إنه هو ! هذه قسرات لا نتخزع ! »
ولما كنت أصور أشياء حقيقية ، بكلمات حقيقية كتبت بقلم حقيقي ، فإنه
من المؤسف ألا أصبح أنا أيضاً حقيقياً . وبالاختصار كنت أعرف نهايتها ،
بموجب الرد على المفكرين الذين يطلبون مني تذكري .

كنت أقدر بلا شك سعادتي ! وما كان يضايقي هو أنني لم أكن
أتمتع بهذه السعادة . كنت صاحب وظيفة ، لقد تفضلوا وجادوا علي بمستقبل .
وكنت أعلن أنه ساحر ، ولكنني كنت أكرهه سرا . هل طلبت وظيفة
الكاتب هذه ؟ إن معايشة الرجال الكبار أقنتني بأنه لا يمكن للمرء أن
يصبح كاتباً دون أن يصبح مشهوراً ؛ ولكن ، حين كنت أقارن المجد الذي
أصابني بالمؤلفات الصغيرة التي سوف أتركها خلفي ، كنت أشعر بانخداعي :
هل أستطيع أن أتصور حقيقة أن أحفاد أحوالي سوف يقرأوني كذلك ،
وأنهم سوف يتحمسون لعمل بهذا الصغر ، لموضوعات كانت تبعث في الملل .
مقدما ؟ كنت أقول في نفسي أحيانا أنني سوف أتخذ من النسيان بفضل
« أسلوب » ، هذه الفضيلة اللغزية التي كان جدي ينكرها على ستندال
ويعترف بها لريتان . ولكن هذه الكلمات التي بلا معنى لم تتوصل
إلى طمأنيتي .

كان لا بد من أن أتخلى عن نفسي قبل كل شيء . كنت قبل ذلك ،
بشهرين مبارزا بالسيف ومصارعا : ولكن ذلك قد انتهى . وأمرت بأن
أختار بين كورني وباردايان الذي كنت أحبه حقيقياً ؛ واخترت
كورني خضوعاً . لقد رأيت الأبطال يحرون ويتصارعون في اللوكسمبورج ؛

ولما كنت قد هزمت بجهاهم ، فقد فهمت أنني من فضيلة أدنى . كان لابد من إعلان ذلك ووضع السيف في غمده والحق بالماشية العادية ، ومعاودة الاتصال بكبار الكتاب ، هؤلاء الأقزام الذين لم يكونوا يخذونني . لقد كانوا أطفالا كسعاء ، وكنت أشبههم في ذلك على الأقل ، ثم أصبحوا بالغين ضعاف البنية وشيوخا مصابين بالنزلة الشعبية ، واسوف أشبههم في ذلك . لقد أرسل أحد البلاء من يضرب فولتير ، وربما يضربني بالسوط ضابط مدع قديم من هؤلاء الذين نراهم في الحداثق العامة .

واعتقدت مساماً بأنى موهوب : ففي مكتب شارل شفايترز ، بين الكتب المزهقة ذات الأغلفة الممزقة والأجزاء الناقصة ، كانت الموهبة هي أحقر ما يوجد على الأرض . وهكذا ، في عهد ما قبل الثورة ، كان عدد كبير من الجيل الأصغر المدين منذ ولادتهم للكهنوت ، يفضلون بذل نفوسهم من أجل قيادة فرقة من الجند . لقد أجملت في نظري إحدى الصور زمنا طويلا — أبهة الشهرة المشثومة : مائدة طويلة مغطاة بعفرش أبيض عليها قنينات شراب البرتقال وزجاجات النبيذ المزيد . كنت آخذ كأسا ، يحيط بي رجال بجلالهم الرسمية — كانوا خمسة عشر على الأقل — يشربون نخب صحتي ، وتبينت خلفنا رحابة قاعة مغبرة من القاعات التي تؤجر للحفلات . من الواضح أنى لم أكن أنتظر شيئاً بعد ذلك من الحياة سوى أن تجدد لى فى أواخر الحياة العيد السنوى لمعهد اللغات الحية .

وهكذا تشكل مصرى فى المنزل رقم ١ شارع لوجوف فى شقة بالطابق الخامس ، تحت جوته وشيلر ، وفوق مولير وراسين ولا فوتين

وفي مواجهة هنرى هينى^(١) وفكتور هوجو . وخلال أحداث أعيدت مائة مرة : كنت أنا وكارل نظرد المرائين وتعايق عناقا شديدا ، وكنا تابع هما محاورات الصم هذه ، وكانت كل كلمة منها تؤثر في . وبلسات صغيرة أحسن وضعها ، كان شارل يقنعني بأنى لست عبقرىا وبالفعل فأنا. لست عبقرىا ، كنت أعلم ذلك ولا أبالى به . ولما كانت البطولة غائبة وغير ممكنة فقد كانت هدف هواى الوحيد . إنها شعلة النفوس الفقيرة ، وإن تعاستى الداخلية ، وشعورى بأنى نافلة كانا يمنعانى من العدول عنها تماما . لم أكن أجرؤ على الفرح بعملى القادم ولكنى فى الواقع كنت مرعوبا . لا بد أنهم أخطأوا فى الطفل أو فى الموهبة . ولما كنت ضائما فقد قبلت ، طاعة لكارل ، المهنة المواظبة لكاتب قاصر . وبالاختصار فقد ألقى بى فى الأدب بالناية التى بذلها لصرفى عنه : إلى الحد الذى يدعونى حتى اليوم إلى أن أسأل نفسى ، حين يكون مزاجى عكرا ، إن لم أكن أنفقت كل هذه الأيام والليالى ، وملأت كل هذا الورق بحبرى ، وألقيت فى السوق كل هذه الكتب التى لا يتمناها أحد فى سبيل أمل وحيد ، مجنون ، أن أرضى جدى . إنه لمضحك أن أجد نفسى ، وأنا فوق الحسين ، سائرا ، كى أحقق رغبات رجل مات من زمن بعيد ، فى مشروع لن يتوانى عن إنكاره .

وفى الحقيقة إنتى أشبه سوان الذى شفى من حبه ويقول متنبها :

(١) شاعر ألمانى ولد فى دسلدورف ١٧٩٧ وتوفى فى باريس سنة ١٨٥٦ .
أشتهر بأشعاره الساخرة الحزينة (المترجم)

« لو أقول أنى أضمت حياتى من أجل امرأة لم تكن تناسبنى ا » إنى
أكون أحيانا فظا فى الخفاء : إنه تدبير محى بدائى . ولكن الفظ دائما
على حق ، ولكن إلى حد ما . صحيح أننى غير موهوب للكتابة ؛ لقد
قالوها لى ، وعاملونى على أنى قوى فى الترجمة إلى لغة أخرى : أنا واحد
من هؤلاء ، وتبعث من كبرى رائحة العرق والتعب ، إنى أعترف أنها تزكم
أنوف أرسقراطيينا . وغالبا ما كتبتها على الرغم منى ، أى على الرغم من
الجميع ^(١) ، فى جهد عقلى مفرط انتهى به الأمر أن أصبح توترا فى أوعيق
الدموية . لقد خاطوا لى وصاياى تحت جلدى : فإذا ظلمت يوما دون كتابة
آلمتنى الندبة ؛ وإذا كتبت بمنتهى السهولة آلمتنى أيضا . إن هذا المطلب
المعقد يدهشنى اليوم بصلابته وخرقه : إنه يشبه هذه السراطيين المزركشة
التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي يلقى بها البحر على شواطئ نويج ايلاند .
إنه يظل حيا مثلها ، بعد أزمنة ولت . لقد حسبت زمنا طويلا بوابى شارع
لاسييد حين يخرجهم المساء والصيف على الطوار وقد ركبوا على كراسيهم .
إن عيونهم البريئة ترى دون أن تكلف بالنظر .

غير أنه : فيما عدا بعض المسنين الذين يغمسون أقلامهم فى ماء
الكولونيا وبعض التحذلقين الذين يكتبون كالجزارين ، فإن الأقوياء فى
الترجمة إلى لغتهم لا وجود لهم . ويعود ذلك إلى طبيعة الكلمة . إننا نتحدث
بلقنتنا ونكتب بلغة أجنبية . استنتج من ذلك أننا جميعا سيان فى مهنتنا :

(١) سايروا أنفسكم بحكم السايرون الآخرون ، مزقوا جاركم فإن الجيران الآخرين
سوف يضحكون . ولكن إن ضربت روحك فإن كل الأرواح سوف تصرخ .

جميعنا محكوم علينا بالأشغال الشاقة، وجميعنا موشومون . وقد فهم القاريء أيضا أنني أكره طفولتي وما هو باق منها : صوت جدى ، هذا الصوت السجل الذى يوتظنى مرتجفا ويقذف بي إلى منضدتي ، وما كنت لأصنى إلى هذا الصوت لو لم يكن صوتي ، لو لم استرد لحسابي ، فى غطرسى ، وأنا بين الثامنة والتاسعة ، الأمر الصارم الذى كنت قد تلقته أيام ذلتى .

« إنى أعلم جيداً أننى لست إلا آلة

لعمل الكتب .»

(شاتوريان)

كدت أنقض وعدى . إن الموهبة التى اعترف كارل لى بها كرها ،
وقد رأى أنه ليس من الحكمة إنكارها تماماً — كنت لا أرى فيها فى
الواقع إلا صدفة غير قادرة على تحليل هذه الصدفة الأخرى التى هى أنا .
كان لأى صوت جميل ، فكانت تغنى إذن . ولكنها كثيراً ما كانت تسافر
بلا تذكرة . أما أنا ، فكنت ميالا للأدب : سوف أكتب إذن ،
سوف أستعمل هذا النجم طول حياتى . حسن . ولكن الفن
فقد — على الأقل بالنسبة لى — سلطاته المقدسة . سوف أظل
مشرداً — ولكن مجهزاً أحسن قليلا ، هذا كل ما فى الأمر . وكى أشعر
بضرورى ، لا بد من أن أطلب . لقد ربنتى عائلتى بعض الوقت فى هذا
الوهم ؛ وكررت على أننى هبة السماء ، وأننى منتظر جدا وضرورى لجدى
ولأسمى ، ولم أعد أصدق ذلك ؛ ولكنى احتفظت بهذا الشعور : إن المرء
يولد زائدا عن الحاجة ، إلا إذا جاء لهذا العالم خصوصا — من أجل
شئ ينتظره . إن كبريائى ووجدتى وصلا فى ذلك الوقت إلى الحد الذى
جعلنى أعنى الموت أو أن تطلبنى الأرض كلها .

لم أعد أكتب : إن تصريحات السيدة ييكار أضفت على مناجيات

قلبي أهمية لم أجرؤ معها بعد ذلك على متابعتها . وعندما أردت العودة إلى رواياتي ، لأتخذ على الأقل الفتي والفتاة اللذين تركتهما دون مؤن ولا قبعة المناطق الحارة في وسط الصحراء — عرفت أهوال العجز .
 فلما أن أجلس حتى يعتلى رأسي بالضباب . كنت أقضم أطافري وأنا أكرس وجهي . لقد فقدت البراءة . كنت أفق وأجول في الشقة بروح مضرم للنار ؛ ولكني ، ويا للأسف ، لم أشعل النار فيها قط . فلما كنت وديعاً بوضعي وذوقي وعادتي ، فإني لم أعد إلى التمرد بعد ذلك إلا لأنني كنت قد وصلت بخضوعي إلى أقصى حد . لقد اشتروا لي « كراسة واجبات » مغلقة بقماش أسود وباطراف حمراء . لم تكن فيها أية علامة خارجية تميزها عن « كراسة رواياتي » . وما أن نظرت إليها حتى اختلطت واجباتي المدرسية والترماني الشخصية بعضها ببعض ، كنت أطابق المؤلف على التلميذ ، والتلميذ على معلم المستقبل . كانت الكتابة وتعليم قواعد اللغة شيئاً واحداً ؛ لقد أمم قلبي وسقط من يدي وظللت عدة شهور دون أن أغود إلى الإمساك به . كان جدي يبتسم في سر حين كنت أجز عبوسي إلى مكتبته : لاشك أنه كان يقول في نفسه أن سياسته كانت تحمل ثمراتها الأولى .

ولكنها أخفقت لأن رأسي كانت ملحمية . لقد تحطم سيفي وألقي بي مع العامة ، وغالباً ما كنت أحلم بهذا الحكم المقلق ، كنت أحلم أنني في اللوكسمبورج ، بالقرب من البركة في مواجهة مجلس الشيوخ ؛ كان على أن أحمي من خطر غير معروف — بنتا صغيرة شقراء تشبه فيني التي كانت قد ماتت قبل ذلك بعام . كانت الصغيرة تتطلع إلى بعينها الرزيتين

في هدوء وثقة ؛ وغالبا ما كانت تمسك بطوق . كنت أنا الخائف : كنت أخشى أن أتركها لقوى غير مرئية . ومع ذلك كم كنت أحبها أى حبه حزين ، وما زلت أحبها ؛ لقد بحثت عنها وفقدتها ، ووجدتها وضممتها . بذراعى وفقدتها ثانية . هذه هى اللحمة . وفى الثامنة من عمرى ، فى الوقت الذى كنت سأسلم فيه اتابتنى رجفة عنيفة . وكى أقتد هذه اليتمة الصغيرة ، ألقيت بنفسى فى عملية بسيطة وجنونية حولت مجرى حياتى : لقد أعطيت للكاتب سلطات البطل المقدسة .

لقد كان هناك اكتشاف أو بالأحرى تذكر فى الأصل — ذلك أن قلبى حدثنى به قبل ذلك بسنتين : حدثنى أن المؤلفين الكبار يتون إلى الفرسان الجائلين بأن هؤلاء وأولئك يشيرون الشواهد المفعمة بعرفان الجليل . وبالنسبة لبارديان ، لم تكن هناك حاجة إلى برهان : إن دموع اليتيمات الشاكرات قد حضرت مجرى فى ظهر يده . ولكن إذا صدقنا قاموس لاروس الكبير وتراجم التوفين التى كنت أقرأها فى الجرائد ، فإن الكاتب لم يكن أقل حظوة . فإذا حدث وطال به العمر ، ينتهى به الأمر حتما إلى أن يتسلم خطابا من مجهول يشكره . ومنذ هذه اللحظة لا ينقطع سيل خطابات الشكر ، وتتراكم على مكتبه وترحم شقته ؛ ويحتاج بعض الأجانب البحار ليخبروه ؛ وبعد موته يكتب مواطنوه ليشيدوا له نصبا تذكاريا ؛ فى المدينة التى ولد فيها . وأحيانا فى عاصمة بلده تحمل اسمه بعض الشوارع . إن هذا التكريم لم يكن يهمنى فى ذاته : إنه يذكرنى كثيرا بالتمثيلية العائلية . غير أن صورة أهاجتنى : إن ديكز الروائى الشهير سيصل بالبحر بعد بضع ساعات إلى نيويورك ، وتشاهد من بعيد السفينة التى تقله .

ويتجمع الجمهور على الرصيف ليرحب به ويفتح كل أفواهه ويلوح بالرفقة . إن الزحام شديد لدرجة أن الأطفال يحتمون ، ومع ذلك فهذا الجمهور وحيد ويقيم وأرمل وقفر لغياب واحد ، وهو الرجل الذي ينتظر وصوله . وعمت : « ينقص شخص واحد هنا ، وهذا الشخص هو ديكز ! » وصعدت الدموع إلى عيني . ومع ذلك فقد نجت هذه التأثيرات ورجعت رأساً إلى أسبابها ، وقلت في نفسي : كي يهتف لرجال الأدب هذا الحشود الجنوني لابد أنهم يواجهون أشد المخاطر ، ويقدمون للانسانية أجل الخدمات . لقد حضرت مرة واحدة في حياتي مثل هذا الجماس الشديد . وكانت القبعات تتطاير ، وكان الرجال والنساء يصيحون : مرحي ، مرحي . كان ذلك في عيد ١٤ يوليو ^(١) ، وكان القناصة الجزائريون يمرون في الاستعراض العسكري . إن هذه الذكرى انتهت بإقناعي : فعلى الرغم من عيوبهم الجسمية وتكلفتهم وأثويتهم الظاهرة ، كان زملائي أنواعاً من الجنود ، كانوا يخاطرون بحياتهم جنوداً غير نظاميين في معارك غامضة . إنهم يصفقون لشجاعتهم العسكرية أكثر مما يصفقون لموهبتهم . قلت في نفسي : هذا حق إذن ! إننا في حاجة إليهم . ففي باريس ونيويورك وموسكو ينتظرونهم في قلق شديد أو في إعجاب شديد قبل أن ينشروا كتبهم الأولى قبل أن يبدأوا في الكتابة ، بل قبل أن يولدوا .

ولكن ... أنا ؟ أنا الذي رسالته الكتابة ؟ إنهم كانوا ينتظرونني . لقد حولت كورني إلى باردايان : احتفظ بساقيه الموحيتين وصدرة الضيق

(١) عيد الثورة الفرنسية الكبرى ثورة ١٧٨٩ (المترجم) .

ووجهه الشاحب ، ولكنى نزعته عنه بخله وجهه للريح ، لقد خلطت عمداً
 فن الكتابة بالكرم . وكان من السهل بعد ذلك أن أحول نفسى إلى
 كورنى وأن أعطى نفسى هذا التوكيل : حماية النوع . إن خدعتى الجديدة
 كانت تعد لى دوراً غريباً ؛ لقد ربحت فى الحال كل شيء . ولما كنت
 ردىء الطبع ، فقد بحث بمجهوداتى لأولد ثانية : إن توسلات البراءة التى
 فى خطر قد أثارتنى ألف مرة . ولكن كان ذلك للزواج . ولما كنت فارساً
 مزوراً ، فقد قمت بيطولات مزورة ، أدى عدم صلابتها إلى تفزى منها .
 ولكن هام ردون لى أحلامى وتحقق هذه الأحلام . ذلك أن دعوتى
 كانت واقعية ، ولا أستطيع أن أشك فى ذلك بما أن الكاهن الكبير قد
 كفله . ولما كنت طفلاً خيالياً ، فقد أصبحت مغامراً حقيقياً قد تكون مفاخره
 كتباً حقيقية . كنت مطلوباً ! كانوا ينتظرون عملى ، ولم يظهر جزؤه الأول
 على الرغم من جهدى قبل سنة ١٩٣٥ . وفى حوالى سنة ١٩٣٠ بدأ صبر
 الناس ينقد ، ويقولون فيما بينهم : « إن هذا الرجل يتباطأ ! إنه يطعم
 منذ خمس وعشرين سنة دون أن يفعل شيئاً ! هل سموت دون أن تقرأه ؟ »
 وكنت أجيهم بالصوت الذى كان لى فى سنة ١٩١٣ : « أتركوا لى وقتاً
 للعمل ! » ولكنى بلطف . كنت أرى جيداً - والله وحده يعرف السبب -
 أنهم فى حاجة إلى مساعداتى ، وأن هذه الحاجة قد جعلتنى أنا الوسيلة
 الوحيدة لإجابة هذه الحاجة . كنت أجتهد لمباغثة هذا الانتظار العالمى فى
 أعماق نفسى ، ينبوعى الحى وسبب وجودى ، كنت أعتقد أحياناً أننى
 على وشك النجاح ، ولكن بعد لحظة ، كنت أترك كل شيء فى سيئه .
 ومهما يكن الأمر : فإن هذه الإيماءات كانت تكفينى . وأنظر إلى الخارج

مطمئناً فلربما كنت ناقصاً في بعض الأماكن . ولكن لا : فما زال الوقت مبكراً . ولما كنت هدفاً جليلاً لرغبة ما زالت تجهل نفسها ، فقد قبلت بفرح أن أظل بعض الوقت مبتكراً . وكانت جدتي تصحبني أحياناً إلى قاعة المطالعة ، فكنت أتسلى برؤية سيدات طويلات القامة ، حالمات وغير راضيات ، ينتقلن من حائط إلى آخر بحثاً عن المؤلف الذى يشفى غليلهن : ولكن كن لا يعثرن عليه لأنه كان أنا ، هذا الطفل الذى كان بين أرجلهن ولا ينظرن إليه .

كنت أضحك خبثاً وأبكي شفقة : لقد قضيت حياتي القصيرة مبتكراً لنفسى أذواقاً وآراء متحيزة كانت لا تلبث أن تذوب . ولكن ها هم يسبرون غورى ويصطدمون بالصخر . كنت كاتباً كما كان شارل شفايتزر جداً : بالولادة وإلى الأبد ! ولكن كان يحدث أن يبرز قلق تحت الحماس : إن الموهبة التى كنت أعتقد أن شارل كفلها ، كنت أرفض أن أعتبرها حادثة ورتبت أمرى لأجعل منها انتداباً ، ولكن لعدم وجود تشجيع ومطالبة حقيقية ، فإني لم أكن أستطيع أن أنسى أننى كنت أعطى هذه الموهبة لنفسى . ولما كنت خارجاً من عالم ما قبل الطوفان ، ففي اللحظة التى كنت أنقلت فيها من الطبيعة لأصبح أخيراً أنا ، هذا الآخر ، الذى كنت أدعى أننى هو فى عيون الآخرين ، كنت أواجه مصرى ، وقد تعرفت عليه : لم يكن سوى خربق واقفة أمامى بفضل جهودى ، كأنها سلطة غريبة . وبالاختصار ، فإني لم أتوصل إلى خداع نفسى تماماً . ولا أن أتيقظ تماماً . كنت أُنذبذب . وبمث ترددى مشكلة قديمة إلى الحياة : كيف أضمر يقين ميشيل ستروجوف إلى كرم بردايان ؟ وحين كنت فارساً لم أتلق

أوامر قط من الملك ؟ هل يجب أن أقبل أن أكون مؤلفا بالأمر ؟ ولم يكن الضيق يطول كثيراً أبداً ؛ كنت فريسة لاعتقادين متعارضين ، ولكنى كنت أرتضى تناقضهما تماماً . بل كان ذلك يلائنى فأكون هبة السماء وابن أعمالى فى نفس الوقت . وفى أيام اعتدال مزاجى ، كان كل شيء ينبعث من داخلى . وكنت أنفقت من العدم بقوى الذاتية لى أقدم للناس المطالعات التى يتمنونها . ولما كنت طفلاً خاضعاً ، فإنى سوف أطيع حتى الموت ، ولكن ... نفسى . وفى ساعات الحزن ، حين كنت أشعر بالتفاهة المنفرة لاستعدادى ، لم أكن أستطيع أن أهدي نفسى إلا باستعجال قدرى . لقد استدعيت النوع الإنسانى وأسندت إليه مسئولية حياتى فأنا لم أكن إلا نتاج مطلب جماعى . وفى أغلب الأحيان ، كنت أراعى راحة قلبى ، مجتهداً ألا استبعد استبعاداً كاملاً — الحرية التى تحبس ، ولا الضرورة التى تبرر .

كان فى استطاعة باردايان وستروجوف أن يعيشا متفقين . كان الخطر فى مكان آخر ، وقد وجدتني شاهداً فى مواجهة مكروهة ، اضطرتنى فيما بعد أن أتخذ بعض الاحتياطات . إن المسؤل الكبير هو زيفاً كوالدى لم أكن أشك فيه ؛ هل أراد أن يضايقنى أو أن يحذرني ؟ الواقع أنه ذات يوم فى ملبريد وفى خان ، حين كنت لا أنظر إلا لبرديان ، وكان هذا السكين يستريح وهو يشرب كأساً من النبيذ يستحقه تماماً ، لفت هذا المؤلف انتباهى إلى زبون لم يكن سوى سرفاتيس . وتعارف الرجلان وأبدى كل منهما تقديره للآخر وذهبا ليحاولا مما القيام بهجوم فاضل . والأسوأ من ذلك أن سرفاتيس أسر ، وهو كله سعادة ، إلى صديقه

الجديد ، أنه يريد أن يكتب كتابا . وحتى ذلك الوقت ، كانت الشخصية الرئيسية للكتاب لا تزال غير واضحة . ولكن ظهر بحمد الله بردايان ليكون نموذجا له . واستولى على الغضب وكادت ألقى بالكتاب . يا لها من قلة ذوق ! لقد كنت كاتباً فارساً ، وكانوا يقسمونني نصفين ، وكان كل نصف يغدو إنساناً كاملاً ويقابل النصف الآخر وينازعه . لم يكن بردايان أبلاً ، ولكنه لم يكن قط يكتب دون كيشوت . إن سرفانتيس يتعارك جيداً ، ولكن لم يكن من المتوقع أن يهزم وحده عشرين من الجنود المرتزقة الهاريين . إن صداقتهما نفسها كانت تؤكد حدودهما . وكان الأول يقول في ذاته « إن هذا المدعى الضحك لضعف الصحة بعض الشيء ولكن الشجاعة لا تنقصه . » ويقول الثاني في نفسه : « بالنسبة لجندى من الجنود المرتزقة ، فإن تفكير هذا الرجل ليس سيئاً للغاية . » ثم إنى لم أكن أحب قط أن يعتبر بطلي نموذجا لفارس « الوجه الحزين » . ففي أيام « السينما » أهديت الطبعة المهدبة لدون كيشوت ، ولم أقرأ منها أكثر من خمسين صفحة . كانوا يسخرون علانية من بطولاتى ! وها هو ذا زيفا كو نفسه ... فيمن أثق إذن ؟ لقد كنت فى الحقيقة عاهرة ، بنتا من البنات اللواتى يعاين الجنود . إن قلبى ، قلبى الجبان كان يفضل المغامر على الفكر ؛ كنت خجلاً لأننى لم أكن سوى سرفانتيس . وكى أمتع نفسى من أن أخون ، جعلت السيادة للارهاب فى رأسى وفى مجموعة مفرداتى ، فقد كنت أطارد كلمة البطولة وبديلاتها ، وأبعدت الفرسان الجائلين ، وكنت نفسى دون انقطاع عن رجال الأدب وعن الأخطار التى يتعرضون لها ، وبين قلمهم الحاد الذى كان يطمئن الأشرار . وتابعت

قراءة بردايان وفاوست والبؤساء وأسطورة القرون ، وبكيت على جان فالجان^(١) وايفيرادنوس ، ولكن حين كنت أقفل الكتاب ، كنت أمسح أسماءهم من ذا كرتي وكنت أعم على فيلقى الحقيق . سيلفيو بليكو : المسجون مدى الحياة . أندريه شنييه^(٢) : الذى ضرب عنقه بالمقصلة . اتيين دوليه^(٣) : الذى أحرق حيا . بايرون الذى مات من أجل اليونان . واجتهدت بأنفعال فى تغير وجه موهبتى بأن صبيت فيها أحلامى القديعة ولم يثنى شيء : فلويت الأفكار ، وحرفت معنى الكلمات ، وتحصنت من العالم خوفا من الالتقاءات السيئة والمقارنات . وحلت التبعة الكاملة والدائمة مكان فراغ نفسى : فقد أصبحت دكتاتورية عسكرية

واستمر القلق فى شكل آخر : ليس هناك أفضل من شجذ ملكتى . ولكن ما جدواها ؟ لقد كان الناس فى حاجة إلى .. ولم ؟ لقد سألت نفسى للأسف عن دورى وعن مصرى . وسألت : « وأخيرا ... ما الأمر ؟ » وفى هذه اللحظة ، خلت كل شيء قد ضاع . لا شيء ! ليس بطلا كل من يريد أن يكون بطلا ، ولا تكفى لا الشجاعة ولا الموهبة ... لا بد من وجود أفاع ذات سبعة رؤوس وتنانين . لم أكن أرى منها شيئا فى أى مكان . إن فولتير وروسو تصارعاً بهمة تعساء فى زمانهما : ذلك أنه كان لا يزال هناك طغاة . وأنزل هوجو صواعقه من جزيرة جرنيزيه على

(١) بطل رواية البؤساء لفكتور هوجو (المترجم)

(٢) شاعر فرنسى ولد فى الأستانة سنة ١٧٦٢ . اشترك فى الحركة الثورية . أول الأمر ثم احتج على تطرف عهد الارهاب فاعدم على المقصلة سنة ١٧٩٤ .

(٣) فقيه فى اللغة وطابع فرنسى ولد فى سنة ١٥٠٩ . أحرق فى باريس سنة ١٥٤٦ لأرائه الجريئة (المترجم) .

بادانجيه^(١) ، الذى كان جدى علمى أن أكرهه . ولكنى لم أكن أحس
بمزة فى إعلان كراهيتى ، ذلك أن هذا الامبراطور كان قد مات منذ
أربعين سنة . وظل شارل صامتا فيما يتعلق بالتاريخ المعاصر . إن هذا
الشايع للضابط دريفوس لم يحدثنى قط عن دريفوس . يا للأسف ! فأى
حماس كنت سألعب دور زولا^(٢) ، فإذا قرعت وأنا خارج من المحكمة
فأنى كنت عندئذ التفت ورأى وأنا على درج عريق ، وأحطم أكثر
هؤلاء المقرعين هياجا . كلا ، كلا : كنت سأجد كلمة مرعبة ترددهم على
أعقابهم . وأرفض أنا بلا شك أن أفر إلى إنجلترا . وبإلها من سعادة أن
أصبح جريزليديس ثانية ، بعد أن أنكروني وخذلوني ، وأن أذرع
طرقات باريس ، دون أن أشك لحظة أن الباشيون^(٣) ينتظرنى .

كانت جدتى تتسلم كل يوم صحيفة « اثاتان » ، وإن لم أخطيء ، صحيفة
« الاكسليور » . لقد عرفت وجود اللصوصية والاحتيال اللذين كنت
أكرههما مثل كل الشرفاء . ولكن هذه النور ذات الوجه البشرى لم
تكن لترضينى : إن السيد ليين^(٤) الجسور كان يكفى لكبحها . وكانت
العمال يغضبون أحيانا فلا تلبث رؤوس الأموال أن تطير ، ولكنى لم أعلم

(١) الأمبراطور نابليون الثالث الذى هاجم حكمه الكاتب الفرنسى فكتور
هوجو (المترجم) .

(٢) دانع أميل زولا الكاتب الفرنسى عن دريفوس وطالب بإعادة محاكمته
(المترجم)

(٣) منوى عظماء فرنسا وقد دفن فيه أميل زولا (المترجم) .

(٤) مدير الشرطة الفرنسية من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩١٢ (المترجم)

شيئاً عن ذلك وإني لأجهل أيضاً رأى جدى فى ذلك . كان يؤدى بدقة واجباته كمنخب . كان يخرج بعد أن يدلى بصوته وقد استرد شبابه وبدا مزهواً ببعض الشيء . وحين كانت امرأتانا تعيظانه بسؤاله « قل لنا لمن تعطى صوتك ! » كان يجيب بحفا : « إنها مسألة تخص الرجال ! ، ولكن حين استخب رئيس الجمهورية الجديد ، أفهمنا ، فى لحظة عدم تكلف ، أنه يرثى لترشيح بامن^(١) ، وصاح بسورة غضب : « إنه بائع سجاير ! » . إن هذا المثقف الذى ينتمى إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة كان يريد أن يكون الموظف الأول فى فرنسا أحد أترابه ، مثقفاً من الطبقة البورجوازية الصغيرة ... بوانسكاريه^(٢) . وتؤكد لى أمى اليوم أنه كان يطمى صوته للحزب الراديكالى ، وأنها كانت تعلم ذلك جيداً . إني لا أدعش لذلك : فقد اختار حزب الموظفين . ثم إن الراديكاليين كانوا باقين على قيد الحياة ، وكان شارل مجد الرضى بأن يصوت لحزب نظام باعطائه صوته لحزب حركة . وبالاختصار ، فإن السياسة الفرنسية ، إن صدق ، كانت تسير على ما يرام .

وكان ذلك يحزننى : فقد تسلحت لأدافع عن البشرية ضد أخطار مروع . وكان الجميع يؤكدون لى أنها كانت تسير ببطء نحو الكمال . لقد ربانى جدى على احترام الديمقراطية البورجوازية التى من أجلها كنت أخرجت قللى من غمده عن طيب خاطر ؟ ولكن فى عهد رئاسة فالير^(٣)

(١) يقصد الرئيس فالير (المترجم)

(٢) رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠ (المترجم)

(٣) أرمان فالير رئيس الجمهورية الفرنسية من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩١٣ (المترجم)

كان الفلاح له حق التصويت : فما الذى يمكن أن يطلب فوق ذلك ؟ وما الذى يعمل به جمهورى ما دام قد سعد بالعيش فى جمهورية ؟ إنه يطرق أعصابه ، أو يعلم اليونانية ويصف آثار أورباك فى أوقات فراغه . لقد عدت إلى النقطة التى بدأت منها ، وتخيلت أننى أختق مرة أخرى فى هذا العالم الذى لا منازعات فيه ، والذى يؤدى بالكاتب إلى البطالة .

إنه شارل كذلك الذى أخرجنى من حيرتى ، دون علمه بالطبع . قبل ذلك بستين ، كى ينهينى لاجئ الآداب القديمة ، قدم لى أفكارا لم يعد ينطق منها بكلمة ، خوفا من أن يشجع جنونى . ولكن هذه الأفكار كانت قد انحرفت فى ذهنى . لقد عادت ، دون جلبة ، مقعولها . ولإيقاظ ما هو جوهرى ، حولت شيئا فشيئا الكاتب الفارس إلى كاتب شهيد . كنت قد ذكرت كيف أن هذا الراعى الناقص ، الأمين على رغبات أبيه ، قد احتفظ بالإلهى ليصبه فى الثقافة . ومن هذا المزيج الغريب ولد الروح القدس ، صفة الجوهر اللانهائى ، حامى الآداب والفنون واللغات الميتة أو الحية وطريقة التعليم الباشرة ، حمامة يضاء كانت تفيض على عائلة شفايتزر بظهورها ، وكانت ترفرف يوم الأحد فوق الأرغن والفرق الموسيقية ، وتخط فى أيام العمل على رأس جدى . وإن أحاديث كارل القديمة بعد جمعها فى رأسى قد ألفت خطبة : إن العالم فريسة الشر ، وليس هناك إلا خلاص واحد : أن تنصرف تماما عن أنفسنا ، عن الأرض ، وأن تتأمل من أعماق ما غرق — الأفكار المستحيلة . ولما كان لا يمكن التوصل إلى ذلك إلا بتدريب صعب وخطر فقد عهد بهذا العمل إلى هيئة من الإخصائين . لقد تولى الكهنوت عبء البشرية وأخذها بفكرة .

الشفاعة : إن لوحوش العالم الديوى ، صفاروا وكبارا الوقت الكافى ليقسوا أو ليعيشوا فى خدر حياة بلا حقيقة ، بما أن الكتاب والفنانين يتأملون الجمال والخير وهم قابعون فى أما كنهم . ولاقتلاع النوع كله من الحيوانية لا بد من شرطين فقط : أن تحتفظ فى دور محروسة بمخلفات رجال الثقافة التوفين وهى اللوحات والكتب والتماثيل ؛ أن يظل عالم واحد على الأقل على قيد الحياة ليكمل المهمة ويضع ذخائر المستقبل .

إنه لميت فذر : كنت أزدرده دون أن أفهمه تماما ، كنت مازلت أؤمن به وأنا فى العشرين من عمرى : ومن أجل هذا العبث ، اعتبرت العمل الفنى طويلا حدثا ميتافيزيقيا يهتم لمولده الكون . لقد أخرجت من تحت التراب هذا الدين المقترس واتخذته ديننا لى لأطلى بالذهب دعوتى العتمة : لقد ابتليت صفائن وفظاظات لم تكن لى أبدا ولم تكن لجدى كذلك ، لقد سمعنى غيظ فلوير وجونكور وجوتيه القديم ؛ إن كراهيته المجردة للانسان التى أدخلت فى تحت قناع الحب عدتتى بادعاءات جديدة . وقد أصبحت ملحدا وخطت بين الأدب والصلاة وجلت منها ضحية بشرية . وقررت أن اخوانى سوف يطلبون منى فقط أن أكرس قلبى لا فتدائهم : إنهم يتألمون من عدم كفاية وجودهم التى ، لولا شفاعة القديسين ، يكون مآلها الفناء الدائم ؛ وإن فتحت عينى كل صباح وإن رأيت ، وأنا أجرى إلى النافذة ، رجلا ونساء يمرون فى الشارع ولا يزالون أحياء ، فذلك لأن عاملا فى غرفة كافح من النقص إلى الشفق ليكتب صفحة خالدة تعطينا مهلة يوم . وسوف يعاود الكرة عندما يأتى

الليل ، هذا المساء وغدا ، حتى يموت من البلى ؛ وأحل محله : وأنا أيضاً سوف أوقف الجنس البشرى على حافة الهاوية بقربانى الصوفى ، بعملى ؛ لقد ترك العسكرى مكانه فى السر للكاهن : ولما كنت بارسيفال (١) فاجما فقد قدمت نفسى كفارة . ومنذ اليوم الذى اكتشفت فيه شاتكلير (٢) ، تسكونت عقدة فى قلبى : عقدة أفاع كان لا بد من ثلاثين سنة لحلها : إن هذا الديك يجد طريقه لحماية حظيرة الطيور كلها ، على الرغم من تمزيقه وادمائه وضربه ، إن صياحه كاف لجعل الصقر يولى الأدبار والجمهور الدنى . يتملقه بعد أن سخر منه ؛ وعندما يحتمى الصقر يعود الشاعر إلى الحركة ، إن الجمال يوحى إليه ويضعف قواه ويهجم على عدوه ويخندله . وبكى : إن جريزيليديس وكورنى وبردايان كنت أجدهم جميعا فى شخص واحد : إن شاتكلير هو أنا . كل شيء بدا لى بسيطا : إن الكتابة هى إضافة لؤلؤة لعقد عرائس الشعر ، هى ترك ذكرى حياة مثالية للأجيال القادمة ، هى الدفاع عن الشعب ضد نفسه وضد أعدائه ، هى انزال بركة السماء على الناس بقداس احتفالى . ولكن لم يطرأ على بالى أنه يمكننا الكتابة كى نقرأ .

(١) دراما موسيقية من ثلاثة فصول . نظمها ولحنها ر. واجنر فى سنة ١٨٨٢ . وهى آخر عمل من أعمال هذا الحن ومن أكثرها تأثيرا . إن فكرة القداء تتحول نحو تعبير صوفى (المترجم)

(٢) تمثيلية شعرية تأليف آدمون روستون (١٩١٠) أشخاص هذه التمثيلية حيوانات ترمز إلى اعوجاج الإنسان وأهوائه (المترجم)

إننا نكتب لجيراننا أو لله . وقررت أن أكتب لله لأخلص جيراني .
كنت أريد عارفين بالجميل لا قراء . إن الاحتقار كان يفسد كرمي . فمن
الوقت الذي كنت أحمي فيه اليتيمات ، بدأت أخلص منهن بارسالهن
ليختبن . ولما أصبحت كاتباً لم تغير طريقي : فقبل أن أخلص البشرية ،
سوف أبدأ بتمصيب عينيها ؛ وعندئذ فقط ، أنبرى للمرتزة الصغار السود
السريعين ، أنبرى للكلمات ؛ وحين تجرؤ يقيمى الجديدة على أن تفك
العصبة ، سوف أكون بعيداً ؛ ولن تلحظ في أول الأمر ، وقد أشقته
شجاعة وحيدة ، المجلد الصغير الذي يشع على رف من رفوف المكتبة
الأهلية ، والجديد كل الجدة الذي سوف يحمل اسمي .

إنى أترافع على أساس الظروف الخفيفة ، وهى ثلاثة . كنت أطرح
للمناقشة أولاً ، خلال حلم صاف ، حقى فى الحياة . فى هذه البشرية التى
لا تحمل جواز مرور والتى تنتظر ارادة الفنان التحكية ، تعرف على
الطفل التخم بالسعادة الذى يتملبل على محبته ، لقد قبلت خرافة القديس
البعيضة ، هذا القديس الذى يخلص السوقه ، ذلك لأن السوقه هى أنا آخر
الأمر : وأعلنت أننى النقد الرسمى للجماهير فضلاً عن تحقيق خلاصى سرا
و بالمناسبة ، كما يقول اليسوعيون .

ثم إنى كنت فى التاسعة من عمري . ولما كنت ابناً وحيداً وبدون
رفيق ، لم أكن أتخيل أن يكون لمرأتى نهاية . يجب أن اعترف بأنى

كنت مؤلفاً مجهولاً تماماً . فقد عاودت الكتابة . إن رواياتي الجديدة لعدم توافر ما هو أفضل منها — كانت تشبه القديعة بمخاديفها ، ولكن لا أحد كان يعرف ذلك ، حتى أنا الذي كنت أكره أن أعاود قراءة ما أكتب : كان قلبي سريعاً بحيث كثيراً ما كان معصمى يؤلمني ؛ كنت ألقي على الأرضية الحشوية الكراسيات مملثة ، وكان ينتهي بي الأمر بنسيانها وكانت تحتني ؛ ولهذا السبب لم أكن أنهي شيئاً : فما جدوى أن أقص نهاية قصة ما دامت بدايتها قد فقدت . ومن ناحية أخرى ، لو أن كارل تفضل وألقى نظرة على هذه الصفحات ، لما كان « قارئاً » في نظري ، ولكن قاضياً أعلى ، ولحشيت أن يحكم علي . إن الكتابة ، عملي الأسود ، لم تكن تحيل إلى شيء ، وكانت تعتبر نفسها غاية في ذاتها : كنت أكتب للكتابة . وإنني لا أندم على ذلك : ولو كنت أقرأ لحاولت أن أرضى ولعدت عجبياً . ولأنني كنت أكتب سرا ، فقد كنت صادقا .

وأخيراً فإن مثالية العالم الأديب كانت تقوم على واقعية الطفل . لقد قلت ذلك آنفاً لأنني اكتشفت العالم خلال اللغة ، فقد اعتبرت اللغة العالم زمناً طويلاً . إن الوجود كان امتلاك تسمية محققة ، في مكان ما على الجداول اللانهائية للكلمة ؛ وكانت الكتابة حفر كائنات جديدة على هذه الجداول أو — وكان ذلك أعند أوهايم — صيد الأشياء الحية بفتح الجمل : لو أنني كنت أرتب الكلمات بعهارة ، لكبلت الموضوع بالرموز المعبرة عنه وهي تلك الكلمات . وبدأت في اللوكسمبورج أتعجب من صورة شجرة صنار لا معة : كنت لا أراقبها بل على العكس تماماً ، كنت أضع ثقتي في الفراغ ، وانتظر ؛ وبعد لحظة ، كان ورقها الحقيقي يخرج

في مظهر صفة بسيطة أو أحيانا في مظهر جملة كاملة : لقد أثريت الكون
 بمخضرة رجراجة . ما وضعت قط على الورق الأشياء التي عثرت عليها :
 كنت أقول في نفسي إنها تراكم في ذاكرتي . والواقع أنني كنت أنساها
 ولكن كانت تشعرني مقدما بدوري في المستقبل . سوف أفرض أسماء .
 ومنذ عدة قرون في أورياك ، كانت هناك أكوام من البياض لقيمة لها
 تطالب بحدود ثابتة ، بمعنى أنني سوف أصنع منها آثارا حقيقية . ولما كنت
 إرهائيا فاني لم أكن أهدف إلا لذاتها : سوف أكونها باللغة ؛ ولما كنت
 عالما في البيان فاني لم أكن أحب سوى الكلمات : سوف أشيد كاتدرائيات
 من الكلام تحت العين الزرقاء لكلمة سماء . سوف أبني لآلاف السنين .
 حين كنت آخذ كتابا ، كنت عبثا أفتحه وأقفله عشرين مرة فأرى جيدا
 أنه لم يكن يتغير . وحين كان نظري يمر على النص ، هذا الجوهر الذي
 لا يفسد ، فانه لم يكن سوى حادث سطحي صغير ، إنه لم يكن يضايق شيئا
 ولا يلي . أما أنا فقد كنت سليا وسريع الزوال ، بعوضة مبهورة تحترقها
 أضواء منارة ؛ وغادرت المكتب وأطفاأت الضوء : غير مرئي في الظلام
 كان الكتاب لا يزال يشع ؛ لذاته . سوف أعطي لمؤلفاتي عنف هذه
 الأضواء الفجائية القارضة وسوف تعيش بعد الانسان في المكتبات المهدامة .

لقد رضيت بظلامي ونميت أن أطيله وأجعل منه فضلا لي . وحسدت
 العققلين المشهورين الذين كتبوا في زنزانات على ورق كان يستعمل أيام
 الاضاءة بالشموع . لقد كانوا قد احتفظوا بواجب افتداء معاصريهم
 وفقدوا واجب معاشرتهم . وبالطبع فان تقدم العادات قلل فرصى في أن

أستمد ملكتي من الحبس ، ولكني لم أفقد أملی تماما : إن الناية ، وقد أذهلها تواضع طموحي ، سوف تهتم بتحقيقه . وإلى أن يتحقق سوف أحجر على نفسي سلفا .

ولما كان جدی يحاول خداع أی ، فإنها لم تكن تترك فرصة دون أن تصور أفراحي المستقبل : وكى تغريبي كانت تضع في حياتي كل ما كان ينقص حياتها : هدوء البال ، ووقت الفراغ ، والوثام ؛ فحين أعادو مدرسا شابا لا يزال عزبا سوف تؤجر لي سيدة عجوز جميلة غرفة مريحة تنبعث منها رائحة الخزامى والياسات النظيفة ، سوف أذهب إلى اللسيه في قفزة وأعود في قفزة ؛ وفي المساء سوف أقف على عتبة بابي لكي أترقب مع صاحبة الغرفة التي سوف تشغف بي ؛ وعلى أی حال فإن الجميع سوف يحبوني لأنني سأكون مجاملا وحسن الترية . كنت لا أسمع سوى كلمة واحدة : غرفتك ، وكنت أنسى اللسيه وأرملة الضابط الكبير ورائحة الأقاليم ، وكنت لا أرى غير دائرة من الضوء على منضدتي : في وسط غرفة غارقة في الظلام ، الستائر مسدلة ، كنت منحني على كراسة من النيل الأسود . كانت أی تستمر في قصتها فتقفز عشر سنوات إلى الأمام : إن مفتشا عاما سوف يحميني ، ويحتمع أوريالك الراقى يرغب في استقبالي ، وزوجتي الشابة تكن لي أحن حب ، وأنجب منها أطفالا جمالا مكتملي الصحة ، ولدين وبناتا ، وترث وأشتري أرضا في أطراف المدينة وبنى منزلا وكل أحد تذهب العائلة جميعها لتفقد أشغال البناء . كنت لا أصغى لشيء : خلال هذه السنوات العشر لم أترك منضدتي : قصير وذو شارب مثل أی وجالس على كومة من القواميس ، كان شاربي يبيض ، إن

معصمى يجرى دائماً وتسقط الكرايس على الأرضية الحشب الواحدة
بعد الأخرى . إن الإنسانية نائمة ، والوقت ليل ، امرأتى وأولادى
نائمون مالم يكونوا قد ماتوا وصاحبة غرفتى نائمة ؛ إن النوم قد عانى من
كل الذكرات . يالها من عزلة : ملياران من الناس بالطول وأنا فوقهم
الرقيب الوحيد .

كان الروح القدس ينظر إلى . كان فى التو قد اتخذ قرار العودة إلى
السماء والتخلي عن البشر ؛ لم يكن لدى إلا الوقت الذى أقدم فيه نفسى ،
وأريته جروح روحى ، والدموع التى تبلل ورقتى ، كان يقرأ من فوق
كتفى وسكن غضبه . هل هذا بسبب عمق الآلام أو بسبب عظمة العمل ؟
كنت أقول فى نفسى : بسبب العمل ؛ وكنت أفكر خفية : بسبب الآلام .
يبد أن الروح القدس لا يقدر إلا الكتابات الفنية حقيقة ولكننى كنت
قد قرأت ، موسىه ، وعرفت أن الأغاني الأكثر بأساً هى أجمل الأغاني ،
وكنت قد قررت النقاط الجمال يأس واقع فى الفخ . إن كلمة عبقرية بدت
لى دائماً كلمة مشكوكا فيها : وذهبت إلى حد التقزز منها تماماً . أين يكون
القلق ، أين يكون الاختبار ، أين يكون الاغراء الفاشل ، أين يكون
الفضل أخيراً ، إن كانت لدى الملكة ؟ كنت أتحمل بصعوبة أن يكون لى
نفس الجسم ونفس الرأس كل الأيام ، كنت لن أترك نفسى تسجن فى
جهاز . لقد قبلت تعينى على شرط ألا يستند على شىء ، أن يلع ، بجانا ،
فى الفراغ المطلق . كانت لى مقاضات مع روح القدس : كان يقول لى
« سوف تكتب » . وكنت أقول له وأنا ألوئى يدي : « ما الذى عندى ،
أيها السيد ، كي تختارونى ؟ » — « لا شيئاً خاصاً . » — « لم أنا إذن ؟ »

— « بدون سبب . » — « هل لدى على الأقل بعض السهولة في الكتابة ؟ » — « ليست لديك أية سهولة . أنتقد أن الأعمال الكبرى تولد من الأقلام السهلة ؟ » « يا سيد ، بما أننى على هذا القدر من العجز ، فكيف أستطيع أن أولف كتاباً ؟ » — « باجتهادك . » — « فأى إنسان يمكن أن يكتب إذن ؟ » — « أى إنسان ، ولكن أنت الذى اخترت . » إن هذا التحايل كان مريحاً جداً : كان يسمح لى بإعلان تفاهتى وفي الوقت نفسه بأن أبجل فى نفسى مؤلف روائع المستقبل . لقد استخيت ووسمت ولكن بدون موهبة : كل شيء سوف يأتى بصبرى الطويل وعصائبي ؛ كنت أنكر كل تفرد فى نفسى : إن ملامح الطبع تبرز ؛ لم أكن مخلصاً لشيء سوى للارتباط الملكى الذى يقودنى إلى المجد بالعذابات .بقى أن أجد هذه العذابات ؛ كانت المشكلة الوحيدة ولكن كان يبدو أنها غير قابلة للحل بما أنهم زعوا منى أمل العيش تعيسا : سواء كنت مجهولاً أو مشهوراً ، فإننى سوف أكون مقيداً فى ميزانية التعليم ، ولن أجوع أبداً : ووعدت نفسى بأحزان حب كبيرة ولكن بلا حماس : كنت أكره المحبين المرتعدين ؛ كان سيرانو يحقق ، هذا البردايان للزور الذى كان يقول هراء أمام النساء : إن بردايان الحقيقى كان يحجر كل القلوب خلفه دون أن ينتبه لذلك ؛ ومن الصواب أن تقول إن موت فيوليتا ، حبيته ، قد طغنت قلبه إلى الأبد . ترمل وجرح لا يندمل : بسبب ، بسبب امرأة ولكن لا بخطأ منه ؛ إن ذلك سوف يسمح لى بأن أرد مساعى كل الأخريات . وإن تعمقت فى الموضوع . ولكن ، لو سلت على أى حال ، بأن زوجتى الشابة التى من أورياك تموت فى حادثة ، فإن

هذه المصيبة لن تكفى لانتخابي : إنها طارئة وعادية جداً في وقت معنا ..
لقد انتصرت غضبي على كل شيء ؛ إن بعض المؤلفين الذين سخر منهم
وضربوا ، ظلوا حتى النفس الأخير في العار والظلام ولم يكلل المجد إلا
جثهم : ذلك مياساً كونه . سوف أكتب عن أورباك وعن تماثيلها
بموجب الضير . ولما كنت عاجزاً عن أن أكره ، فإني لن أهدف إلا
للتوفيق والخدمة . ومع ذلك ، فإن كتابي الأول سوف يطلق الفضيحة
بمجرد ظهوره ، سوف أصبح عدوا عاما : سوف تسبني الجرائد التي تصدر
في مقاطعة الأوفرنى وسوف يرفض التجار خدمتي وسوف يحطم المتحمسون
زجاج نوافذي ؛ ولا يجوز من تنفيذ الجماهير حكم الإعدام في ، لا بد لي من
الهرب . سوف أصاب بالصرع أول الأمر وأقضى أشهرا في البلاهة ،
مكرراً بلا انقطاع : « ليس هذا سوى سوء تفاهم ! لأن الناس جميعا
طيون ! » وبالفعل فإن ذلك لن يكون إلا سوء تفاهم ، ولكن الروح
القدس لن يسمح بزواله . وسوف أبرأ ؛ وذات يوم سوف أجلس إلى
منضدتي وسوف أكتب كتابا جديداً : عن البحر أو عن الجبل . ولن
يجد هذا الكتاب نائراً . ولما كنت مطارداً ومتخفياً وربما منفياً ، سوف
أكتب كتباً أخرى ، كتباً كثيرة أخرى ، سوف أترجم هوراس بالشعر
سوف أعرض أفكاراً متواضعة ومعقولة جداً عن علم التربة . ولكن
عشا : سوف تتكلم كراساتني في حقبة كبيرة دون نشر .

إن للقصة خاتمتين ؛ سوف اختار الواحدة أو الأخرى حسب مزاجي .
ففي أيامي البائسة أتصور نفسي أموت على سرير حديدي مكروها من الجميع
يائسا في الساعة نفسها التي يضع المجد فيها فمه على تقيره . وأحيانا أخرى

كنت أمنح نفسي بعض السعادة . ففي سن الخمسين ، لأجرب قلداً جديداً
كتبت اسمي على مخطوط ضائع بعد وقت قليل . ووجده أحدهم في الطابق
الذي تخزن فيه الجيوب ، في النهر ، في خزانة داخل حائط بالمزل الذي
تركته أخيراً ، قرأه ، وحمله مضطرباً إلى أرتيم فايار الناشر الشهير
لمؤلفات ميشيل زيفاكو . كان ذلك نصراً : عشرة آلاف نسخة تخاطفها
الناس في يومين . كم من تدم في القلوب . وأبصر مائة مخبر صحفي للبحث
عني ولم يثروا علي . ولما كنت معتزلاً عن الناس فقد جهلت زمناً طويلاً
هذا التحول في الرأي . وذات يوم أخيراً ، دخلت مقهى لأحتسى من المطر
فلمحت جريدة متروكة ورأيت فيها « جان بول سارتر ، الكاتب انقنع ،
الذي تغني بأوريالك ، شاعر البحر . » ينط كبير على ستة أعمدة وحروف
التاج . فطرت فرحاً . كلا : إني أتلذذ بسوداويتى . وعلى أى حال فقد
عدت إلى غرفتي وبمساعدة صاحبها قفلت وربطت الحقية الكبيرة التي
تحوى الكراسيات وشعنتها إلى فايار دون أن أعطي عنواني . وفي هذه
اللحظة من قصتي ، توقفت لأخوض في تدابير لذيذة : لو أني أرسلت
الطرد من ذات المدينة التي أقيم فيها لأسرع الصحفيون إلى اكتشاف عزلي
حملت إذن الحقية إلى باريس ، وأرسلتها بواسطة وكيل نقل إلى دار
النشر ؛ وقبل أن آخذ القطار ، عدت إلى أما كن طفولتي ، إلى شارع
لوجوف وشارع سوفلو وحديقة اللوكسمبورج . لقد اجتذبتني حانة البازار
وتذكرت أن جدى — وقد توفي منذ ذلك الوقت — كان يصحبني إليها
أحياناً ، في سنة ١٩١٣ : وجلسنا جنباً إلى جنب على المقعد ، وكان الجميع
ينظرون إلينا وكأنهم متواطئون معنا ، وكان يطلب كوباً كبيراً من البيرة

ويطلب لى كوبا صغيراً ، كنت أشعر بأننى محبوب. إذن ، وأنا فى الحسين من عمرى وآسف على الماضى ، دفعت باب الحانة وطلبت كوبا صغيراً . وإلى المائدة القرية جلست شابات حسناوات يتحدثن بحوية وينطقن اسمى . وقالت إحداهن : « آه ! قد يكون عجوزاً وقد يكون دميماً ولكن ما أهمية ذلك : إبنى أعطى ثلاثين سنة من حياتى كي أصبح زوجته ! » لقد وجهت إليها ابتسامة غفيرة وحزينة وأجابتنى بابتسامة متعجبة وقت واختفيت .

قضيت وقتاً كثيراً فى تأليف هذه الحلقة ومئات الحلقات الأخرى التى أعنى القارئ منها . سوف يعرفون خلالها على طفولتى نفسها وقد أسقطت على عالم مستقبل ، وعلى وضعى وابتكارات سننى السادسة وعلى تمرّد فرسانى الغامرين الذين لم يعترف بقدرهم . لقد تمرّدت أيضاً وأنا فى التاسعة من عمرى وكنت أفرح بذلك فرحاً بالغا : وبالتمرّد كنت أحافظ ، وأنا شهيد قاس ، على سوء فهم كان الروح القدس نفسه يبدو أنه سئمه . لماذا لم أقل اسمى لهذه المعجبة الساحرة ؟ لقد قلت فى نفسى : لقد جاءت متأخرة كثيراً — ولكن بما أنها تقبلنى بأى حال ؟ — إذن لأننى فقير للغاية — فقير للغاية ! وحقوق التأليف ؟ إن هذا الاعتراض لم يوقفنى : لقد كتبت إلى فايار أن يوزع على الفقراء المال المائد لى . ولكن كان لابد من الحانة : حسناً ! فقد انطلقت فى غرفتى الصغيرة ، وقد تركنى الجميع ولكنى كنت مشرقاً : فقد أدبت رسالتى .

إن شيئاً أثر فى ، فى هذه القصة التى تكررت ألف مرة : ففند اليوم

الذى رأيت فيه اسمى في الجريدة ، فإن لوليا قد انكسر ، لقد انتهت ؛
 إنى أتمتع بحزن بشهرتى ولكنى لم أعد أكتب . إن التهايتين ليستا إلا
 نهاية واحدة : سواء مت لأوله للمجد أو آتى المجد أولا وقتلنى ، فإن شبهة
 الكتابة تخفى رضا للحياة . فى حوالى ذلك العصر هزت قصة مشاعرى
 لا أعرف أين قرأتها : حدثت فى القرن الماضى ؛ فى محطة صغيرة فى سيبيريا
 كاتب يتمشى ذهابا وإيابا فى انتظار القطار . ليس هناك أى كوخ فى
 الأفق ولا أثر لحياة . إن الكاتب يتألم وهو يحمل رأسه الضخمة الحزينة .
 إنه مصاب بقصر النظر وعزيب وفظ ودائم الغضب ؛ إنه يتضايق ، ويفكر
 فى بروساتته وفى ديونه . وتظهر كونه شابة فى عربتها على الطريق الذى
 يسير فى محاذاة القضبان الحديدية : إنها تقفز من العربات وتجرى نحو المسافر
 الذى لم تره أبداً ولكن تدعى أنها تعرفه عن صورة فوتوغرافية أروها لها ،
 إنها تتحنن وتأخذ يده اليمنى وتقبلها . إن القصة تقف عند هذا الحد
 ولا أعرف ما الذى تريد أن تفهمنا إياه . ففى التاسعة من عمرى كنت
 أتمتع بهذا المؤلف التذمر الذى وجد قارئاته له فى الاستبس ، ولأن سيدة
 على هذا القدر من الجمال جاءت لتذكره بالمجد الذى نسيه : إنها ولادة .
 ولكنها موت فى الواقع : كنت أشعر بذلك وكنت أريده كذلك ؛ إن
 أحد أفراد عامة الشعب لم يكن يستطيع أن يحصل من ارستقراطية على مثل
 هذا الدليل على الإعجاب . كان يدعى الكونتيسة أنها تقول له : « إن
 كنت تمكنت من الحىء إليك ومن لسك ذلك أنه لم تعد هناك أية حاجة
 للمحافظة على ارتفاع الطبقة ؛ إنى لا أهتم بما سوف تراه من عملى ، فلم
 أعد أعتبرك إنسانا ولكن رمزاً لملك . » لقد قتل بقبلة على يده : على

بعد ألف فرست^(١) من سانت بطرسبورج وعلى مدى خمس وخمسين سنة من مولده ، إن مسافراً قد ثار إن مجده يغنيه ولا يترك منه بحروف من لهب إلا قاعة مؤلفاته . ورأيت الكونتيسة تصعد إلى عربتها وتحتفى ويعود الاستبس إلى عزله؛ وفي الغسق لا يقف القطار في المحطة ليموض تأخيرته ، لقد شعرت في تجويف كليتي بقشعريرة الخوف ، وتذكرت دريح في الأشجار ، وقلت في نفسي : « إن الكونتيسة هي الموت ، لسوف تأتي : ذات يوم في طريق مقفر ، وتقبل أصابعي .. »

كان الموت دوارى لأتني لم أكن أحب الحياة : ذلك ما يفسر الهلع الذي كان يوجهه إلى . وبتائه مع المجد جعلته وجهتي . أردت الموت ؛ وأحياناً كان الهول يجمد فراغ صبرى : ولكن ليس لزمن طويل ؛ كان فرحي القدس يعث من جديد ، وأنتظر لحظة نزول الساعة لأشتمل حتى العظم . إن نياتنا العميقة هي مشروعات وهروب مترابطة دون فكاك : إن مشروع الكتابة المجنون الذي يميز وجودى أرى جيداً أن فيه بعض الواقع على الرغم من التبعجات والأكاذيب : والبرهان على ذلك أتني ما زلت أكتب بعد خمسين سنة . ولكن إن رجعت إلى الأصول رأيت هروباً إلى الأمام ، واستجاراً ساذجاً ، نعم كنت أبحث عن الموت أكثر من بحثي عن اللحمة والاستشهاد . لقد خشيت زمناً طويلاً أن أنهى كما بدأت في أى مكان وبأية طريقة ، وأن يكون هذا الموت المبهم انعكاساً لولادتي

(١) الفرست يساوى ١٠٦٧ متراً . وكان مستعملاً في روسيا القيصرية .

(المترجم)

المهمة . إن موهبتي غيرت كل شيء : إن ضربات السيف تزول ، ولكن
الكتابات تبقى ، واكتشفت أن المعطى ، في الآداب ، يمكن أن يتحول
إلى عطائه نفسه ، أى إلى شيء خالص . لقد جعلتني الصدقة إنسانا وسوف
يجعلني الكرم كتابا ، سوف استطع أن أصب رسالتي وضميري في حروف
من برونز وأن أحل محل ضوضاء حياتي كتابات لا تمحى ومحل لمحي أسلوبي
ومحل لولية الزمن الرخوة ، الأبدية وأن أبدو أمام الروح القدس ترسيما
للغة ، وأن أصبح فكرة ملحة على الجنس البشرى ، وأخيراً أن أكون
مختلفا ، مختلفا عن نفسي وعن الآخرين وعن كل شيء . سوف أبدأ
بإعطاء نفسي جنبا لا يئلى ثم أسلم نفسي للمستهلكين . لن أكتب للسرور
الذى تجلبه الكتابة ولكن كي أبحث جسم المجد هذا في الكلمات . وعندما
أتأمل ولادتي من أعلى قبري فإنها تبدو لي شراً لا بد منه ، وتجيئاً
مؤقتاً بعد تغير هياتي : كي أولد من جديد كان يجب أن أكتب ، وكى
أكتب كان لا بد من مخ ومن عيني وذراعي ؛ فإذا ما انتهى العمل
فإن هذه الأعضاء تحتفى من لقاء نفسها : ففي حوالى سنة ١٩٥٥ انفجرت
يرقة وخرج منها خمس وعشرون فراشة من القطع الكبير ترفرف بكل
صفحاتها لتحط على رف من رفوف المكتبة الأهلية ، إن هذه الفراشات
ليست سوى . أنا : خمسة وعشرون مجلداً وعمانية عشر ألف صفحة
مكتوبة وثلاثمائة صورة ، من بينها صورة المؤلف . إن عظامي من جلد
ومن الورق المقوى ولحمي شاحب تبعث منه رائحة الصمغ وعش التراب
وخلال ستين كيلو جراما من الورق أتعاطم بكل راحة . إنى أولد من
جديد ، وأصبح أخيراً إنسانا كاملا ، يفكر ويتكلم ويغنى ويصيح ويثبت

وجوده بفضل القصور الذاتى. وبما خذوننى ويقتحوننى ويسيطوننى على المنفعة
ويتحسسوننى براحة اليد وأحياناً يمحوننى أفرقع . وأتركهم يفعلون بى
ما يريدون ثم ألع خائفة ، وأبهر وأفرض نفسى من بعد ، إن سلطائى تعبر
الفضاء والزمان وتصق الأشرار وتحمى الأبرار . لا يستطيع أحد أن
يلسانى أو ألا يتحدث عني : إبنى تمويدة كبيرة ، سهلة التداول ومرعبة .
إن ضميرى متفت : وهذا أفضل . إن ضمائر أخرى تولت أمري . إنهم
يقرأوننى وأنا واضح ؛ ويكلموننى وأنا على كل الألسنة ، لغة عالمية
وفريدة ، وأجمل من نفسى بالنسبة للملايين الأنظار تحفة جديدة بالدراسة
وبالنسبة للذى يعرف كيف يحببى ، فأنا موضع قلقه السكامن فى أعماقه ،
ولكن إن أراد أن يلسنى ، فإنى أعجى واحتفى : إبنى لا أوجد فى أى
مكان ، إبنى أكون أخيراً ! أكون فى كل مكان ، متطفلا على الإنسانية
فإن حسانى تمذبا وتجرها دائماً على بحث غيابى .

وتنجح هذه الخدعة : وأكفن الموت فى كفن المجد ، لم أعد أفكر
إلا فى هذا المجد لا فى هذا الموت أبداً ، دون أن ألاحظ أنهما ليسا إلا
واحداً . وفى الوقت الذى أكتب فيه هذه الأسطر ، فإنى أعرف أننى
أخذت زمنى تقريبا . ومع ذلك فإنى أتحيل بوضوح ، دون ابتهاج كبير ،
الشيخوخة التى تقترب وهى القادم ، هرم وموت الذين أحبهم ؛ أما موتى
قائدا . ويحدث لى أن ألع لأقربائى — وبعضهم يصغرنى بخمس عشرة
أو بعشرين أو ثلاثين سنة — بأننى سوف أحزن كثيراً على بقاءى حياً
بعدهم : فيستخرون منى وأضحك معهم ولكن لن يحدث ذلك : فى التاسعة
من عمرى حرمتنى عملية جراحية فى عيني من القدرة على الاحساس بأشياء

لازمة لمهنتنا . وبعد ذلك بعشر سنوات ، وفي مدرسة المعلمين أيقظت حاجة هذه الحالة بعضا من خير أصدقائي . مرعويين أو مغناطين : كنت انخر كقارع الأجراس . بعد مرض خطير أكد لنا أحدهم أنه عرف أهوال الاحتضار حتى آخر نفس ؛ كان نيزان أكثرهم قلقا : فكان أحيانا يرى نفسه جثة في عز سهاده ؛ وكان ينهض ، وقد امتلأت عيناه بالودود ويأخذ وهو يتحسس في الظلام قبعة الإيطالية ذات القلنسوة المستديرة ويحتفي ؛ وكان يثر عليه في اليوم الثالث سكران مع بعض الأشخاص غير المروفين . وأحيانا ، في غرفة ، كان هؤلاء المحكوم عليهم يقصون بعضهم لبعض ليالهم البيضاء وتجاربهم السالفة عن العدم : كانوا يفهمون بعضهم بعضا بالتلميح السريع . وكنت أصغى إليهم وكنت أحبهم بحيث كنت أعنى بكل جوارحي أن أشبههم ، ولكن عينا ، فإنني لم أكن أفهم ولم أكن أحفظ إلا أقوالا عادية من التي تردد في المآتم : إتنا نعيش ونموت ، ولا نعرف من الذي يعيش ومن الذي يموت ؛ قبل الموت بساعة واحدة نكون أحياء بعد . لم أكن أشك أنه يوجد في حديثهم معنى لا أفهمه ؛ كنت أسكت . تأكلني الغيرة . وكأني في النفي . وكانوا يلتفتون إلى آخر الأمر متضايقين سلفا : « إلا يؤثر ذلك فيك ؟ » وكنت أفرد فزاعي دليلا على عجزى واستكانتى . وكانوا يضحكون غيظا وقد بهرهم الوضوح الخفيف الذي لم يتمكنوا من نقله لى « ألم تقل في نفسك أبدا وأنت تنام أن هناك أناسا يموتون أثناء نومهم ؟ ألم تفكر أبدا وأنت تغرس أسنانك ؟ أن تلك هي المرة ، وذلك هو يومى الأخير ؟ ألم تشعر أبدا بأنه يجب الإسراع ، الإسراع ، الإسراع . وأن الوقت غير كاف ؟ أعتقد أنك خالد ؟ » كنت أجيب نصف متحد

ونصف مندفع : « نعم : أعتقد أنى خالده . » لم يكن هناك أكثر زيفاً من ذلك : فقد كنت توقيت من الموت الفجائى ، هذا كل ما فى الأمر ؟ لقد طلب جنى الروح القدس مؤلفاً ضخماً ، وكان لابد أن يترك لى الوقت لإكماله . ولما كنت ميتاً شرفياً ، فإن موتى الذى كان يحمىنى من حوادث خروج القطارات من الخطوط واحتقان الرئة والتهاب البريتون : لقد ضربنا لأنفسنا موعداً أنا وهو ؛ فإذا وصلت إلى الموعد مبكراً ، فإننى لن أجدّه ، وفى استطاعة أصدقائى أن يأخذوا على عدم تفكيرى فيه : إنهم يجهلون أنى لم أقطع دقيقة واحدة من العيش فيه .

واليوم فإنى أعطيهم الحق : لقد قبلوا كل شىء فى وضعنا ، حتى الهلق ؛ بينما اخترت الاطمئنان ؛ وفى الواقع ، كان اعتقادى بأنى خالده أمراً حقيقياً جداً : لقد قتلت نفسى سلفاً ذلك لأن الموتى هم وحدهم الذين يتمتعون بالخلود . كان « نيزان » و « ماهو » يعرفان أنهما سوف يكونان موضع اعتداء وحشى ، وأنهما سوف ينزعان من العالم وهما ممتلكان حياة ودما . أما أنا ، فكنت أكذب على نفسى : ولا تنزع من الموت بربريته ، فقد جعلته هدفى ، ومن حياتى الوسيلة المعروفة للموت : إننى أذهب ويدا إلى نهائى ، وليس لى من آمال ورغبات إلا ما يلزم لأملاً كتبى ، متأكداً من أن آخر نبضة من قلبى سوف تسجل على آخر صفحة من آخر مجلد من مؤلفاتى وأن الموت لن يأخذ إلا ميتاً . كان « نيزان » ينظر ، وهو فى العشرين من عمره ، النساء والسيارات وكل متاع هذا العالم فى عجلة شديدة يائسة : كان لابد أن يرى كل شىء وأن يأخذ كل شىء فى الحال . وكنت أنا أيضاً أنظر نظرة بها من الحماسة أكثر مما بها من

الاشتهاء : فلم أكن على الأرض لأتمتع ولكن لأضع قائمة حساب. كان ذلك مرحاً جداً : فبخجل طفل مسرف في التعقل وعن جين ، راجعت أمام مخاطر وجود مفتوح وحر ، وبلا ضمان صادر من العناية الإلهية ، أقنعت نفسي بأن كل شيء مكتوب من قبل ، بل منته .

يبد أن هذه العملية الزورة كانت توفر على مايفرني بحب نفسي . ولما كان كل واحد من أصدقائي مهتماً بالفناء ، فإنه كان يحتمى بصفة حياته الماتة ، تلك الصفة التي لا يمكن إحلال شيء آخر محلها وبحسب نفسه مؤثراً وطميناً وفريداً ؛ كان كل واحد راضياً عن نفسه ؛ أما أنا ، الليت ، فلم أكن راضياً : كنت أجد نفسي عادياً جداً ، أكثر إضجاراً من كورني الكبير وإن غرابة موضوعي لم تكن لها أهمية في نظري إلا في أنها تعد اللحظة التي تخيلني إلى شيء . هل كنت في ذلك أكثر تواضعاً ؟ كلا ، لقد كنت أكثر مراوغة : لقد كلفت أعقابي بأن يحبوني مكاني ؛ وبالنسبة لرجال ونساء لم يكونوا قد ولدوا بعد ، سوف يكون لي سحر ، في يوم من الأيام ، شيء لا أعرف ماهو ، سوف أصنع سعادتهم . كنت أدهى أيضاً وأكثر مراعاة : إن هذه الحياة التي كنت أجدها مملة والتي لم أعرف أن أصنع منها سوى أداة موتى ، كنت أعود إليها سرّاً لأقدها ؛ كنت أنظر إليها خلال عيون مستقبلية وكانت تبدو لي قصة مؤثرة وعجيبة ، كنت قد عشتها من أجل الجميع ، وبفضل لن يتحتم على أحد أن يعيشها من جديد وأنه يكفي أن تحكي . لقد وضعت فيها فورة حقيقة : لقد أخذت كمستقبل ماض ميت كبير وحاولت أن أعيش بالعكس . فين التاسعة والعاشرة أصبحت عملاً منشوراً بعد وفاة مؤلفه .

لم يكن ذلك خطئى كله : فقد ربانى جدى فى الوهم التعلق بالماضى -
وليس هو أيضاً مذنباً وأنا لا أحقد عليه : إن هذا السراب يولد تلقائياً
من الثقافة . وحين يمتحنى الشهود ، فإن موت رجل عظيم يكف إلى الأبد
عن أن يكون حياً جاثياً ، إن الزمن يجعل منه عملاً صادراً من طبيعة
الراء . إن الراحل العجوز هو مائت أساساً ، إنه كذلك فى التعميد وفى
السعة الأخيرة ^(١) ، لا أكثر ولا أقل ، إننا ندخل فيه من طرف ، ومن
آخر ومن الوسط ونزل منه ونصعد مجراه كما نشاء : ذلك أن الترتيب
الزمنى قد انهار ؛ ومن المحال اعادته : إن هذا الشخص لا يتعرض لأى خطر
وأنه لا ينتظر إلا أن تؤدى دغدغة منخره إلى العطس . إن لوجوده
مظاهر تسلسل الأحداث ولكن ، ما أن يراد إعادة قليل من الحياة إليه ،
فإنه يسقط من جديد فى العمية ^(٢) . إنك عبثاً تحاول أن تضع نفسك فى
فى مكان الراحل ، وأن تتظاهر بأنك تشاطره أهواءه وجهله وأحكامه
المسبقة ، وبأنك تبث إلى الحياة مقاومات قد ألفت ، وشيئاً من قلة الصبر
أو الخوف ، فانك لا تستطيع أن تمنع نفسك من تقدير سلوكه على ضوء
تأثير لم يكن فى الامكان استدراكها ، ومعلومات لم تكن لديه ، ولا أن
تضفى رسمية خاصة على أحداث وسمتها نتائجها ولكن كان قد عاشها باهمال .
هذا هو السراب : المستقبل أكثر واقعية من الحاضر . إن ذلك لن
يدهش : ففى حياة تمت ، تؤخذ النهاية على أنها حقيقة البداية . إن الراحل

(١) عند المسيحيين يقوم الكاهن بمسح جبين المحتضر بالزيت المقدس (المترجم)

(٢) لم أجد تعبيراً آخر لترجمة Simultanéité أى وقوع الحوادث كلها فى آن

واحد (المترجم)

يظل في منتصف الطريق بين الكائن والقيمة بين الواقع الخام وتجديد
البنیان ؟ إن قصته تصبح نوعاً من الجوهر الدائري الذي يتلخص في كل
لحظة من لحظاته . في صالونات أراس^(١) ، نرى محامياً شاباً ، جامداً
ومتدلاً يحمل رأسه تحت ابطة لأنه المرحوم روبسيير ، إن هذه الرأس
تقطر دماً ولكنها لا تنسج السادة ؛ إن أحداً من المدعوين لا يلحظها ونحن
لا نرى غيرها ؛ إن أمامها خمس سنوات لتدحرج في السبت ، ومع ذلك
هاهي ذى تشدد قصائد قصيرة وهي مقطوعة ، على الرغم من فكها المتدلى .
إن خداع النظر هذا ، وقد عرف ، لا يضايق : فلدينا وسائل تصحيحه ؛ غير
أن أدباء ذلك العهد كانوا يخفونه ، لأنهم كانوا يغدون مثاليهم به . وكانوا
يلمحون : إن أرادت فكرة كبيرة أن تولد فإنها تذهب إلى بطن امرأة
لتستولى على الرجل العظيم الذي سوف يحمل هذه الفكرة ؛ وهي تختار له
بيته وتحدد بدقة درجة ذكاء أقربائه وعدم إدراكهم ، وتعين تربيته وتخضعه
للتجارب اللازمة وتكون له في لمسات متلاحقة طبعاً غير ثابت تتحكم في
عدم توازنه حتى ينفجر الشيء موضع هذه العناية الزائدة وهو يلدها . إن
ذلك لم يعلن عنه في أى مكان ، ولكن كل شيء يوحى بأن تسلسل
الأسباب يغطي نظاماً معكوساً وسرياً .

كنت أستخدم هذا السراب بحماس لأفرغ من ضمان مصرية . وأخذت
الوقت ووضعت أسفله فوق رأسي واتفق كل شيء . لقد بدأ ذلك بكتاب
صغير كحلى داكن ذى حليات مذهبة أسودت بعض الشيء وكانت تقوح من

(١) مسقط رأس روبسيير (المترجم) .

أوراقه السمكة رائحة الجثث وكان عنوانه : « طفولة العطاء » ؛ وعليه بطاقة تبين أن خالي جورج حصل عليه في سنة ١٨٨٥ كجائزة ثانية في الحساب . وكنت قد اكتشفته خلال رحلاتي العجبية وقلبت صفحاته ثم ألقيت به عن ضيق . إن هؤلاء المختارين الصغار لا ينشبهون الأطفال النوايح في شيء . إنهم لا يقتربون مني إلا بتفاهة صفاتهم ، وكنت أسأل نفسي لماذا يتكلمون عنهم . وأخيراً اختفى الكتاب : فقد قررت أن أعاقبه بإخفائه . وبعد ذلك بسنة قلبت كل الأرفف بحثاً عنه : لقد تغيرت . إن الطفل النابغة قد أصبح رجلاً كبيراً فريسة للطفولة . وبالمها من مفاجأة : لقد تغير الكتاب هو أيضاً . كانت الكلمات هي ذاتها ولكنها كانت تحدثني عن نفسي . لقد شعرت بأن هذا الكتاب سوف يضعني ، فكرهته وخفت منه . وكل يوم ، قبل أن أفتحه ، كنت أذهب للجلوس إلى النافذة : ففي حالة الخطر ، سوف أدخل إلى عيني الضوء الحقيقي للنهار . إن هؤلاء الذين يرثون لتأثير فاستوماس أو أندريه جيد يضحكونني اليوم كثيراً : هل يستقدون أن الأطفال لا يختارون سمومهم بأنفسهم ؟ كنت أبلغ سبى بالصرامة القلقة لدمى المخدرات ، وكان يبدو مع ذلك غير مضر . كانوا يشجعون القراء الصغار قائلين إن حكمة الأبناء وتقواهم تؤديان إلى كل شيء ، حتى إلى أن يصبحوا رامبرانت أو موزار . كانوا يروون في قصص قصيرة الاهتمامات العادية جداً لصبيان عاديين ولكنهم حساسون ورعون يتسمون بجان سبستيان أو بجان جاك أو بجان باتيست ، وكانوا يسعدون أقرباءهم كما كنت أسعد أقربائي . ولكن ها هنا السم : فقد كان المؤلف ، دون أن يلفظ قط اسم روسو وباخ ومولير ، يتفنن في التلميح في كل مكان إلى

عظمتهم القادمة ، وفي التذكير في غير احتفال عن طريق تفاصيل صغيرة
عولقاتهم أو بأشهر أعمالهم ، وفي تدبير هذه القصص تدبيراً محكماً بحيث
لا يمكن فهم أتمه حادث دون ربطه بأحداث لاحقة ؛ وفي وسط الصخب
اليومي ، كان ينزل سكونا كبيراً أسطوريا ، يغير هيئة كل شيء . وهذا
السكون كان المستقبل . إن المدعو سائزيو ^(١) كان يتحرق شوقاً إلى رؤية
البابا ؛ لقد بلغ به الشوق مبلغاً جعل أهله يصحبونه إلى الميدان العام في
يوم مرور الأب الأقدس فيه ؛ وأصفر وجه الصغير وحملق بعينه ، وقال
له أحدهم أخيراً : « أعتقد أنك مسرور يارافايللو ؟ هل نظرت إلى أيننا
الأقدس جيداً على الأقل ؟ » ، ولكنه أجاب شاردا : « أي أب أقدس ؟
إنني لم أر سوى ألوان » ، وفي يوم آخر ، كان الصغير ميغيل ^(٢) ، الذي
كان يريد أن يصبح جندياً ، جالسا تحت شجرة يتلذذ بقراءة رواية
فروسية حين سمع جفأة دوى حدائد جعله يرتجف . كان مجنوناً عجوزاً من
الجيران ، وهو نبيل من الريف فقد ماله وكان يتجول على فرس ضعيف
ويسدد خبثته التي علاها الصدا إلى طاحونة . وعلى العشاء قص ميغيل
الحادث بأسلوب فكاهي لطيف أضحك الجميع وملاً أشداقهم ؛ ولكن بعد
ذلك ، حين خلا لنفسه في حجرته ، ألقى بروايته على الأرض وداسها
بقدميه وأجهش بالبكاء طويلاً .

-
- (١) هو المصور والمهندس المعماري وعالم الآثار الإيطالي المشهور المولود في سنة
١٤٨٣ والتوفى سنة ١٥٢٠ (الترجم) .
- (٢) يقصد ميغيل دي سيرفانتيس الكاتب الأسباني مؤلف دون كيشوت
، والتوفى ١٦١٦ (الترجم) .

إن هؤلاء الأطفال كانوا يعيشون في الخطأ : كانوا يعتقدون أنهم يملكون ويتكلمون صدقة ، في حين أن أقل ما يقولونه كان له هدف حقيقى ألا وهو إعلان مصيرهم . كنت أبادل مع المؤلف ، من فوق رؤوسهم ، ابتسامات مشفقة . كنت أقرأ حياة هؤلاء العاديين الزورين كما كونها الله مبتدئاً من النهاية . كنت أنهلل أولاً : إنهم أخوتى ومجدهم هو مجدى . ثم يسقط كل شيء : وأجد نقى في الجهة الأخرى من الصفحة ، في الكتاب : إن طفولة جان بول تشبه طفولة جان جاك (١) وجان سيستيان (٢) . ولم يكن يحدث له شيء دون أن يكون له دلالة الواسعة . ولكن في هذه المرة كان المؤلف يغمز بيته لأحفاد أحوالى . فمن موتى إلى ولادى كان أطفال المستقبل هؤلاء يروننى ، ولم أكن أتخيلهم ، ولم أكن أتوقف عن أن أبعث إليهم برسائل لا أستطيع حل طلاسمها . كنت أرتجف مرتعداً من موتى ، المعنى الحقيقى لكل حركتى ، وكنت أحاول ، وقد خرجت عن ذاتى ، أن أعبر الصفحة من جديد في الاتجاه العكسى وأن أجد نقى في جانب القراء . ورفعت رأسى وطلبت النجدة من الضوء : ولكن هذا أيضاً كان رسالة ؛ هذا القلق الفجائى ، هذا الشك ، حركة العينين والمنق هذه ، كيف سوف تفسر في سنة ٢٠١٣ ، حين يملكون المفتاحين اللذين كان عليهما أن يفضا غلافى : العمل والموت ؟ لم أستطع الخروج من الكتاب : لقد انتهت من قراءته منذ زمن طويل ولكنى ظلمت شخصا فيه . كنت أراقب نقى : قبل ذلك بساعة كنت قد انتهت من الثرثرة

(١) يقصد جان جاك روسو (المترجم) .

(٢) يقصد جان سيستيان باخ (المترجم)

مع أمي : ما الذي أعلته ؟ لقد تذكرت بعض أقوالى ، وكررتها بصوت عال ولكن ذلك لم ينفعنى بشيء . كانت الجمل تنزلق مغلقة ؛ وكان صوتى يطن فى أذنى كهوت أجنبي . وكأن ملاكا مختلسا يسلبنى أفكارى حتى داخل رأسى ، وهذا الملاك لم يكن سوى طفل أشقر بمض الشيء من القرن الثلاثين ، جالس إلى نافذة يراقبنى خلال كتاب . وفى رعب لذيذ شعرت بنظرتة تعلقنى بألف سنة التى أسمى إليها . إنه يرى أننى أتجامل على نقسى فأصنع كلمات ذات معنيين كنت أطلقها علانية . كانت آن مارى تجذبني عند قطرى « أشخط » وكانت تقول : « ياله من ظلام ! إن ابني العزيز يعمى عينيه . » وكانت فرصتى للرد بكل براءة : « أستطيع أن أكتب حتى فى الظلام . » كانت تضعك وتسمينى العييط الصغير ، وتضئ العرفة . لقد تمت الحيلة وكلانا يجمل أننى قد أخبرت توا عام ثلاثة آلاف بماهتى المستقبلية . وبالفعل ففى نهاية حياتى ، وقد أصبحت أكثر عمى مما كان يتهوفن أصم ، سوف أصنع آخر مؤلفاتى تحمسا فى الظلام . سوف يعثر على المخطوط فى أوراقى وسوف يقول الناس وقد خلب أملهم : « ولكن هذا لا يمكن قراءته ! » ويذهب بهم التفكير إلى حد إلقائه فى صندوق القمامة . وتطالب به مكتبة البلدية فى أورباك آخر الأمر من قبيل الوفاء الخالص ، ويظل فيها منسيا مائة سنة . ثم ذات يوم ، جبالى ، سيحاول بعض العلماء الشبان حل طلاسمه ، ولعوف يقضون كل حياتهم لإعادة إنشاء ما سوف يكون بطبيعة الحال تحفى . كانت أمى قد غادرت العرفة ، وكنت وحيدى ، وكنت أكرر لنفسى ، ييطء ، دون أن أفكر فيها على الخصوص هذه العبارة « فى الظلام ! » وسمعت صفة قوية : إن حفيد حفيد

ابن خالى ، وهو فوق ، كان يقفل كتابه : كان يحلم بطفولة خال خاله وكانت الدموع تسيل على خديه وكان يقول متنهدا : إن ذلك حقيقى ، لقد كتب فى الظلمات ! .

كنت أبتخر أمام أطفال سوف يولدون كانوا يشبهوننى تماما . كنت أستدر من نفسى دموعا وأنا أتذكر الدموع التى سوف أجعلهم يذرفونها . كنت أرى موتى بعيونهم . لقد حدث ، وكان ذلك حقيقى ، وأصبحت ترجمة وفانى .

وبعد أن قرأ صديق لى ما تقدم ، نظر إلى نظرة يبدو عليها القلق ، وقال لى : . لقد كنت مصابا أكثر مما كنت أتصور . ، مصاب ؟ لا أعرف . أن هذيانى كان متقنا بوضوح . وكانت أهم مسألة فى نظرى هى الصدق . ففى التاسعة من عمرى كنت أجلس بالقرب منه ؛ وبعد ذلك ذهبت بعيداً جداً عنه .

فى البداية كنت سليما كالعين : كنت مزورا صغيراً يعرف أن يقف فى الوقت المناسب . ولكنى كنت اجتهد . وحتى فى الحداغ ظلمت قويا فى الترجمة إلى لغة الغير ، واليوم أعتبر اتصالاتى تمرينات روحية ، وعدم صدقى كاريكاتورا لصدق تام كان لا يتوقف عن ملاسقى ثم ينفلت منى . إننى لم أختبر رسالتى : لقد فرضها على غيرى . والواقع أنه لم يحدث شيء . كلمات فى الهواء ألقت بها امرأة عجوز ، ثم مكيا فيلية شارل . ولكن كان يكفى أن أكون مقتنعا . إن الأشخاص الكبار القاعمين فى نفسى كانوا يشيرون بأصبعهم إلى نجمى الذى لم أكن أراه وإنما كنت أرى

الإصبع وكنت أومن بهم وكانوا يدعون أنهم يؤمنون بي . لقد أخبروني بوجود أموات كبار - أحدهم سيكون في المستقبل - نابليون وعستوكليس وفليب أوغسطس وجان بول سارتر . إنى لم أكن أشك في ذلك : وإلا كان ذلك شك فيهم . وكنت ببساطة أود أن التقى بالأخير وجها لوجه . كنت أبخلق وكنت أتلقى لأثير الوحي الذى يغمرنى ، كنت امرأة باردة . اختلاجاتها تمحرض لى محل محل الإشباع الجنى . هل يقال عن هذه المرأة إنها متضمنة أو إنها مجتهدة أكثر من اللازم ؟ وعلى أى حال فإنى لم أحصل على شيء ، فقد كنت دائما قبل أو بعد الرؤية المستحيلة التى سوف تكشفنى لنفسى ، وكنت أجد تقى فى آخر تمرينأتى ، متشككا ، ولم أربح شيئا سوى بعض الاهتياج . ولما كان تفويضى قائما على مبدأ السلطة ، وعلى طيبة الأشخاص الكبار ، تلك الطيبة التى لا تنكر ، فإن شيئا لم يستطع أن يؤكد هذا التفويض أو يكذبه . ولما كان فى مأمن وغتوما عليه ، فقد كان يمتك فى . ولكن ضعف ملكيتى له جعلنى لا أتمكن أبدا ، ولو للحظة ، من أن أشك فيه ، ولا أن أقدر أن أذوبه وأتمثله .

إن الإيمان لا يكون أبدا كاملا حتى لو كان عميقا . يجب ألا نكف عن دعمه أو على الأقل أن نمنع تقسنا من هدمه . كنت معدا لأن أكون عظيما ، وكان قبرى فى الأب لاشيز^(١) وربما فى الباتيون^(٢) وكان لى شارع فى باريس وحدائق العامة وميادينى فى الأقاليم وفى الخارج : ولكن داخل

(١) مدافن باريس (المترجم) .

(٢) مدفن كبار رجال فرنسا (المترجم) .

التفاؤل غير المرئي وغير المسمى كنت احتفظ بالشك في عدم صلابتي . في مستشفى القديسة آن صاح مريض وهو في فراشه : « أنا أمير اليلق القبض على الفرندوق . » وكانوا يقتربون منه ويقولون له في أذنه : « أعطط ! » وكان يعطط ؟ وكانوا يسألونه : « ماعى صنعتك ؟ » ، فكان يجيب برقة : « صانع أحذية » ثم يستأنف الصباح . اعتقد أننا نشبه جميعا هذا الرجل . وعلى أية حال ، كنت أشبه وأنا في بداية التاسعة من عمرى : كنت أميراً وصانع أحذية .

وبعد ذلك بستين اعتبروا أنى شفيت : اقد اختفى الأمير ، ولم يكن صانع الأحذية يؤمن بشيء ، ولم أعد أكتب ؛ لقد ألقيت كراسات الروايات في الزباله أو ضاعت أو أحرقت وتركت مكانها لكراسات اعراب الجمل والاملاء والحساب . ولو أن أحدا دخل في رأسى المفتوحة لكل ربح لصادف فيها بعض التماثيل النصفية ، وجدول ضرب غير عادى ، والقاعدة الثلاثية ، واثنين وثلاثين مقاطعة بعواصمها ولكن بدون مراكرها ، وتصريف الأسماء اللاتينية ، وآثار تاريخية وأدبية ، وبعض حكم الأدب محفورة على نصب وأحيانا حلم يقظة سادى كوشاح من ضباب ممتد فوق هذه الحديقة الحزينة . لا « فتاة يتيمة » ولا أثر لفارس شجاع ! إن الكلمات : بطل وشهيد وقديس لم تكن مكتوبة في أى مكان ، ولم يكن هناك أى صوت يرددها . إن برديان سابقا كان يتسلم كل ثلاثة شهور نشرات صحية مرضية . طفل متوسط الذكاء وعلى جانب عظيم من الخلق ، موهبته قليلة في العلوم الدقيقة ، خيالى بدون مبالغة ، حساس ؛ طبيعة كاملة على الرغم من بعض التنكف الآخذ فى التقلص . غير أنى كنت

أصبحت مجنوناً تماماً . حدثان أحدهما عام والآخر خاص قد طيرا القليل
الباقى من عقلى .

كان الحدث الأول مفاجأة حقيقية : ففي شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، كان
لا يزال يوجد بعض الأشرار ؛ ولكن فى ٢ أغسطس^(١) استولت الفضيحة
على السلطة فجأة وأصبحت الحاكمة : وأصبح جميع الفرنسيين أختيارا .
وكان أعداء جدى يرتمون بين ذراعيه ، وتطوع بعض الناشرين ، وكان
السوقة يتنبأون ، وكان أصدقاؤنا يجمعون المبارات البسيطة العظيمة التى
يقولها البواب وساعى البريد والسيالك وكانوا يتقانونها إلينا ، وكان الجميع
يهللون تعجبا ، عدا جدى التشككة حقا . كنت سعيدا : كانت فرنسا تمثل
على ، وكنت أمثل على فرنسا . ولكن ما لبثت الحرب أن سببت لى
الملل : إذ كانت تضايق حياى قليلا جداً بحيث أنى نسيها حتما ؛ ولكنى
تفرزت منها حين لاحظت أنها نحطم مطالعاتى . فقد اختفت مطبوعاتى
المفضلة من أكشاك الجرائد ؛ وترك أرنو جالوبان وجوفال وجان دى
لاهير أبطالهم للألوفين ، هؤلاء المراهقين إخوانى الذين كانوا يدورون
حول العالم بطائرة ذات جناحين وبطائرة مائة والذين كانوا يتصارعون
اثنين أو ثلاثة ضد مائة ؛ وتركت روايات ما قبل الحرب الاستعمارية
مكانها للروايات الحرية المثلثة بالبحارة الصغار والشبان الأتراضين
والأيتام وتماويذ الفرقة . كنت أكره هؤلاء القادمين الجدد . كنت
أعتبر مغامرى الغابات الصغار أطفالا نواضع ، لأنهم كانوا يذبحون السكان

(١) يشير المؤلف إلى اليوم الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على فرنسا فى
سنة ١٩١٤ (المترجم) .

الأصليين الذين هم كبار بعد كل شيء . ولما كنت أنا تقسى طفلاً نابغاً فقد كنت أتعرف على تقسى فيهم . ولكن كل شيء كان يحدث خارج هؤلاء الأطفال المجندين . فالبطولة الفردية تترجح ، فأمام المتوحشين كان يدعمها التفوق في السلاح ؛ ولكن ما العمل أمام مدافع الألمان ؟ كان لابد من مدافع أخرى ورجال مدفعية وجيش . ووسط الجنود الشجعان الذين كانوا يرتبون على رأسه والذين كانوا يحمونه ، كان الطفل النابغة يعود إلى الطفولة ، وكنت أعود إليها معه . وكان المؤلف يكافئني من آن لآخر - شفقة بي - أن أحمل رسالة ، وكان الألمان يلقون القبض على ، وأجوابهم بعض الإجابات التكبرية ثم أهرب وأعود إلى خطوطنا وقد آمنت مهمتي . وكانوا يهتفونني بكل تأكيد ولكن بدون حماس حقيقي ، ولم أكن أجد في عيني الجذال الأبوية النظرة المفتونة التي كانت للأرامل والأيتام . لقد كنت فقدت اليقظة : كانوا يكسبون المارك وسوف يكسبون الحرب بدوني ؛ إن الأشخاص الكبار استردوا احتكار البطولة ، كان يحدث أن التقط بندقية قتل وأن أطلق بعض الرصاصات ، ولكن لم يحدث قط أن سمح لي أرنو جالوبان وجان دي لاهير أن أهاجم بالسونكي . ولما كنت صيياً بطلاً فقد كنت أنتظر بفارغ صبر سن دخول الجندية . ولكن بالأحرى لا : كان الطفل الذي يتبع الجيش الذي كان ينتظر ، كان يتم الأزمات . لقد انسحبت منهم وأقفلت الكتاب . كنت أعرف أن الكتابة عمل طويل غير مثمر ، ولسوف أكون صبوراً كل الصبر . ولكن القراءة كانت عيذاً : كنت أريد كل الأعجاب في الحال . وأي مستقبل يعرضونه علي ؟ أن أصبح جندياً ؟ يا لها من صفقة رائجة ! إن الجندي حين يكون وحيداً

لا يعتبر أكثر من طفل . إنه يهجم مع الآخرين وإن الفرقة هي التي تكسب المعركة . لم أكن أهتم بأن اشترك في انتصارات جماعية . وحين كان أرنو جالوبان يريد أن يعز جنديا لم يكن يجد خيراً من أن يرسله لنجدة ضابط جريح . إن هذا التفاني الحفي كان يضايقي : إن العبد يتقذ السيد . ثم إنهما لم تكن إلا شجاعة مناسبة ، ففي زمن الحرب تقسم الشجاعة خير تقسيم . وبشيء من الحظ يؤدي أي جندي آخر العمل نفسه . وكان ذلك يثيرني : لأن ما كنت أفضله في بطولة ما قبل الحرب كان هو الوحدة وتلقائيتها . كنت أترك ورأى الفضائل اليومية الشاحبة ، كنت ابتكر الرجل لي وحدي عن كرم ؛ د الدوران حول الأرض بطائرة مائية ، و د مغامرات صبي من باريس ، و د الكشافون الثلاثة ، إن كل هذه النصوص المقدسة كانت توجهني على طريق الموت والبعث . ولكن ها هم المؤلفون يخونونني خيانة : لقد وضعوا البطولة في متناول الجميع ؛ إن الشجاعة والتضحية بالنفس أصبحنا فضائل يومية ؛ والأنكى من ذلك أنهم كانوا ينزلونهما إلى مصاف الواجبات البدائية جداً . وكان تغير الديكور على صورة هذا التغير : فقد حل ضباب الأرجون^(١) الجماعي محل الشمس الكبيرة الوحيدة والضوء الفردي في خط الاستواء .

وبعد انقطاع دام بضعة أشهر ، قررت أن أعود إلى القلم لأكتب رواية حسب وحي قلبي ولأعطي لهؤلاء السادة درساً طيباً . كان ذلك في أكتوبر سنة ١٩١٤ ولم نكن قد تركنا أركشون . اشترت أمي كراسات

(١) معلقة تتألف من التلال والغابات تقع إلى شرق باريس . كانت مسرحاً لبعض المعارك الحربية في الحرب العالمية الأولى (المترجم) .

من نوع واحد كلها : وعلى غلافها البنفسجي صورة جان دارك وعلى رأسها خوذة ، علامة الزمن . وفي حى هذه القديسة (١) أخذت أكتب قصة الجندى بيران الذى يخطف امبراطور المانيا ويأتى به داخل خطوطنا مكبلا ، ثم يدعوه إلى البارزة أمام القليق مجتمعا ، ويلقيه أرضا ويجبره ، وسيفه على عنقه ، أن يوقع صلحا شائنا وأن يعيد إلينا مقاطعتى الأتراس واللورين . وبعد أسبوع أضجرتنى قصتى ، لقد أخذت فكرة للبارزة من روايات الطعن والزال : إن ستورت بكر وهو من أبناء السيوتات ومنفى يدخل حانة لقطاع الطريق . فيسبه عملاق . هو رئيس العصاة ، فيقتله ضربا يقبضنى يديه ، ويأخذ مكانه ويخرج ملكا على الرزقة فى اللحظة المناسبة لانزال جيشه فى سفينة للقرصة . كانت قوانين ثابتة تحكم الحفلة : كان يجب أن يظهر بطل الشر عظمير الإنسان الذى لا يقهر وأن يتصارع بطل الخير وسط السخرية ، وأمام انتصاره غير المتوقع يتجمد الذين كانوا يسخرون منه من شدة الملح غير أنى فى تجربتى الفجة خالفت كل القواعد وفعلت عكس ما كنت أتمنى : فعلى الرغم من قوة الإمبراطور فإنه لم يكن مفتول الذراع . وكانوا يعرفون مقدما أن بيران المصارع العظيم سوف يلتهمه لقمة سائغة . ثم كان الجمهور معاديا له ، إن جنودنا يصرخون فى وجهه بكراهيتهم على نحو تركنى مبهوتا ، واعتصب غليوم الثانى المجرم ولكنه الوحيد ، وقد أوسع سخرية وبصقا ، عزلة أبطالى الملكية تحت بصرى .

وكان هناك ماهو أنكى . حتى ذلك الحين لم يكن هناك ما يثبت أو

يكذب ما كانت لويز تسميه ، أعمالى التى أنهكت نفسى فى تأليفها ، : كانت أفريقيا واسعة وبعيدة وقليلة السكان ، والأخبار ناقصة ، ولم يكن أحد قادرا على أن يثبت أن مستكشفى لم يكونوا هناك وأنهم لم يكونوا يطلقون الرصاص على الأقزام فى نفس الساعة التى كنت أصف فيها قتالهم . لم أكن أذهب إلى حد اعتبارى نفسى مؤرخهم ، ولكن من كثرة ما سمعت عن حقيقة الروايات الخيالية فقد اعتقدت أنى أقول الحقيقة خلال أساطيرى . بطريقة لم أكن أدركها بعد ولكنها سوف تكون واضحة كالشمس بالنسبة لقراءى فى المستقبل . ولكن فى شهر أكتوبر المشؤم هذا ، حضرت ، عاجزاً ، اصطدام الخيال بالواقع فامبراطور ألمانيا الذى ولد من قلبى ، هزم وأمر بوقف إطلاق النار ؛ فكان المنطق يحتم أن يرى خريفنا عودة السلام ؛ ولكن فى ذات الوقت كانت الصحف والكبار يرددون صباح مساء أننا استقررنا فى الحرب وأنها سوف تطول . وشعرت بأنى خدعت : لقد كنت دجلاً ، وكنت أحكى ترهات لا يريد أحد أن يصدقها : وباختصار فقد اكتشفت الخيال . ولأول مرة فى حياتى قرأت نفسى . واحمر وجهى خجلاً : لقد كنت أنا ، أنا الذى رضيت بهذه الأحلام الصيانية ؟ وكدت أترك الأدب : وأخيراً حملت كراسى إلى الشاطئ ودفنتها فى الرمل . وزال ضيقى ؛ واستمدت ثقتى : كانت لى دعوة بلا أدنى شك ؛ ولكن للأدب سرها الذى قد تكشفه لى فى يوم من الأيام . وإلى أن يحين ذلك اليوم فإن سنى تأمرنى بأن أبالغ فى التحفظ . وابتظمت عن الكتابة .

وعدنا إلى باريس . وتركت إلى الأبد أرنو جالوبان وجان دى لاهير : .
فإنى لم أكن أستطيع أن أغفر لهذين الإتهامين إصغارهما عنى . وأبديت .

استيائي من الحرب ، اللحمة الرديئة ؛ وفي مرارة هربت من مصر ولجأت إلى الماضي . وقبل ذلك بيضمة اشهر . في آخر السنة ١٩١٣ ، كنت قد اكتشفت نيك كارتر وبفالويل ونكساس جاك وستيج بول : وقد اختفت هذه المطبوعات منذ بداية الأعمال الحزبية : وادعى جدى أن الناشر كان المانيا ولكننا كنا نجد لحسن الحظ عند بائعى الكتب القديمة على أرصفة السين أغلب الأعداد التى ظهرت . وجرت أوى على ضفاف السين وقمنا بنيش الصناديق واحدا واحدا من محطة أورسى إلى محطة أوسترليتز وكان يحدث أن نعود بخمس عشرة ملازمة معا ؛ وما لبث أن أصبح عندي خمسينة ملازمة وكنت أرتبها فى أكوام مرصوفة . وكنت لا أمل من عدها وأن أنطق بصوت عال عناوينها الغامضة ؛ « جريعة فى منطاد » ، « التعاقد مع الشيطان » ، « عيد البارون موتوشيمى » ، « بعث دازار » . وكنت أحب أن تكون أوراقها قد اصقرت وامتلأت بالبقع وتصلبت برائحة غريبة تشبه رائحة الأوراق الذابلة . وقد كانت أوراقا ذابلة وأطلالا ، ذلك أن الحرب كانت قد أوقفت كل شىء . كنت أعرف أنني سوف أظل أجهل الغامرة الأخيرة للانسان طويل الشعر ، وأتقى سوف أجهل دائما آخر تحقيق لملك الخبرين : إن هؤلاء الأبطال المنفردين كانوا مثلى ضحايا النزاع العالمى ، ولذلك كنت أحبهم أكثر . وكى أهدى من الفرح كان يكفينى أن أتأمل الصور الملونة التى تحلى الأغلفة . بفالويل ممتطيا صهوة جواده يعدو فى المريج يطارد الهنود تارة ويفر منهم تارة أخرى . كنت أفضل صور نيك كارتر . قد يجدها المرء مملة : ففى كل هذه الصور تقريبا نرى المخبر الكبير وهو يسدد ضربة قاتلة أو وهو يتلقى ضربة مطرقة . ولكن

هذا الشجار كان يحدث في شوارع مانهاتن وفي أراض قضاء محاطة
بسياج بني أو بأبنية واهية مكعبة بلون الدم الجاف : كان ذلك يهرني
وكنت أتخيل مدينة بوريتانية ودامية يلتهمها الفضاء ولا تكاد تخفى
الأعشاب التي تحملها . كان كل من الجرعة والفضيلة خارج القانون في
هذه المدينة . إن كلا من القاتل والتقاضى حر وذو سيادة وكنا يتفاهان
مساء بطنات السكين . وفي هذه المدينة كما في إفريقيا تحت الشمس
المحرقة ذاتها — تعود البطولة ارتجالا دائما . ذلك هو سبب شغفي
بنيويورك .

لقد نيت الحرب ورسالتى معا . وعندما كانوا يسألوننى : « ما الذى
ستفعله حين تصبح كبيرا ؟ » كنت أجيب بلطف وبتواضع بأننى سوف
أكتب ، ولكنى كنت قد تركت أحلامى في المجد والتمرينات الروحية .
وربما كانت سنة ١٩١٤ أسعد سنوات طفولتى لهذا السبب . كنت أنا وأمى
من سن واحدة ، وكنا لا نترك بعضنا بعضا . كانت تدعونى فارسها القائم
على خدمتها وزجلها الصغير . وكنت أقول لها كل شيء ، وأكثر من ذلك
كانت الكتابة تدخل وتتحول إلى ثروة وتخرج من فمى : كنت أصف
ما أراه وما تراه آن مارى مثل : النازل والأشجار والناس . وكنت أشحن
نفسى بالشاعر لى أتلذذ بنقلها إليها . وأصبحت محولا للطاقة . كان العالم
يستخدمنى ليجعل من نفسه كلاما . كان ذلك يبدأ بثرثرة فى رأسى لا اسم
لها . كان أحدهم يقول : « أنا أمشى ، أنا أجلس ، أنا أشرب كوب ماء ، أنا
أكل ملبسة . » وكنت أكرر بصوت عال هذا التعليق الدائم : « أنا أمشى
يا أمى ، وأنا أشرب كوب ماء وأنا أجلس . » واعتقدت أن لى صوتين

أحدهما — كان لا يكاد يكون لى أو يتعلق بإرادتى ، وكان يعلى على الآخر أحاديثه . وقررت أننى مزدوج واستمرت هذه الاضطرابات الخفيفة حتى الصيف . كانت تهكنى وكنت أغطاظ منها وانهى بى الأمر أننى أصبحت أخافها . قلت لأىء إن شيئا يتكلم فى رأسى ، ولكنها لم تقلق لحسن الحظ . إن ذلك لم يكن يفسد سمادى ولا وحدتنا . وكانت لنا أساطيرنا ولازماتنا فى الكلام، ومزاحنا الذى يتكرر . وخلال سنة تقريبا كنت أنهى جنلى ، على الأقل مرة كل عشر مرات — بهذه الكلمة التى كنت ألقظها باستسلام ساخر : « معلش . » كنت أقول : « هذا كلب أبيض . إنه ليس أبيض بل هو رمادى ولكن معلش . » واعتدنا أن يحكى بعضنا للبعض — الأحداث الصغيرة لحياتنا بأسلوب ملحمى بمجرد حدوثها . كنا نتحدث عن أنفسنا بضمير الغائب الجمع . كنا ننظر السيارة العامة وكانت تمر أمامنا دون أن تتوقف ؛ وكان أحدها يصيح عندئذ : « لقد ضربوا الأرض بقدمهم وهم يلعنون السماء . » وكنا نأخذ فى الضحك . وكانت لنا اصطلاحاتنا السرية : كانت طرفة عين تكفى . فحين نكون فى متجر أو فى صالون للشاى إذا بدت لنا البائعة مضحكة ، كانت أمى تقول لى ونحن خارجين : « لم أنظر إليك خوفا من أن أفهقه فى وجهها ، » وكنت أشعر بفخر من قدرتى ، فلا يوجد عدد كبير من الأطفال يعرفون كيف يشيرون قهقهة أهمهم من نظرة واحدة . ولما كنا خجولين كنا نخاف معا . وذات يوم اكتشفت على أرفصة السين اثنى عشر عدداً من مجلة بفالويل لم أكن قد حصلت عليها بعد ؛ وكانت تستعد لدفع ثمنها عندما اقترب منا رجل سمين شاحب ، عيناه من لون الفحم وشاربه لامع وعلى رأسه قبعة من القش ذات حافة مسطحة ودقيقة ، وكان له ذلك المظهر الذى كان يصطنعه عن

طبيب خاطر الشبان الملاح في ذلك العهد . كان يحقق البصر في أمي ولكنه اتجه إلى وردد هذه العبارة بمجلة شديدة إنهم يدللونك أيها الصغير ، إنهم يدللونك ! ، لم أشعر أول الأمر إلا بأنني أهنت : فلم أكن أخاطب بصيغة المفرد هذه السرعة ، ولكنني فاجأت نظرتي الشهوانية ، وأصبحت أنا وآن ماري كفتاة واحدة جفلة ، قفزت إلى خلف . وابتعد السيد وقد فشلت خطته . لقد نسيت آلاف الوجوه ، ولكنني مازلت أذكر هذا الوجه المكثف . كنت أجهل أجهل كل شيء عن الجسد ، ولم أكن أتصور ما كان هذا الزجل يريده منا ، ولكن الشهوة كانت جليلة ، بحيث خيل لي أنني أفهم ، وأن كل شيء قد كشف لي بطريقة ما . لقد شعرت بهذه الشهوة خلال آن ماري ، فمن خلالها تعلمت أن أحس بالذكر وأن أخشاه وأن أكرهه . وقد وثقت هذه الحادثة عرابنا : كنت اتسكع بوجه عابس ويدي في يدي أمي وكنت واثقا من أنني أحميها . هل هي ذكرى هذه السنوات ؟ واليوم أيضاً فإني لا أستطيع أن أشاهد بلا سرور طفلاً غاية في الجد يكلم أمه الطفلة برصانة وحنان ، إنني أحب هذه الصداقات الرقيقة المتوحشة التي تنشأ بعيداً عن الناس وضد هم . إنني أنظر طويلاً إلى هذه الأزواج الصغيرة ثم أتذكر أنني رجل وأشيخ بوجهي .

والحدث الثاني وقع في أكتوبر ١٩١٥ . كان عمري عشر سنوات وثلاثة أشهر ، ولم يكن في استطاعتهم أن يفكروا في إبقائي تحت الحجر مدة أطول . وكبت شارل شوايترز أحقادهم وسجل اسمي بالشم الحارجي في ليسيه هنري الرابع الصغيرة .

وكان ترتيبي الأخير في أول موضوع إنشاء أعطى لنا ، ولما كنت

إقطاعيا صغيرا فقد كنت اعتبر التعليم رباطا شخصيا . إن الآنسة ماري لويز أعطتني عليها عن حب ، وتسلمته عن طيبة جباها . لقد صدمت بدروسها ، البرزلة ، التي كانت توجه للجميع بالبرود الديمقراطي للقانون . ولما كنت خاضعا لمقارنات دأعة فإن تفوق الذي حلت به قد تلاشي . كان يوجد على الدوام تلميذ يجب أحسن أو أسرع مني . كنت محبوبا أكثر مما يجب لأضع نفسي من جديد موضع منافسة . كنت أعجب عن طيب خاطر بزملائي وكنت لا أحسدهم ، فسوف يأتي دوري في الخمسين . وبالاختصار كنت أشرد دون أن أتألم : ولما كان يستبد بي زعر قوى فإني كنت أقدم باجتهاد واجبات رديئة جداً . وكان جدي يقطب حاجبيه . وأسرعنت أمني إلى طلب تحديد موعد من السيد أوليفيه معلي الرئيسي الذي استقبلنا في شفته كأعزب . واتخذت أمني صوتها المفرد . وكنت أصني إليها واقفا بجانب كرسيها وناظراً إلى الشمس خلال الغبار على ألواح الزجاج . وجاهدت في البرهنة على أنني خير من واجباتي : فقد تعلمت القراءة وحدي ، وكنت أكتب روايات ، ولما أعيثها الحجج أعلنت أنني ولدت بعد عشرة أشهر ، فقد كنت أكثر « نضجاً » من الآخرين وأكثر تورداً وتقميراً ، لأنني مكثت في القرن مدة أطول . كان السيد أوليفيه يصغي إليها بانتباه متأثراً بجاذبيتها أكثر من تأثره بمزايي . كان رجلاً طويل القامة شديد التحول ، أصلع وبمجموعة بارزة وعينين غائرتين وبشرة بلون الشمع وتحت أنف طويل محدب ينمو بعض الشعر الأصهب . ورفض أن يعطيني دروساً خاصة ، ولكن وعد برعايتي . ولم أكن أطلب أكثر من ذلك . كنت أرقب نظرتة أثناء الدروس ؛ كنت متأكداً من أنه لم يكن يتكلم إلا من أجلي ، واعتقدت

أنه يحبني ، وأحببته ، وقام بالباقي بعض الكلمات الطيبة، وأصبحت بلا جهد تلميذاً مجتهداً إلى حد ما . وكان جدى يتذمر وهو يقرأ شهادات درجاتي بربع السنوية ، ولكنه كف عن التفكير في سعيي من اللبسيه . وفي الصف الخامس أصبح لي معلمون آخرون ، وفقدت معاملتي الخاصة ولكنني كنت قد تعودت على الديمقراطية .

لم تكن أعمالي المدرسية تترك لي وقتاً للكتابة ؛ وقد انتزعت مخالطاتي الجديدة مني حتى الرغبة فيها . لقد أصبح لي زملاء أخيراً أنا البعد من الحداثي العامة قد ضموني منذ اليوم الأول وبأبسط ما يمكن . الشيء الذي أذهلني . والحقيقة كان أصدقائي يبدون أقرب إلى من البردايانات^(١) المصغار الذين كانوا قد حطموا قلبي . كانوا في القسم الخارجي ، مدللين ، تلاميذ مجدين . وأيا كان الأمر فقد كنت أشعر بفرح عظيم . وكانت لي حياتان . فمع عائلتي كنت أقلد الرجل . ولكن الأطفال فيما بينهم يكرهون الصبيانية : إنهم رجال حقيقة . ولما كنت رجلاً بين الرجال، فقد كنت أخرج من اللبسيه كل يوم بصحبة الإخوة (ملكان) الثلاثة : جان ورينيه وأندرية ، والأخوين بول ونورير مير ، وبران وماكس بركو ، وجريجواري . كنا نندو ونحن نصيح في ميدان الباثيون . كانت لحظة سعادة رصينة فقد كنت أمتلئ من التمثيلية العائلية ؛ ولما لم أكن أريد أن ألع فقد كنت أضحك مقلداً . كنت أردد كلمات التعارف والكلمات الطيبة . كنت أصمت وكنت أطيع وأقلد حركات جيراني . ولم يكن لي إلا هوى واحد : أن

أنضم إلى المجموعه . ولما كنت جافا وصلبا ومبتهجا فقد كنت أشعر أنني من صلب ، وقد تخلصت أخيراً من خطيئة وجودى . كنا نلعب بالكرة بين قصر الرجال العظام^(١) وتمثال جان جاك روسو . كنت ضروريا «الرجل الصحيح فى المكان الصحيح»^(٢) . لم أعد أحسد السيد سيمونو على شيء : فإلى من كان مير سيمرر الكرة بعد أن غافل جريجوار إن لم أكن أنا موجوداً هنا الآن ؟ كم كانت أحلامى بالمجد تبدو تافهة وجنائزية إلى جانب هذه البدييات السريعة التى كانت تكشف لى ضرورتى .

وكانت تنطفىء مع الأسف بأسرع مما كانت تشتعل . إن ألعابنا كانت «تهيجنا» كما كانت تقول أمهاتنا ، وكانت أحيانا تحول جماعاتنا إلى جمع صغير موحد كان يتلعنى ، ولكننا لم نستطع قط أن ننسى أهلنا طويلاً ، وكان حضورهم غير المرئى لا يلبث أن يهبط بنا إلى الوحدة المشتركة التى تعيش فيها الجماعات الحيوانية . ولما كان مجتمعنا بلا هدف ولا غاية ولا مراتب ، فإنه كان يتردد بين الامتزاج التام وبين التلاصق . كنا نعيش سويًا فى الحقيقة ، ولكن كنا لا نستطيع أن ندفع عنا الشموخ الذى كان ينسبه بعضنا لبعض ، وشعورنا بأن كلامنا ينتمى لجماعات ضيقة وقوية وبدائية ، تصنع أساطير ساحرة وتتغذى بالخطأ وتفرض علينا استبدادها . كنا مدلهين ومؤمنين ومرهفى الحس وكثيرى النقاش تنفر من القوضى ونكره العنف والظلم . يوحدنا ويفصلنا الامتناع الضمنى بأن العالم قد خلق

(١) يقعد الباحثون (المترجم) .

(٢) The right man in the right place

لأستعمالنا ، وبأن أهلنا هم أفضل الأهل قاطبة . كنا نحرص على عدم إهانة أحد ، وأن نبقي مجاملين حتى في ألمانيا . كانت السخرية والمزاح ممنوعين بتاتا . وإذا ثار أحدنا كانت الجماعة كلها تلتف حوله وتهدهه وتضطره إلى الاعتذار ، كما لو كانت أمه بنفسها هي التي تبكته بلسان جان مالنكان أو نورير مير . وعلى أى حال فإن كل أولاء السيدات كن يعرفن بعضهن بعضا ، وكن يعاملن بعضهن بعضا معاملة قاسية . كن ينقلن لبعضهن البعض أحاديثنا ونقدنا وأحكام كل منا على الجميع . أما نحن الأبناء فكنا نحصى بعضنا عن بعض أحاديثهن . وعادت أى غاضبة من زيارة للسيدة مالنكان لأنها قالت لها بكل صراحة : « إن أندريه يجب أن يولو مدع . » ولم يكدرنى هذا رأى : هكذا تتكلم الأمهات فيما بينهن ؛ ولم أحقد أبدا على أندريه ولم أقل له كلمة عن هذا الموضوع . كنا بالاختصار نحترم العالم كله ، الأغنياء والفقراء ، الجنود والدينين ، الشباب والشيوخ ، الناس والحیوانات . لم نكن نحقر سوى تلاميذ القسمين نصف الداخلى والداخلى : لابد أن يكونوا قد اقترفوا ذنوبا كبيرة مما جعل أسرهم تتحركهم : ربما كان أهلهم سيئين ولكن ذلك لن يجدى شيئا : إن للأطفال الآباء الذين يستحقونهم . وفى المساء ، بعد الساعة الرابعة تصبح الليسه مهلكة حين يغادرها تلاميذ القسم الخارجى .

وإن صداقات بهذا القدر من الحذر لا يمكن أن تقوم دون بعض الجفاء . وفى العطلة الصيفية كنا تفرق غير آسفين . ومع ذلك كنت أحب بركو . كان بمثابة أخ لى لأنه كان ابن أرملة . كان وسيما وضعيفا ورقيقا ؛ لم أكن أكل عن النظر إلى شعره الطويل وقد مشط على طريقة جنان

دارك . ولكن كان كلابنا فخورا على الخصوص بأنه قرأ كل شيء ، وكنا نتحى ركننا تحت القسم السقوف من فناء المدرسة لتكلم في الأدب ، أى نعاود مائة مرة ، وبرور - عد المؤلفات التى تناولتها أيدينا . وذات يوم نظر إلى نظرة هوس وأسر لى أنه يريد أن يكتب . لقد التقيت به بعد ذلك فى الصف الثمانى من القسم الثانوى ، وسيا كالعادة ولكنه مصاب بالسل : وقد توفى فى الثامنة عشرة من عمره .

كنا جميعاً ، حتى بركو العاقل ، نجب بنار ، هذا الصبي المرتجف المستدير الذى كان يشبه الكتكوت . إن صدى مزاياء وصل إلى أسماع أمهاتنا فاستشعرن نحوه شيئاً من القيرة ولكنهن لم يكن يكفن عن تقديمه لنا مثلاً يحتذى ، دون أن يصلن إلى جعلنا تنفر منه . وليحكم الناس على تحيزنا ، كان فى القسم نصف الداخلى وكنا نحبه لذلك أكثر ؛ فكان فى نظرنا تلميذا شرفيا فى القسم الخارجى . فى المساء ، تحت الصباح العائلى كنا تفكر فى هذا البشر الذى يبقى فى الغابة ليهدى أكلة اللحوم البشرية فى القسم الداخلى ، وكان خوفنا يقل . ومن العدل أن نقول إن تلاميذ القسم الداخلى بالذات كانوا يحترمونه . ولم أعد أعرف بكل وضوح أسباب هذا القبول الإجماعى . كان بنار رقيقا وبشوشا وحساساً وكان فوق ذلك الأول فى كل المواد . ثم إن أمه كانت تحرم نفسها من أجله . ولم تكن أمهاتنا تعاشر هذه الحياطة ، ولكنهن كن يحدثنا عنها كثيرا ليجملنا بقدر عظمة حب الأم . لم نكن تفكر إلا فى بنار : كان شعلة هذه النعسة وبهجتها : كنا نقدر عظمة الحب النبوى . والخلاصة فإن الجميع كانوا يحنون على هذين الفقيرين الطيبين . ولكن ذلك لم يكن يكفى .

والحقيقة أن بنار كان يحى نصف حياة : فأننا لم أره أبدا بدون كوفية غليظة من الصوف . كان يتسم لنا بلطف ولكنه كان قليل الكلام ، وأذكر أنه منع من اللعب معنا . وكنت من ناحيتي أجله بقدر ما كان ضعف صحته يبعده عنا . لقد وضعوه خلف الزجاج . كان يحينا ويرسل لنا إشارات خلف زجاج النافذة ، ولكننا لم نكن نقرب منه . كنا نحبه من بعيد لأنه وهو حى كانت له أثرية الرموز . إن الطفولة تتمسك بالعرف والتقاليد ، وكنا نتعرف له بحميل دفعه الكمال إلى حد التجريد . وإن تحدث إلينا امتلأنا سرورا من كلامه الذى لا دلالة له . لم نره ساخطا قط ولا مبتهجا أكثر مما يجب . وفى الفصل لم يرفع إصبعه قط ، ولكن عندما كان يسأل كانت الحقيقة تتكلم بلسانه ، بلا تردد ولا جهد ، عاما كما يجب أن تتكلم الحقيقة . كان يثير دهشة شلتنا السكونية من أطفال نبغاء لأنه كان الأفضل دون أن يكون نابغا . فى ذلك الوقت كنا جميعا تقريبا يتاء الأب . لقد مات هؤلاء السادة ، أو كانوا فى جبهة القتال ، ومن بقى على قيد الحياة ، وقد قل شأنهم ونقصت رجولتهم — كانوا يعملون على أن ينساقم أبناؤهم . كنا فى عهد الأمهات ، كان بنار يعكس لنا الفضائل السلبية لسلطة الأم .

وقد توفى فى آخر الشتاء . إن الأطفال والجنود لا يهتمون قط بالموتى . ومع ذلك كنا أربعين نتحب خلف نمشه . كانت أمهاتنا ساهرات : لقد غطيت الهوة بازهور وقد اجتهدن فى أن يجعلتنا نقبر هذا الموت جائرة إضافية فى حسن السلوك والاجتهاد ، أعطيت أثناء العام الدراسى . ثم إن بنار كان يعيش قليلا ، بحيث أنه لم يمت حقيقة . لقد ظل بيننا وجودا

منتشراً ، في كل مكان ، ومقدساً . لقد قفرت حكمتنا قفزة : فأصبح لدينا فقيد عزيز ، كنا نتحدث عنه بصوت خفيض وسرور حزين . فلربما نحتطف مثله قبل الأوان . كنا نتخيل دموع أمهاتنا وكنا نشعر بأثنا عزاز . هل كنت أحلم مع ذلك ؟ إنني احتفظ في غموض بذكرى حقيقية غاية في القسوة هي أن هذه الخياطة ، هذه الأرملة ، قد فقدت كل شيء . هل حقاً انقبض صدرى رعباً من هذه الفكرة ؟ هل استشففت السر ، وغياب الله وعالمنا غير مسكون ؟ أظن ذلك : ولماذا ؟ لو لم يحدث هذا الأمر لما احتفظت صورة بنار بوضوحها المؤلم في طفولتي المنكرة ، المنسية الضائعة .

وبعد ذلك بيضمة أساميع كان الفصل (١) أول من الصف الخامس مسرح حدث غريب : ففي أثناء درس اللاتيني فتح الباب ودخل بنار وبجانبه حارس البوابة ، وحيا السيد دورى معلماً وجلس . لقد عرفنا جميعاً نظارته الحديدية وكوفيته وأتفه المهدوب قليلاً ومظهره الذي يشبه الكنكوت البردان واعتقدت أن الله قد رده لنا . وبدأ على السيد دورى أنه يشاطرنا دهشتنا : فقد توقف عن الكلام وأخذ نفسه بقوة وسأل عن اسم العائلة والاسم ونوع القيد ومهنة والوالدين ، وأجاب بنار أنه نصف داخلي وابن مهندس وأنه يدعى بول أيف نيزان . كنت أشد أقراني دهشة . وفي القسحة عرضت عليه صداقتي ، فقبلها : وارتبطنا . ولكن هناك تفصيلاً جعلني أشعر بأنني لست أمام بنار ولكن أمام صورته الشيطانية : إن نيزان كان أحول . ولكن فأت وقت أخذ هذا العيب في الاعتبار : لقد أحببت في هذا الوجه تجسيد الخير ؛ وانتهى بي الأمر بأن أحببته لنفسه . ووقعت في الفخ ، إن ميلي للفضيلة قادني إلى التعلق بالشيطان . وفي الحقيقة

إن بنار المتحل لم يكن شريراً ... إنه كان حياً ، هذا كل ما فى الأمر . كانت له كل صفات شبيهه ، ولكنها ذابلة . إن تحفظ بنار كان يتحول فيه إلى مواربة ؛ فإذا سحقته انفعالات عنيفة وسلبية فإنه لم يكن يصرخ ، ولكننا رأيناه يبيض من الغضب ويتمتم : إن ما كنا نأخذ على أنه عذوبة لم يكن إلا شللاً مؤقتاً ؛ لم تكن الحقيقة هى التى تخرج من فمه ولكن لون من الموضوعية الوقحة والخفيفة ، التى كانت تضيقنا لأننا لم نكن قد ألفناها . وعلى الرغم من أنه كان يبد والدیه بالطبع فإنه كان الوحيد الذى يتكلم عنهم بسخرية . وفى الفصل كان أقل لهما من بنار ؛ ولكنه كان قد قرأ كثيراً ويتمنى الكتابة . وبالاختصار كان شخصاً كاملاً . ولم يكن يدهشنى شيء أكثر من أن أرى شخصاً فى ملامح بنار . ولما كان هذا التشابه متسلطاً على قأى لم أكن أعرف قط إن كان يجب أن أمدحه لأنه يقدم مظهر الفضيلة أو أقدحه لأنه ليس لديه إلا هذا المظهر . وكنت أثقل بلا انقطاع من الثقة العمياء إلى عدم الثقة غير المعقولة . ولم نصبح أصدقاء بمعنى الكلمة إلا بعد ذلك بوقت طويل ، وبعد فراق طويل .

وخلال سنتين أوقفت هذه الأحداث وهذه الالتقاءات اجتراراتى ، دون أن تلتنى السبب . والواقع أن شيئاً لم يتغير من حيث العمق : وأن هذه الرسالة التى أودعها فى الكبار داخل ظرف غثوم ، لم أعد أفكر فيها ولكنها كانت باقية . لقد استولت على شخصى . وفى التاسعة من عمرى كنت أراقب نفسى حتى فى أشد حالات اندفاعاتى : وفى العاشرة تواریت عن نظرى . كنت أعدو مع بران وأتحدث مع بركو ونيزان . وفى هذه

الأثناء تركت رسالتى اثرائة لذاتها ، فتجسدت وسقطت آخر الأمر فى ليلى ؛ ولم أعد أراها . لقد صنعتى ، وكانت تعارس قوة جاذبيتها على كل شيء ، فتلوى الأشجار والجدران وتقوس السماء فوق رأسى وكنت قد خلت نفسى أميراً وكان ذلك جنوى . وقال أحد المحللين النفسيين من أصدقائى إننى مصاب باضطراب فى طبعى ، وهو على حق . فبين صيف سنة ١٩١٤ وخريف سنة ١٩١٦ أصبحت رسالتى هى طبيعتى ؛ لقد ترك هذيانى رأسى ليسيل فى عظامى .

لم يحدث لى شيء جديد : لقد عثرت على ما قمت بتمثيله وتنبأت به سالماً صحيحاً مع هذا الاختلاف الوحيد : أننى بلا معرفة وبلا كلات وبلا تبصر حققت كل شيء . وكنت من قبل أتصور حياتى فى صور : فكان موتى يسبب مولدى ، وكان مولدى يلتقى بى إلى موتى ؛ وما أن أعدل عن رؤيتها حتى أصبح أنا نفسى هذه المبادلة . وشددت حتى التمزق بين هذين الطرفين أموت وأحيا عند كل خفقة تلب . وأصبحت آخرتى المستقبلية مستقبل اللبوس . كانت تضرب كل لحظة عبث ، وكانت فى مركز أعمق ابتاه ... شروداً أعمق ، وفراغ كل كمال ، واللاوقع الخفيف للواقع . كانت تمت من بعيد طعم الحلاوى فى فى ، والأحزان والأفراح فى قلبى ؛ ولكنها كانت تنقذ أكثر اللحظات بطلاناً بهذا السبب الوحيد وهو أنها كانت تأتى أخيراً وكانت تقربنى من آخرتى . لقد اعتنيت الصبر على الحياة : فلم أعد تط أتمنى أن أفزع عشرين سنة ، وأن أتصفح عشرين سنة أخرى ، ولم أعد أتصور الأيام البعيدة لاتصارى ؛ وانتظرت . وفى كل دقيقة كنت أنتظر الدقيقة القادمة لأنها كانت تشد إليها الدقيقة التى تلبها . وعشت هاتفاً فى

العجلة القاسية ، متقدما دائما على نفسه . كان كل شيء يستغرقني ، ولا شيء يوقفني . يا له من انقراج فني الماضي كانت أياي تتشابه إلى الحد الذي كان يجعلني أسأل نفسي أحيانا إن لم يكن قد حكم على أن أكابد العودة الأزلية لليوم نفسه . ولم تتغير أياي كثيرا . وقد احتفظت بمادة السقوط الدميعة وهي ترتجف ؛ أما أنا فقد تغيرت فيها : فلم يعد الزمن هو الذي يفيض على طفولتي الجامدة ، وكنت أنا ، السهم المرشوق بناء على أمر ، الذي يقب الزمن ويمرر رأسا إلى الهدف . وفي سنة ١٩٤٨ ، في مدينة أوترفت ، أراني الأستاذ فان لب اختبار إسقاطية . واسترعت إحدى اللوحات اتباعي : فقد رسم عليها جواد يبدو ورجل عشي ونسر يحلق وزورق بمحرك يطفر ؛ وكان على المختبر أن يشير إلى الرسم الذي يعطيه أكبر شعور بالسرعة ، فقلت : « إنه الزورق » . ثم نظرت بفضل إلى الرسم الذي فرض نفسه بهذه الشراسة ؛ كان الزورق يبدو أنه ينسلخ عن البحيرة ، وأنه بعد لحظة سوف يحلق فوق هذا الجمود التموج . وظهر لي سبب اختياري في الحال : ففي العاشرة من عمري بدا لي أن صدرى يشق الحاضر وينزعني منه ؛ وجريت منذ ذلك الحين ، ومازلت أجرى . إن السرعة لا تهدر في نظري بالمسافة المقطوعة في مدة معينة من الزمن ، قدر تقديرها بطاقة الانزعاج .

منذ أكثر من عشرين سنة بينا كان جيا كوميتي يعبر ميدان إيطاليا^(١) ذات مساء صدمته سيارة فأصيب بجرح والتوت ساقه . وفي الاغماء

(١) أحد ميادين باريس (المترجم)

الجلية التي راح فيها شعر أولا بنوع من البهجة : « أخيراً شيء ما حدث لي ! » إلى اعرف تطرفه : إنه كان ينتظر الأسوأ ، إن هذه الحياة التي كان يحبها إلى الدرجة التي لم يكن يتخلى عنها حياة أخرى — كانت حياة مقالوبة ، وربما محطمة بحاقة عنف الصدفة . وكان يقول لنفسه « لم أخلق إذن لأتحت ولا حتى لأعيش ، لم أخلق لشيء » إن ما كان يحلمه هو نظام السببية المهدد عندما يرفع عنه القناع فجأة وأن يحرق في أضواء المدينة وفي الناس وفي جسمه هو نفسه وقد تلمط بالوحل بتلك النظرة المحجرة ككوارث الطبيعة . وبالنسبة للنحات فإن سيطرة المعادن ليست بعيدة أبداً ، إلى اعجب بإرادة تقبل كل شيء هذه . وإن كنا نحجب المفاجآت فيجب أن نحجب حتى ذلك الحد ، حتى ذلك الحد ، حتى ومضاتها النادرة التي تكشف للهواة أن الأرض لم تخلق لهم .

وفي العاشرة من سني كنت أدعي أنني لا أحب غير المفاجآت كان على كل خيط في نسج حياتي أن يكون غير متوقع وأن تنبعث منه رائحة الطلاء الجديد . كنت أقبل مقدما الظروف الطارئة والعوارض ، وكى أكون عادلا يجب أن أقول إنني كنت أقبلها قبولا حسنا . وذات مساء انطفأت الكهرباء بسبب عطل؛ وناداني أحدهم من غرفة أخرى وتقدمت فاتحا ذراعى فاصطدم رأسي بمصراع باب، وكانت الصدمة قوية بحيث كسرت سنا من أسناني . وألهاني هذا الحادث وضحت له على الرغم من الألم ، كما سوف يضحك جيا كومتى بعد ذلك لساقه ، ولكن لأسباب مناقضة على خط مستقيم . ولا كنت قد قررت مقدما أن تكون لقصتي نهاية سعيدة ، فإن غير المتوقع لا يمكن أن يكون سوى خديعة ، والجلدة لا يمكن

أن تكون سوى مظهر . إن احتياج الشعوب ، سوى كل شيء عندما
 جعلني أولاد ؛ ورأيت في هذه السن المكسورة علامة ... تنبئها غامضا
 سوف أفهمه فيما بعد . وبمعنى آخر كنت أحفظ نظام الغايات في كل ظرف
 وبأى عن . كنت أنظر إلى حياتي خلال موتى وكنت لا أرى سوى ذاكرة
 مقفولة لا يستطيع شيء أن يخرج منها أو يدخل فيها . هل يتصور أحد
 أمي ؟ إن الصدف لا وجود لها : ولم أكن أتعامل إلا مع ما تقلده من
 الأشياء تقليدا صادرا عن العناية الإلهية . كانت الصحف تلتقي في الروع
 أن قوى مشتهة تجول في الطرقات وتحصد صغار الناس . أما أنا المختار
 فإني لن التقى بها . ربما فقدت ذراعا أو ساقا أو عيني . ولكن كل شيء
 كان في الطريقة : إن مصائبي لن تكون أبدا سوى محن ، سوى وسائل
 لعمل كتاب . تعلمت أن أتحمل الأحزان والأمراض . رأيت فيها بواكير
 موتى الانتصاري ، والدرجات التي ينتهها ليرفعني إليه . إن هذه العناية
 الفظة بمض الشيء لم أكن أستبجحها وكنت أعني بأن أظهر جديرا بها .
 كنت أعتبر الأسوأ شرط الأفضل . إن أخطائي تقسها كانت تفيد ،
 وهذا يعني أنني لم أكن أقترف أخطاء . ففي العاشرة من عمري كنت
 واثقا من نفسي . ولما كنت متواضعا وغير محتمل ، فقد كنت أرى في
 هزأني شروط نصري بعدالمات . وسواء كنت كفيفاً أو مقعداً ، تضللني
 أخطائي ، فإني سوف أكسب الحرب من كثرة خسارة المارك . لم
 أكن أفرق بين المحن المخصصة للمختارين وال فشل الذي كنت أحمل مسئوليته .
 إن ذلك يعني ان جرائمي كانت تبدو لي في الواقع تعاسات ، وأنني كنت
 أطالب بيلايي كأنها أخطاء ، والواقع أنني كنت لا أستطيع ان أمرض

سواء كانت الحصة أو الزكام دون أن أعلن أنني مذنب : لقد أهملت الوقاية ونسيت أن أرتدى معطى وكوفى . وفضلت دائماً أن أتهم نفسى على اتهام الكون ؛ لا عن سلامة قلب ، ولكن كي لا أكون متعلقاً إلا بنفسى . إن هذا التكبر لم يكن يمنع التواضع ، كنت أعتقد طوعاً أنى كنت عرضة للخطأ بقدر ما كان ضعفى أقصر طريق طبيعى للخير ، وكنت أرتب أمرى لأشعر فى حركة حياتى بمجاذبية لا تقاوم كانت لا تقطع فى إجبارى ، حتى على الرغم منى ، على تحقيق تقدم جديد .

إن كل الأطفال يعرفون أنهم يتقدمون . وعلى كل فإنه لا يسمح لهم بأن يجهلوا ذلك : « من تقدم يجب أن ينتقل إلى تقدم آخر ... تقدم جاد منتظم ... » إن الكبار يقصون علينا تاريخ فرنسا : فبعد الجمهورية الأولى ، هذه الجمهورية غير الأكيدة جاءت الجمهورية الثانية ثم الثالثة وهى الجمهورية الصحيحة : الثالثة ثابتة ! إن التناؤل البورجوازى كان محملاً حينذاك فى برنامج الحزب الراديكالى (١) : وفرة متزايدة فى الخيرات ، وإلغاء الفقر بمضاعفة للمارف ، وبالملكية الصغيرة . أما نحن السادة الشبان فقد وضعوا هذا التناؤل فى متناولنا . واكتشفنا ، راضين ، أن تقدمنا الفردى كان يصور تقدم الأمة . ومع ذلك فإن الذين كانوا يريدون أن يرتفعوا فوق آبائهم كانوا نادرة . فبالنسبة للأغلبية لم يكن بهمهم إلا الوصول إلى سن الرجولة ؛ ثم يتوقفون عن أن يكبروا وينموا ؛ إن العالم حولهم هو الذى يصبح تلقائياً أفضل وأكثر راحة . إن بعضنا كان ينتظر هذه

(١) حزب فرنسى تأسس بعد إعلان الجمهورية الثالثة وهو حزب الاخرار المتطرفين .
(المترجم) :

للحظة بفروغ صبر ، والبعض في خوف وآخرون في أسف . أما أنا فقبل
أن أنذر كنت أكبر في عدم المبالاة : كنت لا أكرث بالثوب الأبيض^(١)
كان جدى يجدى قصيراً جداً ويبدى أسفه على ذلك . وكانت جدتى تقول
له لتغيظه : سوف يكون له قوام عائلة سارتر ، . وكان جدى يتظاهر
بأنه لم يسمع ، وكان يقف أمامى ويقينى ، ثم يقول أخيراً دون اقتناع
كبير : إنه ينمو ، ولم أكن أشاطره لافلته ولا آماله : إن الأعشاب
الضرة تنمو هى أيضاً ؛ وهذا برهان على أن المرء يمكن أن يصبح طويلاً
دون أن يكف عن أن يكون شريراً . وكانت مشاكلى آنذاك أن أكون
خيراً إلى ما شاء الله . وكل شيء تغير حينما أسرعت حياتى : فلم يعد يكفى
أن أفعل الخير ، كان يجب أن أفعل الأحسن فى كل وقت . ولم يعد لى إلا
قانون واحد : أن أنسلق . وكى أغذى مطامحى وكى أخفى شططها لجأت
إلى التجربة المشتركة : ففى تقدم طفولتى المتعير أردت أن أرى بوادر
مصرى . إن هذه التحسنات الحقيقية ولكن الصغيرة والعادية جداً أوهمتنى
بأنى أختبر قوتى على الارتفاع . ولما كنت طفلاً عاماً ، فقد اتخذت علناً
أسطورة طبقى وجيلى : إننا نستفيد من المكتسب ونستثمر التجربة ،
ويثرى الحاضر بالماضى كله . وفى الوحدة كنت بعيداً عن أن أرضى بها .
لم أكن أستطيع أن أقبل أننا نستقبل الوجود من الخارج ، وأنه يحفظ
نفسه بالقصور الذاتى ، ولا أن حركات النفس هى نتائج حركات سابقة .
ولما كنت قد ولدت من انتظار مستقبل فإننى كنت أثب متوجهاً بكليتى ،
وكانت كل لحظة تكرر حفلة مولدى . كنت أريد أن أرى فى انفعالات

(١) ثوب كان يرتديه أبناء الأسر النبيلة النبان فى روما القديمة (المترجم)

قلبي أزيز شرارات . لم أتراني الماضى إذن ؟ إنه لم يصنعنى ، وعلى العكس ، كنت أنا المنبعث حيا من رمادى الذى ينزع من العدم ذاكرتى بخلق . يتكرر دائما . كنت أولد من جديد أفضل مما كنت ، وكنت أستخدم الذخائر الجامدة لروحي استخداما أحسن . ذلك أن الموت كلما اقترب منى كان يزيدنى . نورا بضوئه المغم . وكثيرا ما كان يقال لى : إن الماضى يدفنا ، ولكنى كنت واثقا من أن المستقبل يشدنى . كنت أكره أن أشعر فى نفسى بقوى رقيقة وهى تعمل ، وبفتح استعدادى البطيء . لقد درست تقدم البورجوازيين المتصل فى نفسى ، وجعلت منه محركا ذا اشتعال داخلى ؛ وهبطت بقيمة الماضى أمام الحاضر . والحاضر أمام المستقبل ، وحولت التطورية هادئة إلى كوارث ثورية متقطعة . لقد لفت نظرى منذ بضع سنوات إلى أن شخصيات مسرحياتى ورواياتى يتخذون قراراتهم فجأة وفى نوبة ، وأنه تكفى لحظة مثالا كى ينجز أورست فى مسرحية « اللباب » ، تحوله .. ذلك أنتنى أضعمهم على صورتى ؛ لا كما أنا بالفعل بلا شك — ولكن .

مثلا كنت أريد أن أكون .

أصبحت خائنا وظللت كذلك . وعثا . حاولت أن أضع نفسى كاملا فيما أقوم به . أن أهب نفسى بلا تحفظ للعمل والتضبط والصدقة . سوف أنكر نفسى بعد لحظة .. إني أعلم ذلك وأريده ، وهأنا ذا أفصح نفسى ، وأنا فى وقدة انفعالى بسعادة الشعور بخيائى المستقبل . وبالجملة فاني أوفى . بتمهداتى كغيرى : ولا كنت ثابتا فى عواطفى وفى سلوكى ، فإني غير مخلص لانفعالاتى : وجاء وقت كان فيه آخر ما أشاهد من آثار ولوحات ومناظر طبيعية هو دائما أجل ما أرى . كنت أغضب أصدقائى حين كنت

أثير في وقاحة أو فقط في طيش — ذكرى مشتركة قد تظل عزيزة عليهم.
لأقنع نفسي بأننى قد تخلصت منها . ولأننى لم أحب نفسي بما يكفي فقد
هربت إلى الأمام . والنتيجة أننى أحب نفسي أقل مما كنت أفعل ، وأن
هذه التوالية التى لا ترحم ما فتئت تحيط من قيمتى باستمرار أمام نفسي .
لقد أسأت التصرف أمس لأنه كان أمس ، وأحسن اليوم الحكم القاسى
الذى سوف أصدره على نفسي غدا . لا اختلاط بلا نظام على الأخص . أنى
أمنع ماضى من الاقتراب منى . فالراحة وسن النضوج وحتى السنة التى
ولت توا ، سوف تكون دائماً العهد القديم . إن العهد الجديد يعلن عن
نفسه فى الساعة الحاضرة ولكنه لا ينشأ أبداً . غدا الخلاقة بخانا !! لقد
شطب على الخصوص سنواتى الأولى : وحين بدأت هذا الكتاب قضيت
وقتا طويلا لأفك رموزها تحت الشطب . وعندما كنت فى الثلاثين من
عمرى ، كان بعض الأصدقاء يقولون لى فى دهشة : « يبدو أنه لم يكن
عندك أهل ولم تكن لك طفولة : » وكنت أسر لذلك عن جهل . ومع
ذلك فأنى أحب وأحترم الإخلاص للتواضع والراسخ الذى يمكنه بعض
الناس وخاصة بعض النساء — لأذواقهم ولرغباتهم ولمشروعاتهم القديمة
ولالأعياد التى زالت . إننى أعجب بارادتهم أن يظلوا كما هم وسط التغيير
وأن يتخذوا ذاكرتهم وأن يحملوا فى الموت أول دمية وسن لبن وحب
أول . لقد عرفت من بينهم رجالا ضاحكوا فى آخر حياتهم امرأة كبرت فى
السن لهذا السبب الوحيد : أنهم اشتبهوا فى شبابهم . ورجالا آخرين
احتفظوا بالبغضاء نحو الموتى أو فضلوا المبارزة على الاعتراف بغلطة
عرضية اقترفوها منذ عشرين سنة . أما أنا فلست حقودا وأعترف بكل

شيء في يسر : أنا موهوب فيما يخص بالنقد الذاتى على شرط ألا يستمر
 أحد إلى فرضه على . وفى سنة ١٩٣٦ . وسنة ١٩٤٥ ضايقوا الشخصية التى
 تحمل اسمى : فهل هذا يعينى ؟ انى أقيد فى حسابى الدين الالهات التى
 قاساها . إن هذا الأبله كان لا يعرف حتى كيف يجعل الناس تحترمه . لقد
 قابلنى صديق قديم ؛ وقص على كبرته . إن فى نفسه شكوى منذ سبع
 عشرة سنة ؛ فى ظرف معين أسأت معاملته . إنى أكاد أذكر أننى كنت
 فى ذلك الحين أدافع عن نفسى بشن هجوم مضاد ، وأننى كنت آخذ عليه
 شدة حساسيته ونجون الاضطهاد عنده ، وبالاختصار إن لى روايتى الخاصة
 عن هذا الحادث : ولكن لم يزدنى ذلك إلا حرارة فى قبول روايته ،
 وواقفته على رأيه وجملت على نفسى : لقد تصرفت بغرور وبأنانية ، وليس
 لى قلب ؛ إنها مذبحة سارة : إنى أتلذذ بصفائى ؛ إن اعترافى بأخطائى بهذا
 القدر من طيبة الحاضر ، برهان لى على أنى لن أستطيع قط اقترافها .
 هل من يصدق أن إخلاصى واعترافى الكريم قد زاد الشاكى هياجا ؟
 لقد كشفتنى . إنه يعلم أننى أستخدمه : إنه يحقد على أنا ، أنا حيا ، حاضرا
 وماضيا ، أنا نفسى الذى عرفه دائما . وتركت له جثة بلا حراك لسرورى
 بأن أشعر بنفسى طفلا ولد توا . وانتهى بى الأمر بأن ثرت بدورى على
 هذا الهاج الذى ينبش الجثث . وبالعكس لو حدث وذكرنى أحد هم بظرف
 من الظروف لم أعبس فيه . كما قيل لى — فإنى أكنس يدي هذه
 لذكرك ؛ إنهم يعتقدون أنى متواضع ، ولكن العكس هو الصحيح .
 إنى أرى أننى سأفعل الأحسن اليوم والأكثر حسنا غدا . إن الكتاب
 فى سن الكهولة لا يحبون أن يهتوا تهمة مؤكدة على أول عمل لهم

ولكن أنا متأكد من أن هذه النهاية تسرنى أنا أقل من غيرى. إن خير
 كتي هو الذى أقوم بكتابته الآن. ويأتى بعده توا آخر كتاب نشر لى ،
 ولكنى أعد نفسى سرا لبكى أشمئز منه قريبا . ربما يسؤنى أن يجده النقاد
 اليوم رديئا ، ولكن بعد ستة أشهر لن أكون بعيدا عن مشاطرتهم رأيهم .
 لا مانع لى من أن يحكموا على هذا المؤلف بأنه فقير جداً وفارغ جداً ،
 بشرط أن يضعوه فوق كل ما كتبت من قبل . إلى أقبل أن تقل قيمة
 الحصة كلها على شرط المحافظة على الترتيب الزمنى ، وهذا وحده هو الذى
 يحفظ لى فرصة إجادة العمل غداً ، وإجادته أكثر بعد غد ، وأنت أختم
 أعمالى بإحدى الروائع ..

يبد أنى لست غرا : فأنا أرى جيدا أننا نكرر أنفسنا . ولكن هذه
 المعرفة المكتسبة أخيراً جداً تأكل بداهاى القديعة ، دون أن تبددها
 تماما . إن لحياتى بعض الشهود المبوسين الذين لا يسامحوننى فى شيء ..
 إنهم كثيراً ما يفاجئوننى وأنا أسقط من جديد فى نفس الدروب .
 ويقولون لى ذلك وأصدقهم ، ثم فى آخر لحظة أهنى نفسى : فقد كنت
 أعمى بالأمس ؛ إن التقدم الذى حققته اليوم هو إدراكى أنى توقفت عن
 التقدم . وأحيانا أكون أنا نفسى شاهد إثباتى . فقد يحظر بيالى مثلا أنى
 كتبت قبل ذلك بستين صفحة يمكن أن تفيدنى . وأبحث عنها ولا أجدها
 لحسن الحظ . فقد كنت سأدخل ، مدفوعا بالكسل ، خرقة قديعة فى
 مؤلف جديد . إننى اليوم أجد الكتابة أكثر بكثير ... سوف أكتبها
 من جديد . وعندما أتهى من عملى تضع الصدقة يدى على الصفحة الضائعة ..
 يا للدهشة : ففى ما عدا بعض علامات الترقيم أجد أننى قد عبرت عن نفسى

الفكرة بنفس المبارات . وترددت ، ثم أقيمت في السلة بهذه الوثيقة البائدة ، واحتفظت بالرواية الجديدة : إن فيها شيئا لا أعرفه عليها على القدية . وباختصار أسوى أموري : فعندما تزول العشاوة عن عيني أغشى نفسي لأشعر ، على الرغم من التقدم في السن الذي يضعفني ، بالنشوة الغضة لتسليق الجبال .

وفي العاشرة من عمري لم أكن أعرف بعد عاداتي المستهجنة وما أكرره من كلمات ، ولم يكن الشك راودني : وكنت أنوث وأثر مأخوذا بما أشاهده في الشارع ، ولم أكن أكف عن تجديد جلدي ، وكنت أسمع جلودى القدية تتساقط بعضها على بعض . وحين كنت أصدع في شارع سوفلو ، كنت أحس في كل خطوة ، في توارى واجهات العرض ، هذا التوارى المثنى للأبصار حركة حياتي وقانونها والترخيص الجميل لي ألا أكون وفيأ لشيء . كنت أصعب نفسي بكليتي . إن جدتي تريد أن تجدد طقم المائدة ؛ فأصحبها إلى محل صيني وزجاج ؛ وتشير إلى صحيفة حساء على غطاءها تفاحة حمراء وإلى صحنون محلاة بالأزهار . ليس هذا ما تريده تماما : فإن على صحنونها توجد أزهار بالطبع ولكن توجد كذلك حشرات سمراء تتسلق السيقان بطولها . وتتحرك البائعة بدورها : إنها تعرف غاما ما تريده العميلة ، كان هذا الصنف عندها ولكن لم يعد يصنع منذ ثلاث سنوات ؛ إن هذا النموذج أحدث وأنتفع ، ثم أليست الأزهار أزهارا سواء كانت بحشرات أو بدون حشرات ؛ إن أحدا لن يذهب إلى حد تقليد الصحن على رأى المثل ١ ولكن جدتي ليست من هذا . الرأى ، فتسأل مملحة : ألا يمكن أن نلقى نظرة على الحزن ؟ آه الحزن ؟ نعم بكل تأكيد

ولكن لابد من الانتظار فالبائسة وحدها : فقد تركها مستخدمها في التو .
وأودعوني ركناً وأوصوني بألا أمس شيئاً ، ونسوي . وقد أرهبتني الأشياء
القابلة للكسر التي تحيط بي والبريق المغبر وقناع بسكال وهو ميت ، ومبولة
على شكل رأس الرئيس فالير . وعلى هذا ، فعلى الرغم من المظاهر فإنني
شخصية ثانوية مزورة . وهكذا يدفع بعض المؤلفين بعض « النافع » إلى
مقدمة المسرح ويقدمون أبطالهم بسرعة في نظرة جانبية ناقصة . إن القارئ
لا يخطيء : فقد قلب صفحات الفصل الأخير ليرى إن كانت الرواية تنتهي
بنهاية سعيدة ، هو يعرف أن الشاب الشاحب المسند إلى المدفأة في جوفه
ثلاثمائة وخمسون صفحة . ثلاثمائة وخمسون صفحة من الحب والغامرات .
كان لدى على الأقل خمسمائة صفحة . كنت بطل قصة طويلة بنهاية سعيدة .
لقد توقفت عن قص هذه القصة على نفسي : فما جدوى ذلك ؟ كنت أشعر
في نفسي بأني عاشق ، هذا كل ما في الأمر . إن الزمن كان يشد إلى الحلف
السيدات المسنات وأزهار الصنفي وكل الحانوت . إن الجونلات السوداء
تشعب الأصوات وتصبح قطنية . كنت مشفقاً على جدتي ، فإننا لن نزاها
بالتأكيد في الجزء الثاني . وبالنسبة لي ، فقد كنت البداية والوسط والنهاية
ملومة في طفل صغير جداً بلغ الشيخوخة فعلاً ومات بالفعل ، هنا في الظل ،
بين أكوام الصحون المرصوة الأعلى منه ، وفي الخارج بعيداً جداً في
وضع شمس المجد الجنائزية ، كنت الذرة في بداية مسارها وجلبة الموجات
التي تفيض عليها بعد اصطدامها بصدمات الوصول . فإذا ما جمعت نفسي
وأوثقتها لامسا بيد قبري . وباليد الأخرى مهدى ، فإنني كنت أشعر بنفسى
وجيذا وزاهيا ، شهاب خفائي مسخته الظلمات .

ومع ذلك فإن الملل لم يغادرني ؛ كان رزينا أحيانا ومقزأ أحيانا .
 أخرى ، كنت أخضع لأخطر اغراء حين لم يقد في استطاعتي تحمله :
 لقد أضاع أورفيوس ^(١) أوريديس من قلة الصبر ؛ وكثيراً ما ضمت بسبب
 قلة الصبر . ولما كنت ضائعا من الفراغ ، كان يحدث أن ألقت إلى جنوبي
 في الوقت الذي كان يجب أن أتجاهله : أن أضعه تحت المسندة وأن أثبت
 اتباهي على الأشياء الخارجية . وفي تلك اللحظات ، كنت أريد أن أحقق
 تقى في الحال ، أن أعانق بنظرة واحدة المجموع الذي كان متسلطا على
 في الوقت الذي كنت لا أفكر فيه . يا للكارثة ! إن للتقدم والتفائل
 والحجائنات السارة والغاية السرية ، كل ذلك قد أنهار مما كنت أضفته أنا
 نفسى إلى تنبؤ السيدة يكار . لقد ظل التنبؤ ولكن ما الذي أستطيع أن أعمله
 به ؟ إن هذا العراف الذي كان يريد أن يتقد كل لحظات حياتي لم يكن محدد
 القول وكان يرفض أن يميز واحدة منها . إن المستقبل الذي جف بضربة
 واحدة لم يعد إلا هيكلا . . . إنى أجده صعبة وجودى وألاحظ أنها لم
 تتركنى قط .

ذكرى بلا تاريخ : إلى جالس على مقعد في حديقة اللوكسمبورج :
 لقد توصلت إلى آن مارى فى أن أستريح بالقرب منها ، لأنى كنت أسبح
 فى عرقى من كثرة الجرى . ذلك هو على الأقل ترتيب الأسباب . وبلغ بى

(١) أكبر موسيقي العصور القديمة . عن الثعبان زوجته أوريديس يوم
 زفافها . وترل أورفيوس إلى الجحيم وسحر بموسيقاه الآلهة الذين أعادوا له زوجته
 بشرط ألا ينظر خلفه طالما هو فى جهنم . ولكن أورفيوس عصا الأمر ففقد
 زوجته إلى الأبد (الترجمة) .

الليل حدًا جعلني أتجراً على تغيير هذا الترتيب . لقد جريت لأنه كان يجب أن أسبح في عرقى ولأعطي ألى فرصة استدعائى . كل شىء ينتهى إلى هذا المقعد ، كل شىء يجب أن ينتهى إليه . ماهو دور هذا المقعد ؟ إنى أجهله ولا أشغل بذلك أول الأمر : لن يضع انطباع من جميع الانطباعات التى عسى ؛ هناك هدف : سوف أعرفه وأبناء أخوالى سوف يعرفونه . إنى أهرساق القصيرتين اللتين لانتلسان الأرض ، وأرى رجلا مارا يحمل صرة وأرى حذاء : إن ذلك سوف يفيد . وأردد فى انجذاب : « إنه من الأهمية بىكان أن أظل جالسا . » ويتضاعف الليل : لم أعد أمتلك نفسى فى المخاطرة بمعنى : إنى لا أطلب إحياءات مثيرة ولكنى أرغب فى أن أحس معنى هذه الدقيقة ، أن أشعر بضرورتها ، وأن أمتع قليلا بهذا الإلهام الغامض الحيوى الذى أسنده إلى موسىه وهوجو . يد أنى لا ألعج إلا ضبابا . إن الطلب الجرد لضرورتى والإحياء الإجمالى لوجودى يستمران جنباً إلى جنب دون أن يتقاتلا أو يختلط بعضهما ببعض . لم أعد أفكر إلا فى الحرب وإلا فى إيجاد السرعة الصماء التى كانت تحملنى عبثاً ؛ لقد قطعت اللذة . أشعر بتنميل فى ساقى وأعملل . وفى هذه اللحظة بالذات كلفتنى السماء برسالة جديدة . إنه من المهم جدا أن أستأنف الجرى . فاقفز على قدى وانساب زاحفا ؛ والتفت عند نهاية المر : لم يتحرك شىء . ولم يحدث شىء . وأخفى عن نفسى خية أملى بعبارات : إنى أؤكد أنه فى غرفة مفروشة بأورباك ، حوالى سنة ١٩٤٥ سوف يكون لهذا الجرى نتائج لا تقدر . وأعلن رضى التام وأخمس ؛ وكى أجبر الروح القدس ، ألعب عليه لعبة الثقة : وأقسم فى فورة الحماس أننى أستحق الفرصة التى

منحنى إياها . كل شيء يجرى على سطح الجلد تقريبا . كل شيء يجرى على مستوى الجلد تقريبا كل شيء يلعب على الأعصاب . إننى أعرف ذلك . قد هجمت أُمى على ، هاهو ذا الجرس المصنوع من الصوف ، والكوفية ، والمعطف : وأتركها تغطينى ، أنا صرة ! يجب على أيضا أن أتحمل شارع سوفلو وشارب البواب ، السيد تريجون وسجلات المصعد المائى . وأخيراً فإن المدعى الصغير الرزوء يجد نفسه فى المكتبة من جديد ، ويتحامل من كرسى إلى آخر ويقلب صفحات بعض الكتب ويلقى بها . وأقرب من النافذة والملح ذبابة تحت الستارة وأطبق عليها فى فح من الشاش ، وأوجه نحوها سبابة قاتلة . إن هذه اللحظة هى خارج البرنامج ، مستخرجة من الوقت المادى وموضوعة جانبا ولا نظير لها ، وجامدة لن يخرج منها شيء هذا المساء ولا بعد ذلك ، سوف تجهل أوريالك دأما هذه الأبدية المضطربة . إن الانسانية نائمة ، أما عن الكاتب المشهور — هذا القديس الذى لن يؤذى ذبابة — فقد خرج توا . وحيدا وبلا مستقبل فى دقيقة راكدة وملوثة ، يريد الطفل من القتل أحاسيس شديدة ؛ فيما أنهم يرفضون أن يعطونى مصير إنسان ، فسأكون مصير ذبابة . ولا أتعبل فإنى آتلكها الوقت لتعزى المارد الذى ينحنى عليها . أقدم إصبعى فتنفجر . لقد خدعت . ويحى ! كان يجب ألا أقتلها . كانت الكائن الوحيد الذى يخشانى من بين الخليقة كلها . لم يعد أحد يهتم بى . ولما كنت قاتل حشرات ، فقد أخذت مكان الضحية وأصبحت حشرة بدورى . أنا ذبابة وقد كنتها دأما . وفى هذه المرة لست القاع . لم يعد أمانى إلا أن آخذ من على المنضدة ، مغامرات القبطان كوركوران ، وأن أتهالك على السجادة وأن أفتح كيفما أتفق الكتاب الذى عاودت قراءته مائة مرة . إننى شديد التعب ، شديد الحزن بحيث لم أعد أشعر بأعصابى .

وأنى نفسى منذ السطر الأول. إن كوركوران يضرب الطبول فى المكتبة الخالية ويتأبط بندقيته ونمرته تتبعه : إن أشجار الغابة تنهيا بسرعة حولهما. وعن بعد زرعت أشجاراً ، والقروء تقفز من غصن إلى آخر . وخفاة تأخذ الثمرة لوزون فى الزئير ، ويتسمر كوركوران فى مكانه : هذا هو العدو . إن مجدى يختار هذه اللحظة المؤثرة ليعود إلى الأمية ، والإنسانية لتستيقظ مرتجفة وتستجد بى ، والروح القدس ليهمس فى أذنى هذه الكلمات المقلقة : « لو لم تجدى لما بحث عنى » ، إن هذا الملق سوف يضع : ولا يوجد هنا أحد لسمعها سوى الشجاع كوركوران . ودخل الكاتب الشهير وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا التصريح : إن أحد أحفاد أخوالى يعمل برأسه الأبيض على تاريخ حياتى وتبلل الدموع عينيه. وينهض المستقبل ، ويلفنى حب لانهاى ، وأضواء تدور فى قلبى ، ولا أتحرك ولا أعطى نظرة للاحتفال . وأتابع قراءتى بكل عقل ، وينتهى الأمر بالأضواء أن تنطفئ . إنى لم أعد أحس إلا بإيقاع ، بدفع لا يقاوم . وأقلع ... لقد أقلت ! وأتقدم ... المحرك يهدر ! وأشعر بسرعة روحى .

هذه هى بدايتى : لقد هربت ، وشكلت قوى خارجية هروبى وصنعتى . وخلال إدراك بائد للثقافة يظهر الدين الذى كان يستخدم نموذجاً مضغراً . ولما كان طفلياً فهو أقرب شئ للطفل . فقد كانوا يعلموننى التاريخ المقدس والإنجيل والتعليم الدينى دون أن يعطونى وسائل الإيمان . وكانت النتيجة بلبلة أصبحت نظامى الخاص . وحدث انطواء وانطلاق كبير ؛ ولما كان المقدس مأخوذاً عن الكاثوليكية فقد رسب فى الأدب ، وظهر الكاتب مسيحياً مصنوعاً لم أكن أستطيع أن أكونه . كان الخلاص عمله الوحيد ، ولم يكن لإقامته على الأرض من هدف إلا أن يجعل مستحقاً لسعادة بعد

الموت بمن يتحملها بجدارة . وتحول الموت إلى إحدى الشعائر العابرة ،
وقدم الخلود الأرضي نفسه ثابثاً عن الحياة الأبدية . وليؤكدوا لي أن
الجنس البشري سوف يخلدني فقد اعترفوا في رأسي بأنه لن ينتهي . أن
أموت فيه كان يعني أن أولد وأن أصبح لا نهائياً . ولكن لو أبدوا أمانى
افتراضاً بأن كارثة كونية قد تدمر الأرض في يوم من الأيام ، ولو بعد
خمين ألف سنة ، فإنني أصاب بالهلع . واليوم أيضاً ، وقد زالت أوهامى ،
فإنني لا أستطيع أن أفكر بلا خوف في خلود الشمس . وسيان عندي أن
ينساني أبناء جنس غداة دفنى ؛ فلسوف أخالطهم طالما عاشوا ، دون أن
يستطيع أحد أن يمكّننى ويسمّننى ، وأكون موجوداً في كل منهم كما
يوجد في مليارات الموتى الذين أجهلهم ، والذين أحفظهم من المدمر .
ولم يكن إن حدث واختفت الإنسانية فإنها تمت موتاتها حقيقة .

إن الأسطورة كانت غاية في البساطة وقد هضمها بلا تعب . ولما كنت
بروتستانتياً وكاثوليكياً ، فإن تبعيتي الدينية المزدوجة كانت تمنعني من
الإيمان بالقديسين وبالعلماء وأخيراً بالله من كثرة ما كانوا ينادونهم باسمهم .
ولكن قوة جماعية ضخمة نفذت في ؛ وحين استقرت في قلبي ، كانت
تصحين الفرص ، لقد كانت إيمان الآخرين ؛ يكفي أن يتغير اسم هذا الهدف
المادى ويمدل سطحه . لقد عرفه تحت التنكر الذي كان يخدعني ، وألقى
بنفسه عليه ، واحتواه في مخالبه . كنت أعتقد بأنني أكرس نفسي للأدب
في حين أنني دخلت في الحقيقة سلك الرهبنة . وفي تحول يقين المؤمن
البالغ التواضع إلى البدهة المتكبرة لمدورى . ولم لا أكون مختاراً وكل
مسيحي يعتبر مختاراً كذلك؟ ولقد دعوت كمعش بربى على سماء الكاثوليكية،

وكانت جذورى تمتص عصارتها وأصنع منها عصيرى . ومن هنا جاء هذا
العمى الجلى الذى عانيت منه ثلاثين سنة . وذات صباح من سنة ١٩١٧ فى
لا روشيل ، كنت أنتظر زملاء كانوا سيصحبونى إلى المدرسة ، وتأخروا ،
ومالبت أن عجزت عن ابتكار شيء يلهمنى ، وقررت أن أفكر فى القوى
العزیز . وفى الحال تدحرج فى زرقة السماء واختفى دون أن يعطى تفسيراً .
قلت فى نفسى بدهشة أدب أنه غير موجود ، واعتقدت أن الأمر قد سوى .
لقد سوى من ناحية ما ، بما أننى منذ ذلك الحين لم أشعر بأية رغبة فى بعثه .
ولكن الآخر قد ظل : اللامرئى ... الروح القدس ، الذى كان يضمن
برسالتي ويهيم على حياتى بقوى كبيرة غفلة ومقدسة . لقد شقيت من
التخلص منه بقدر ما كان قائماً خلف رأسى فى المعانى المهربة التى كنت
أستخدمها لأفهم نفسى ولأحدد موقعى وأبرر نفسى . ولمدة طويلة كانت
الكتابة معناها أن أطلب من الوت ، من الدين المقنع أن يتزعا حياتى
من الصدفة . كنت من الكنيسة . ولما كنت مجاهداً ، فقد أردت أن
أخلص نفسى بالأعمال . ولما كنت متصوفاً ، فقد حاولت أن أكشف
النقاب عن سكوت الكائن بحفيف مكدر من الكلمات ، وبخاصة ، فقد
خلطت الأشياء بأسمائها : إنه الايمان . كانت على عيني غشاوة . وطالما بقيت ،
اعتبرت نفسى متخلصاً من ورطة . ونجحت فى سن الثلاثين فى هذه الحيلة
الطيبة : أن أكتب فى الثييان ^(١) — بكل إخلاص ، يستطيع الناس أن
يصدقونى — الوجود غير المبرر والمر لأبناء جنسنى وأن أخرج وجودى
من الموضوع . كنت روكونتان ^(٢) ، كنت أرى فيه ، بلا محاملة ، لحمة

(١) أول رواية كتبها سارتر (الترجم)

(٢) أحد أبطال الثييان (الترجم)

حياتي . وفي الوقت نفسه كنت أنا المختار ، مؤرخ جهنم ، جهاز التصوير
المجهرى من الزجاج والصلب ، منحنيًا على سوائيل البروتو بلازمية . وعرضت
بعد ذلك بفرح أن الانسان محال . ولما كنت أنا نفسى محالا ، فإني لم
أكن أختلف عن الآخرين إلا بالوكالة الوحيدة لإظهار هذه الاستحالة ،
التي كانت تحول في الحال وتصبح إحصاء إمكانياتي وموضوع رسالتي وحافز
مجدى . كنت جيس هذه البدايات ولكن لم أكن أراها : كنت أرى
العالم خلالها ولما كنت مزورا حتى العظم ومخدوعا ، فقد كنت أكتب
بسرور عن وضعا التمس . ولما كنت عقائديا فقد شككت في كل شيء .
عدا أنى موضوع اختيار الشك . كنت أضلح بيد ما كنت أخبره باليد
الأخرى ، وكنت أعتبر القلق ضمانا لأمنى ، وكنت سعيداً .

لقد تغيرت . وسوف أحكى مستقبلا أى أحماض أكلت الشفافيات
المشوهة التي كانت تكتفنى ، ومتى وكيف تدرت على العنف واكتشفت .
بشاعى — التي كانت زمناً طويلاً مبدئى السلبى ، والجير الحى حيث ذاب
الطفل العجيب . وبأى عقل استدرجت إلى التفكير النهجى على الرغم منى ،
إلى حد تقدير بدهاة فكرة ، بالكرب الذى تسببه لى . إن الوهم الماضى
تكسر إربا ؛ إن كلا من الاستشهاد والخلاص والخلود ينهدم ، لقد أصبح
الصرح خرابا ، وأمست الروح القدس فى الأقيية وطرده منها ؛ إن
الإلحاد مشروع قاس وطويل : وأعتقد أنى وصلت به إلى النهاية . إنى
أرى بوضوح ، لقد تيقظت ، إنى أعرف واجباتى الحقيقية ، وأستحق
بالتاكيد جائزة على إخلاصى للوطن ؛ فنذ ما يقرب من عشر سنوات
وأنا رجل يستيقظ وقد شفى من جون طويل وميرير ورقيق ، وهو .

لا يزال متعباً ، لا يستطيع أن يتذكر دون أن يضحك ضلاله القديم ، ولم يعد يعرف ما يفعل بحياته . لقد عدت المسافر بلا تذكرة الذى كتبه فى السابعة من عمرى : ودخل الفئش إلى ديوانى ، ونظر إلى ، نظرة أقل قسوة من الماضى . والواقع إنه لا يطلب إلا أن يرحل ، وأن يتركنى أكل الرحلة بسلام ؛ أن أعطيه حجة مقبولة ، أية حاجة ، فإنه سيرضى بها . وإنى لا أجد مع الأسف أية حجة ، وفضلاً عن ذلك فإنى لا أرغب حتى فى البحث عنها : سوف نمكث وجهها لوجه وحدنا ، فى القلق حتى ديجون . حيث أعرف جيداً أن لا أحد ينتظرنى .

لقد تخليت عن سلطتى ولكن لم أترك ثوبى : إنى ما زلت أكتب . وما الذى يمكن عمله غير ذلك ؟

لا ينقضى يوم دون أن أخط سطرًا (١) .

هذه عادتى ثم إنها مهنتى . لقد حسبت قلمى سيفاً زمننا طويلاً : وإنى أعرف الآن عجزنا . وهذا لا يهم : إنى أولف وسوف أولف كتباً ، لا بد من ذلك ، وإنه مفيد كذلك . إن الثقافة لا تنقذ شيئاً ولا شخصاً ، إنها لا تبرر . ولكنها نتاج الإنسان : إنه يعكس نفسه عليها ويعرف نفسه بها ؛ إن هذه المرأة الناقدة هي وحدها التى تقدم له صورته . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا المبنى القديم المتداعى — خدعتى — هو كذلك خلقى : إن المرء يتخلص من مرض عصبى ولكنه لا يبرأ من نفسه . إن كل قسمة الطفل ، وقد بليت ومسحت وأذلت وأعملت وكتمت ، قد ظلت عند الخمسينى .

(١) مثل لانيى بذكره سارتر (المترجم)

إنها تستطيع في أغلب الأحيان في الظلام ، وترصد : وفي أول لحظة عدم انتباه ، ترفع رأسها وتدخل في وضع النهار تحت ثوب تنكرى . إننى أدعى بإخلاص أننى لا أكتب إلا لزمى ، ولكنى أغتاط من شهرتى الحالية . إنها ليست المجد ، بما أننى على قيد الحياة ، وهذا يكفى مع ذلك لتكذيب أحلامى القديمة ، حتى لو كنت لا أزال أدعها سرا ؟ غير أن الأمر ليس كذلك تماما : لقد كلفتها على ما أعتقد : فما أننى فقدت فرصى فى أن أموت مجهولا ، فإنى أغبط نفسى أحيانا على أنى أعيش مجهولا . فأنا جريديس التى لم تمت . إن باردیان لا يزال يسكن فى وكذلك ستروجوف . إننى لا أتبع غيرهم وهم لا يتبعون إلا الله الذى لا أعتقد فيه . هل تفهم شيئا من ذلك ؟ فمن ناحيتى أنا لا أفهم شيئا ، وإنى أسأل نفسى أحيانا ما إذا كنت ألب لعبة الذى يخسر يربح ، وأجتهد فى أن أدوس آمالى الماضية لكى أعوض عن ذلك كله أضعافا مضاعفة . وفى هذه الحالة أكون فيلوكتيت (١) : ولما كان هذا العاجز عظما وممتنا فقد أعطى حتى قومه بلا شرط : ولكنا فى الحفاء نستطيع أن نتأكد أنه ينتظر جزاءه .

ولترك ذلك . إن أمى تقول فى ذلك :

« مروا أيها القانون ولا تلحوا . »

(١) قائد أغريقى اشترك فى حصار طروادة وقد أعطاه هرقل سهامة المسومة . وفى طريقه إلى طروادة غشه ثعبان وفاحت من جرحه رائحة كريهة اضطرت زملاءه إلى تركه فى جزيرة لنوس حيث مكث عشرين سنوات . وجاء أوليس هوديميد لإحضاره من هذه الجزيرة ، ذلك لأن هاتفا إليها كان قد أعلن أن طروادة لن تسقط إلا بسهام هرقل (المترجم) .

إن ما أجه في جنوني هو حمايته لي منذ أول يوم من اغراءات
 النخبة ، : لم أعتقد أبداً بأننى صاحب «ملكة» سعيد ، إن همى الوحيد
 هو أن أخلص نفسى — خالى الدين وفارغ الجيوب — بالعمل والإيمان .
 ومع ذلك فإن اختيارى الصافى لم يرفعنى فوق أحد . وبدون معدات
 وأدوات أخذت أعمل بكلىتى كى أخلص نفسى كليا . وإذا كنت أضع
 الخلاص المحال فى مخزن اللواحق ، فماذا يتبقى ؟ إنسان ب كله مصنوع من
 كل الناس ، يساويهم جميعا ، وأى واحد يساويه .

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

